أعلام العرب

٧١

على مبارك

ابو التعليم

تأليف

الدكتور حسين فوزى النجار

وزارة الثقافة
مؤسسة التأليف والنشر
دار الكاتب العربى
القاهرة - ١٩٦٧

مقدمة

نقف أحيانا من البطل أو العظيم فى التاريخ موقفا قلقا نحكم عليه بذاته وأثره التاريخى وموقفه من الأحـــداث التاريخية متناسين عامل الزمان والمكان ، وقد يكونان أشد أثرا عليه وعلى موقفه من الأحداث التاريخية من ذاته فكم من رجال قذفت بهم ظروف الزمان والمكان الى مسرح التاريخ وسط الأنوار والضجيج فشغلوا بعض صفحاته ، ولم تكن لهم القدرة على تكييف مجراه أو التأثير فى أحداثه وانما ساقتهم الى العظمة قوى قائمة فعلا ، وبقدر ما يعملون على تشكيل تلك القوى وتكييفها تكون قدرتهم على التغيير ويكون أثرهم التـــاريخى ، فمنهم من يحتل مكانه البارز فى صفحة التاريخ ، ومنهم من يمضى عابرا فوق صفحته كشخوص المقابر ، لا تعنى أكثر من أن انسانا عاش ومات ولا تزيد على أنها بطاقات ـ على حد تعبير تولستوى ـ تعطى أســـماء للأحداث ، فهم ـ كما يرى ماركس ـ أفراد عاديون يســـيرون بزهو فى أردية العظماء .

فاذا كان العظيم أو البطل فى التاريخ ـ كما يقول هيجل ـ هو الرجل الذى يعبر عن ارادة عصره ، ويعبر لعصره عن ارادته ويعمـــل على تحقيقها فاننا ننسى وقر الزمان والمكان وأثره فى تكييف الأحداث ، والتحكم فى ارادة الفرد وقدرته على التغيير .

وقد عاش على مبارك حياة ((هى بنت زمانه ومكانه)) تحكمها نظم بدت حتمية أو كانت حتمية فى وقتها ، توارث فيها ارادة الفرد أمام ارادة الحاكم ، واختفت فيها القيم المعنوية للمجتمع وانزوت الإرادة المادية للأفراد ، وغدت ارادة الحاكم هى وحدها التى تنعكس على المجتمـع شرا أو خيرا ، وبها ينبـــه الأفراد أو يخملون ، وفى هذا تتمثل قدرة البطل فى التـــاريخ حيث يتكيف مع ظروف عصره وبيئته حتى يستطيع التعبير عن ارادته فيحملها عصره .

الا أن البطل فى مثل هـــذا المجتمع يحتل فى الغالب المكان الثانى ، ما لم تكن له القدرة على التغيير ، فيقوم بتقويض النظام القائم ، أو يقوم من بين الأنقاض ليلعب الدور الأول فيحتل مكانه بين أبطال التاريخ ، ولم يكن على مبارك ممن يتصدرون موكب التاريخ ولكنه يمشى فى ركابه ، وتبدو قدرته فى المهارة التى يؤدى بها دوره ، وتقاس عظمته بالأثر التاريخى الذى ينجم عن دوره ، وقد لا نعده من أبطال التاريخ كما كان من الممكن أن نعد عرابى لو نجح فى دوره وقوض ـ كما كان يبغى ـ معالم النظام القديم ، وانما نعده صورة لرجل الدولة الكفء الذى يخدم المجتمع عن طريق الدولة . فيكون أثره التاريخى بقدر ما يعكس من خير على المجتمع ، وتكون قدرته فى استغلال ارادة الحاكم لخير بلده ، وبقدرته ونجاحه نستطيع أن نميزه على رجال عصره وبيئته بنوع من العظمة أو البطولة ونستطيع أن نقول أنه قام بالتعبير عن ارادته وابلاغ عصره ارادته وان كان لا يملك المعول الذى يهدم ويشيد .

كان على مبارك من هذا الطراز من الرجال المتازين فى عصره ، وكان من الطبيعى أن يتكيف هذا الامتياز مع ارادة الحاكم والا حجب الحاكم امتيازه وقدرته اذا ما أهمله وأبعده عن العمل .

وقد أبعد على مبارك عن العمل فترة ، وفكر فى الاشـــتغال بالتجارة ومارسها فعلا لولا أن ارادة الحاكم جذبته الى الميدان مرة أخرى ، وكان من الممكن أن يمضى فى ممارسة التجارة ويفوز بالثروة والمال فيعبر به التاريخ لا يعنى به ولا يلتفت اليه ولكنه حين اضطلع بالعمل تفتحت مواهبه للرسالة التى نبه بها وجذبت اليه مسامع التاريخ .

وكم من سير التاريخ يحكمها ما حكم سيرة على مبارك حيث يلتحم الذكاء بالارادة وتعوق الارادة قدرة الذكاء اذا تصدت لها أو وقفت دونها فلا تبتـــدع ولا تثمر . ولكن حين اجتمعت ارادة الحاكم الى ذكاء على مبارك وقدرته أبدع الذكاء وأثمرت القدرة ونبه ذكر على مبارك .

فسيرة على مبارك هى سيرة مواهبه وقدرته وابداعه وما أثمرت الموهبة والقدرة والابداع من خير لمصر ، ثم هى سيرة انســـان دؤوب يؤمن بحق وطنه عليه فيضع كل قدرته فى خدمة هذا الوطن ورفع شأنه ، وهى بالتالى انعكاس لتفكير عقل وأساوب ارادة متميزين يطبعان عمل صاحبهما بطابع ذاتى فرد ينطلق الى الخارج ولا يرتد الى الداخل فيكون أثره التاريخى بقدر ما يحمله تفكيره وتسوقه ارادته الى العمل الذى يؤمن به ويرى فيه الخير لبلاده . وهى أخيرا سيرة عظيم تكمن عظمته فى تسخير ارادة الحاكم للهدف الذى ينشده ويرتضيه .

وقد يبرر هنا ما أخذ به ، وقد يدينه ولكنه يبقى فى الحالين محمود الذكر طيب الأثر .

المعادى فى { ٨ ربيع الثانى ١٣٨٧
١٥ يولية ١٩٦٧ }

دكتور حسين فوزى النجار

حصاد الخطأ



طموحه على صـــخرة أطماعه فالتاث عقله ، وقضى أيامه الأخيرة ميتــا على قيـد الحياة ، وكانت نهاية مفجعـة لرجل احتـل فى التـــاريخ مـكانا مرموقا بين عظماء القرن التاسع عشر ، ولعل انهيار أعماله كان أشد قسوة على المصريين من انهيار آماله عليه فقد انتهى كل شىء ، ولم تجن مصر غير قبض الريح ، وارتدت الى أسوأ مما كانت عليه أيام المماليك فعانى الناس الفقر والحرمان وغدت السخرة قانونا ، وكانت تأتى عفوا لا يحـكمها نظـام أو قانون وانتبــذ الأتراك المصريين ، فلم يلق المصريون منهم غـير المهانة والازدراء . ولولا أن الموجة الغربيــة كانت قد امتدت فصفعت عقول الناس وأيقظتها على حياة جديدة ولولا أن الادارة المصرية قد اقتبست من النظم الأوربية ما يربط الدولة بنمط جديد من الرجال تعده المدارس ، ولولا أن استثمار الأرض الطيبة يحتاج الى تنظيم الرى والصرف ووسائل الزراعة الحديثة مما يتطلب اعداد المهندسين والفنيين ، لولا تلك الحاجات الملحة ، لارتدت مصر الى ظلام القرون الوسطى ، فقد أثقلها محمد على بالنفقات التى استنزفت جهـــد الفلاح وماله دون أن تعود عليه بشىء ، وأثقلتها الطبقة التركية بالاستبداد والمظالم حتى غدا التركى شبحا مقيتا ورهيبا فى آن واحد ، ولم يكن عجبا أن يخشى على مبارك لقاء عباس الأول حين استدعاه فيقول : « وداخلنى مالا مزيد عليه من الخوف لما كنت أعلم مما يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الايذاء ، وكان لى اجتماعات بالخديو اسماعيل وغيره منهم »

ولعله يشير الى السنوات التى قضاها ببعثة الأنجال فى باريس ، وكان اسماعيل أحد أفرادها وان لم يذكر ما كان من ايذائهم له ولرفاقه من المبعوثين المصريين ، ولكن خوفه من لقاء عباس الأول قد أثاره — دون شـــك — ما لقى من عشرة الأمراء فى باريس وما سمعه عن بطش آبائهم فلما لقيه وطلب منه ومن صاحبيه : حماد بك ، وعلى باشـــا ابراهيم أن يكونوا فى معيتـــه ، انذرهم أن لم يصـــدقوه القول وتبين كذب أحدهم فان « جزاءه سلب نعمته ، والباسه لبس الفلاحين وسلكه فى سلوكهم » .

ولم يكن محمد على الا كمن أقام قصرا منيفا لا يسكنه غير الخراب يبرق ظاهره ويغيم باطنـــه على سواد حالك ، لقد أقام دعائم دولة حـــديثة لهـــا ادارتها المحكمة ، وجيشها النظامى . وحكومتها القوية الساهرة ، واستطاع أن يغزو وينتصر ، ويمد ملكه حتى كاد يلتهم الدولة العثمانية ، وينشىء القناطر والسدود ويحفر القنوات ويدخل زراعات جديدة ويقيم العمائر ويتوسع فى التعليم ، ويدفع بالبعوث الى أوربا ، ولكنه حرم المصريين من كل شىء ، فلم يعد عليهم خير من جده ولم تكن لهم ثمرة شقائهم ، ولم ينجوا من قسوته وبطشه ، بل لقد غرس فى نفوس أبنائه ازدراء المصريين واحتقارهم ، فكان عناء الناس من قسوته أشد من عنائهم مما لحق بهم من فقر وجوع على يديه ، وما انتهت حياته حتى تحطم البناء على رأسه ولم ترث مصر عنه غير العبودية والعوز ، ولم يبق له هو نفسه غير عقل ملتاث وجسد مريض .

وما كان محمد على ينشد الاصلاح لذاته ، ولم يدر فى خلده قط أن يعمل لخدمة مصر والمصريين ، ولم يفكر فى اقامة وحدة عربية أو اسلامية كما يصوره بعض مؤرخيه ، وانما كان رجلا يصدر عن ذاته ، ويصدر عن طموحه الشخصى وآماله العراض فى بناء دولة يحكمها ويرثها أبناؤه من بعده ، وبقدر ما أوتى من

فطنة وذكاء وقدرة هيأت النجاح لمشروعاته ولكل ما راود طموحه من امل ، بقدر ما غفل عن شيء واحد كانت نهايته فيه حين أغفل المصريين ولم يلق بالا الى تلك العقول والسواعد التى تستطيع أن تسنده وتشد أزره عندما تتكاثر الخطوب وتتكالب الأزمات ، فحين تصدت له الدولة ، لم يجد وراءه شعبا يقف الى جواره ، فبرمت به سورية وثارت عليه ، واستسلم المصريون يجترون آلامهم فى صمت ، ودمغه بالمرستون حين أعلن أنه « يحارب محمد على لأنه يحارب لنفسه وليس وراءه شعب يطلب الحرية أو يستحقها » ، وحين عرف نهاية آماله أهمل مشروعاته فأقفلت المصانع ، وانكمشت المدارس ، وحمل عباس الوزر كله وحصد مرارة الخطأ . فقيل انه أوقف عجلة التقدم ، ودفع بها الى الوراء ولم يكن فى قدرة عباس أن يصنع غير هذا ، وما كان فى قدرة محمد على لو امتد به الأجل أن يكون خيرا من عباس فقد أكمل عباس ما بدأه محمد على من اقفال المدارس حين انصرفت حاجته عنها ، وجرى سعيد جرى عباس فى هذا فلم يلق بالا الى التعليم ، ولم يكن هذا شذوذا على القاعدة التى وضعها محمد على فما كان محمد على ـ كما قلنا ـ ينشد رفاهية الشعب أو رفع مستواه المادى وانما راح ينشد ملكا ، وقام ينشئه ، ويصطنع من الأدوات ما يقتضيه الانشاء ، فأقام جيشا عد من خيرة جيوش العالم حينذاك ، ولكنه فشل فى أن يغرس فى المصريين روح الجندية ، فكان منهم من يتفنن فى ايذاء نفسه ليعفى من التجنيد ، ولم يعد عليهم عائد من فتوحه يحملهم على الفداء والتضحية ، وقتل فيهم الاعتداد بالنفس بما سامهم من عسف ، وخنق دوافعهم القومية منذ البداية ، وسود عليهم غيرهم ، فكرهوه وكرهوا كل عمل يقوم به ، وفقدوا حافز المجد الذى دفع الفرنسيين وراء نابليون لفتح أوربا .

وانشأ المدارس ولكنه بدأ من القمة ، وما كان يعنيه من انشائها الا امداد جيشه بالضباط والفنيين والعتـــاد ، ولم يفكر فى تعليم الشعب ، فما كان للشعب فى ميزانه نصيب فاذا كان عباس وسعيد قد انصرفا عن التعليم فلأن الحاجة التى دفعت محمد على اليه لم تعد قائمة ، ولعل الفكرة التى أورثهم اياها محمد على ، وهى أن مصر مزرعة طيبة عليهم أن يســـــتثمروها لأنفسهم خير استثمار ، كانت نبراسهم فى كل عمل يقومون به ، فاذا كانوا قد أولوا الرى والزراعة شيئا من اهتمامهم ، أو جل إهتمامهم ، فقد عنى بها الاحتلال البريطانى لنفعه هو الآخـــر — أكثر مما عنوا أنفسهم — وكان الفلاح أكثر عائدا من الأرض على عهد الاحتلال ، مما كان على عهد الاستبداد الخديوى . فقد ظل الفلاح أجيرا مسكينا مسخرا على عهد محمد على وعباس ، ولم يتحسن حاله كثيرا على عهد سعيد واسماعيل بالرغم مما ناله من حق تملك الأرض ، وبالرغم من تعس الفلاح وضآلة عائده ، فان عمال الصناعات المحلية السائدة — وكانت تحقق عائدا سنويا قدره مائة وخمسون ألفا من الجنيهات — قد هجروا صناعاتهم الى الزراعة بسبب نظام الاحتكار الذى عاد « على الباشا بأرباح طائلة — كما يقول مريو فى كتابه مصر الحديثة — ولكنه دفع الفلاحين الى المجاعة بما أنزله بهم من فقر » .

وكانت الضرائب فادحة ثقيلة ، لم تبق شيئا فى يد المصريين ، وعجزت قرى بأجمعها عن الأداء ، فأضاف ضرائبها الى ضرائب القرى المجاورة ، وضمن الموسرين ضريبة المعسرين ، ثم عهد بها الى الأعيان والمأمورين ورجال الجهادية يؤدونها ثم يستوفونها بعد ذلك من الأهالى كل بما عهد اليه من بلاد . وهاجر كثير من المصريين الى البلاد العربية المجاورة فرارا من فدح الضرائب وأوضار التجنيد . وارتفعت الأسعار حتى بلغ ثمن السلعة عشرة أمثال ثمنها الأصلى ، كما يقول الجبرتى ، فزادت الناس فقرا على فقر .

وكانت فى الرجل قسوة تجرده من كل فطرة انسانية ، يقص الجبرتى من اخبارها ما أهمل روايته مؤرخو الأسرة العلوية من المصريين ، فمن ذلك أن أدوات للقهوة سرقت من سراياه بشبرا ولما سيق اليه المتهمون وكانوا خمسة أمر بقتلهم ، ثم أخذ خمسين غيرهم ممن حامت حولهم الشبهات فأمر بقتلهم متفرقين فى بلاد عديدة من الغربية والمنوفية والقليوبية ، ومنها أن ولده ابراهيم امر برجل فى الصعيد فربط الى خشبة وأمسك رجال بأطرافها يقلبونه على نار مشتعلة (مثل الكباب) ، ويقول الجبرتى أن ابراهيم حين نزل الى الصعيد ، وكان قد تولى امارته وهو دون العشرين (جاهلا غشوما) فعل بأهله ما فعل التتار عندما جالوا فى الأقطار وأذل أعزة أهله ، ويروى أن رجلا استخلفه بقوله : « وحق من أعطاك ، فقال له ابراهيم ومن الذى اعطانى .. ؟ قال : ربك ، فقال له : انه لم يعطنى شيئا .. والذى أعطانى أبى » .

وكان لحبه المال لا يألو فى جمعه سبيلا ، فكان يبيع ما يزرع حتى الخضر ، وينادى البائعون فيقولون : فجل الباشا ، كرنب الباشا ، ملوخية الباشا « ولما رغب صهره » « محرم بك » أن يسافر الى بلده ، أرسل الى الأعيان « تنابيه بالأمر لهم بمهاداته ، ففعلوا وعبوا له بقجا بنا وأرزا وأقمشة هندية ومحلاوية كل أمير على قدر مقامه » .

وظل هذا الشره الى المال كامنا فى أعقابه ، فضلا عن شطحات عقل تكمن فيه لوثة ورثوها عنه تبدو فى سلوكهم ونزواتهم ، فمن غرابة عباس الأول وشذوذه الى بلادة سعيد وغبائه وسفه اسماعيل وغروره ، وسلبية توفيق وجبنه ، وغيرة فؤاد الجنسية التى أفسدت بنيه وزوجه الى صبيانيات فاروق ورعونته وبله تصرفاته ، ولى اسماعيل الحكم وهو لا يملك غير خمسة عشر الف فدان . فاذا بها فى نهاية حكمه وقد أصبحت تسعمائة وخمسين ألف فدان .

واقترف عباس الثانى كل شائنة حتى الرشوة للحصول على المال وأصبح فؤاد الذى اعتلى العرش مفلسا أكبر مالك فى البلاد ، واتخذ فاروق من القمار وسيلة للرشوة وجمع المال ، ومن نقائض خلقتهم أنهم كانوا يجمعون الى الذكاء الخاطف غباء أصيلا يدمر كل لمحة من لمحات ذكائهم والى جمال الصبا قبح الرجولة ، ففاروق الصبى المحبوب ، قد تحول الى غوريللا ضخمة ، ولما يجاوز الحلقة الرابعة من عمره ، وكانت تلك خاتمة ابن عمه عباس الثانى من قبله ، بدأ أميرا وجيها وانتهى مرابيا صعلوكا قبيحا .

وانعكست هذه النقائض على البلاد شرا وقسوة واملاقا رزح تحته المصريون طوال قرن ونصف ، ولم تكن الصورة التى يصفها الجبرتى لعام ١٢٣٢ هـ (١٨١٧) عن الشح والغلاء وندرة الأقوات ، وأعطاها « مانجان » مدلولها التاريخى بقوله : « اذا صح ما يقال من أن مصر أخصب بلاد العالم وأغناها ، فما من بلد آخر يفوقها فى تعاسة سكانها وبؤسهم ، فاذا لم يغن سكانها حتى الآن ، فالفضل فى ذلك الى خصب أرضها وقناعة فلاحها » وأجملها « الرافعى » بقوله : « فزيادة الحاصلات الزراعية واقامة أعمال العمران لم يقترن بها ارتقاء حالة الفلاح الاجتماعية » لم تكن هذه الصورة لتختلف كثيرا عما رآه « بلنت » ودونه عام ١٨٧٦ عندما جاء لزيارة مصر ، فقد « كان الفلاحون — كما يقول — يعانون أشد حالات الفقر والاملاق ، ففى هذا العام وهو الأول من الأعوام الثلاثة الأخيرة المروعة من حكم الخديو اسماعيل وحملة القراطيس الأجانب يجأرون مطالبين باستحقاقاتهم ، واسماعيل صديق المفتش المشهور ما زال فى أوج مجده كانت المجاعة تدق أبواب الفلاحين ، وكان من النادر أن يرى الانسان فلاحا على رأسه عمامة ، أو على ظهره أكثر من قميص ... ولم يكن بين مشايخ القرى من يملك عباءة غير عدد قليل ، وأينما ذهبت كانت الحال كما وصفت ، وتغشى النسوة الأسواق لبيع ملابسهن ، وحليهن الفضية

عباءة غير عدد قليل ، وانما ذهبت كانت الحال كما وصفت ، للمرابين الأروام ، فان جامعى الضرائب كانوا بانتظارهن فى القرى والكرابيج فى أيديهم ، وقد ابتعنا من مصـــوغاتهن الزهيدة ، واستمعنا الى قصصهن ، واستنزلنا معهن اللعنات على الحكومة التى كانت سببا فى عريهن » . وكأن مصر لم تجن شيئا خلال تلك السنوات الطوال من عام ١٨١٧ الى عام ١٨٧٦ ، ولم يعد فى يدها غير حصـاد الخطأ .

وكان الاحتلال البريطانى لوادى النيل عام ١٨٨٢ ، حصـــاد جيل من الأخطاء امتد قرابة سبعين عاما ، منذ استبد محمد على بالسلطة حتى عودة توفيق الى القاهرة والى كرسى الخديوية مجردا من السلطان على أسنة الحراب الانجليزية ، ولا تنسى القاهرة ذلك اليوم الحزين يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، وقد رأت عربة الخديو التى أقلته من (محطة مصر) الى سراى الاسماعيلية وهى تحمل الى يساره « دوق كنوت » وأمامهما الجنرال ولســـلى قائد الحملة والســـير ادوارد مالت المعتمـــــد البريطـــانى يتبعهـــا « دوق تك » ممتطيا جواده فى مقدمة كتيبة من الفرسان الانجليز ووراءه الأمراء والوزراء والعلماء وكبار المستقبلين ، بينما اصطفت قوات الاحتلال على الجانبين فى طريق الموكب من ميدان المحطة حتى سراى الاسماعيلية .

وفى هذا الجيل عاش « على مبارك » ـ ولد فى قرية برنبال الجديدة من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية عام ١٢٣٩ هـ (١٨٢٤ م) واجتاز مراحل التعليم المختلفة حتى أوفى على غايتها بمدرسة المهندسخانة ، فكان أول فرقته واختاره سليمان باشا الفرنساوى عام ١٨٤٤ فيمن اختارهم لدراسة الفنون الحربية فى مدرســـة خاصة أنشأها محمد على بفرنسا وعرفت باســـم « المدرسة المصرية الحربية بباريس » وهذه البعثة هى التى سميت

« بعثة الأنجال » اذ ضمت من أبناء محمد على وأحفاده أربعة — هم ولداه « الأمير حسنين » و « الأمير حليم » ، وحفيداه « الأمير أحمد » و « الأمير اسماعيل » من أبناء ابراهيم .

وتميز أفراد هذه البعثة بعضهم عن بعض ، فالأمراء هم « أصحاب السعادة البكوات » وأبناء الذوات هم « البكوات » فحسب ، وغيرهم هم الأفندية « وبهذا جرت تسميتهم فى دفاتر المحفوظات » .

وعاد على مبارك من البعثة عام ١٨٥٠ فلم يلحق بحكم محمد على ولا بحكم ابراهيم القصير ، ولحق حكم عباس ، وسعيد ، واسماعيل ، وتوفيق حتى توفى فى نوفمبر عام ١٨٩٣ بعد أحد عشر عاما من الاحتلال البريطانى كتب فيها صفحة لامعة فى تاريخ مصر ما زالت صورتها باقية حتى يومنا هذا .

مغامرة الطموح

شب الوليد عن الطوق ، وجاوز مرحلة الطفولة الى بواكير الصبا ، وأراد أبوه أن ينشئه على غراره ، يفقه الناس فى دينهم ، ويقضى لهم حـوائج دنيـاهم مما يحتاجه مجتمع صـغير يعيش عـلى الزراعة ولا يرى أفراده حاجة الى القراءة والكتابة ما دام هناك من يقوم بوظائف « القضاء والخطبة والامامة وعقود الأنكحة والكيل والميزان » وما تتطلبه من المام قليل بالفقه وبالقراءة والكتابة .

وكان فى كل قرية أسرة تتوارث هـذه الوظائف ، ويتلقى من يعد لها قدرا من التعليم لا يتجاوز حفظ القرآن الكريم ، والماما بالقراءة والكتابة ومبادىء الحساب والمعاملات الشرعية ، يكفيه أهل القرية حاجته من المعيشة ، فلا يشغل نفسه بما يشغل به الفلاحون من زراعة الأرض طلبا للقوت ، وتلقى مثل هذه الأسر من التوقير المشوب بالعاطفة الدينية ما يعوضها جاه المالك ونفوذ الغنى وان لم ترق الى المكانة التى يتمتع بها المالك أو الغنى ، ولكنها فى مجتمع لا يملك ولا يمتاز بعض أفراده بالثراء كمجتمع القرية المصرية حينـذاك ، كانت تتمتع بنوع من المكانة يسبغها الفضل والعمل الدينى عليها .

ومن هذا القبيل كانت أسرة على مبارك ، يرجع أصلها الى قرية « الكوم والخليج » على بحر طناح « وبسبب فشل كبير حصل فى البلد ــ كما يقول على مبارك فى سيرته بالخطط التوفيقية ــ تشتتت عائلتنا فى البلاد ... وأقام جدنا الأكبر ابراهيم الروجى

بناحية برنبال الجديدة مكرما معززا فكان هو امامها وخطيبها وقاضيها ، وبعد موته عقبه ولده سليمان على وظيفته وعقب سليمان ابنه مبارك ، ولما رزق مبارك الذى هو الجد الأدنى بأبى سماه على اسمه ونشأ على وظيفة آبائه واجداده ، وهكذا اكثر العائلة ، فلذا كانت تعرف فى البلد الآن بعائلة المشايخ ، وهى عائلة كثيرة الفروع بحيث أن منها فى البلد حارة كاملة تعد نحو مائتى نفس ... وكانت لهم رزقة بلا مال ولم يكن عليهم شىء مما على الفلاحين ، ولا لهم علائق عند حكام الجهات ، وبقوا على ذلك الى أن حصل ضعف أكثر أهالى الناحية عن فلاحة الأرض وانكسرت عليهم أموال الديوان ، فرمى الحكام على هذه العائلة مقدارا من الأطيان وطلبوا منهم أموالها المنكسرة عليها ، وضربوا عليهم بعض ضرائب وشددوا فى خلاصها بالسجن والضرب كأسوة الفلاحين ، فضاق خناقهم من ذلك لعدم اعتيادهم الاهانة ، وبعد بذلهم ما بأيديهم وبيعهم المواشى وأثاثات البيوت ، رأوا أن لا ملجأ لهم من ذلك الا الفرار ففارقوا البلد وتفرقوا فى البلاد ، فنزل والدى بقرية الحماديين من بلاد الشرقية وعمرى اذ ذاك نحو ست سنوات » .

ولا يذكر على مبارك علة هذا « الضعف » الذى حاق بالفلاحين فحال بينهم وبين فلاحة الأرض وحمل أهله على هجرة بلدهم فرارا من الضرائب ، ولا يعنى هذا أن الصورة لم تكن واضحة فى ذهنه ، أو انه لم يتبين أسبابها فيما بعد ، ولكنه وهو يدرك تماما علة البلاء حين كتب « الخطط التوفيقية » وأن مصدره نظام محمد على المالى والادارى ، لم يشأ وهو أحد رجال « الدولة العلوية » أن ينسب السوء اليها فيكتفى بالاشارة الى « انكسار أموال الديوان » وما رمى به « الحكام عائلته من الأطيان » ويبقى طوال حياته لا يعرض للأسرة الحاكمة بسوء ، وان لم ينل من

ورائها خيرا الا أن مكنته من خدمة بلاده ، فحول نزوة اسماعيل المظهرية للاصلاح الى عمل جاد مثمر عاد بأعظم الخير على البلاد .

ولا يطيب لأبيه المقام فى قرية الحماديين ، فيرتحل عنها الى جوار عرب السماعنة بالشرقية يقول عنهم أنهم « من عرب الخيش » وهم طائفة ــ على ما أعلم ــ من البدو يعيشون على رعى الأغنام وينسجون خيامهم من أصوافها ، ويعيشون حياة قبلية مستقرة على حفــافى القرى بمعزل عن ســكانها . وان ربط بينهما جوار حميد ، وما زالت بقاياهم تعيش حياتها الأثرة فى ريف مصر حتى يومنا هـــذا .

ويجد فى عرب السماعنة كرما تطيب له حياته معهم ، ويبنون له مسجدا يقيم لهم فيه شعائر دينهم ، فلم يكن فيهم من يقوم اهم بها ، وحين يلوذ بحياته الجــديدة راضــيا ، يلتفت الى تعليم ولده على فقام على تعليمه بنفسه ــ وكان قد عهد به فى برنبال الى فقيه أعمى « يسمى أبا عسر » يعلمه القراءة والكتابة ــ ثم دفع به الى « معلم اسمه الشيخ أحمد أبو خضر من ناحية الكردى ، قرية بقرب برنبال ، وكان مقيما بقرية صغيرة قريبة من مساكن هؤلاء العرب ، وجعــل الوالد يرسل لى كفايتى عنده ، وكنت لا أذهب الى بيتنا الا كل جمعة ، ومن خوفى منه كنت لا أعود اليه فارغ اليد ، فأقمت عنده نحو سنتين فختمت القرآن بداية ، ثم لكثرة ضربه لى تركته وأبيت أن أذهب اليه بعد ذلك ، وجعلت أقرأ عند والدى الا أنى لكثرة أشغاله واشتغاله عنى استعملت اللعب والتفريط فنسيت ما حفظته ، فخشى والدى عاقبة ذلك فهم بجبرى على الذهاب الى هذا المعلم فتعاصيت ونويت الهروب ان لم يرجع عنى ، وكان لى من الأخــوات ســبع بنات شقيقات ولم يكن لوالدتى من الذكور غيرى ولى اخوة ذكور من غير أمى ، فلما فهموا منى نية الهروب ، أشفقوا من ذلك وحنوا الى وسألونى

عن مرغوبى فى التربية اذ لا يصح بقاء الشخص بلا تربية فاخترت ألا أكون فقيها بهذه المثابة ، وانما أكون كاتبا لما كنت أرى للكتاب من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام » .

واذن فقد أصبح للطفل رأى هو وليد التجربة والخبرة على قلتهما والطموح على بداوته ، ولا بد أنها كانت جميعا تستند الى ذكاء فطرى يزن الأمور ويقدرها ، ويدفع عنها بأسلوب ينم عن سلبية فلا يدفع بالتصدى والعصيان وانما يدفع بالهرب أو التهديد بالهرب ، ولعله يرى فى هذا الأسلوب ما يحقق بغيته أكثر مما يحققها التصدى والعصيان ، وسنرى هذا الأسلوب من السلبية يسود حياته جميعا ، يقعد به عن التصدى والمقاومة ، وأحيانا عن السعى ، ويحمله على الاستسلام والرضا والتكيف مع الأمور ، بل أنه ليرى فى التكيف سبيلا الى تحقيق الغاية المنشودة .

وينزل الأب على ارادة الطفل ، فيـــدفع به من جديد الى صديق له من كتاب الأقسام كان يقيم ـ كما يقول ـ بناحية « الأخيوه » فيراه « رجلا حسن الهيئة ، نظيف الثياب ، جميل الخط » ولكن ظاهره غير باطنه فسرعان ما يكتشف فقره واملاقه وقسوته وكسله ، فقليلا ما كان يخرج الى ... « السرحة » فاذا خرج اليها صحبه لخدمته . فلا يتعلم منه الا ما كان يعلمه اياه على قلته « أمام نسائه » وكثيرا ما قضى لياليه طاويا لقلة الزاد فى بيت معلمه ، على كفاية ما جعل له أبوه من مرتب ، وعلى قلة ما يناله من زاد وتعليم على كثرة ما كان يصيبه من أذى على يده حتى كانا يوما « فى قرية المناجاة فسألنى أمام الناظر وجماعة حضور عن الواحد فى الواحد فقلت له باثنين فضربنى بمقلاة بن فشجنى فى رأسى ، فلامه الحاضرون ، وذهبت الى والدى اشكو اليه فلم أنل منه الا الأذية » .

ولم يجد خلاصا غير الهرب ، فلعل فيه منجاته مما هو فيه ،

ألم تهرب أسرته وأبوه فرارا من العسف ، ألم يتفرقوا فى البلاد خوفا من بطش الحكومة ؟ فلما لا يهرب هو الآخر ما دام لا يريد أن يكون « فقيها بهذه المثابة » وما دام رواء الكاتب قد تكشف عن فقر واملاق وما دامت مقلاته تشج الرؤوس ؟

ترى أى حافز ألم خاطر الفتى ؟ أو لعله لم يفكر فى غير الهرب مما هو فيه ، ما دامت حياته لا تستوى على أمل .. لقد رضى بأن يكون فقيها الا انه أمل لا يساوى ما يلقاه فيه من عناء فان قبله فليس « بهذه المثابة » وهو أن يكون كاتبا ، وغره من الكاتب حسن بزته وجمال خطه فأخلفت الحقيقة ظنه ، ولعل ما رآه من هيبة الكتاب وقربهم من الحكام هو الآخر خدعة كهذه الخدعة التى رآها من كاتبه . فماذا بعد اذن ، والطريق خلو من الأمل ؟ أليس فى الهرب على الأقل منجاة من العصا وشج الرأس ؟ ولعله لن يخسر كثيرا .. ولعله يصادف فى بيت خالته بالمطرية أملا جديدا أو لعله يصادف هذا الأمل فى الطريق اليها ، ولعل هذا الأمل لا يجاوز فى مخيلته الفرار من العصا وشج الرأس ، وتستوى الحياة بعد ذلك ، فما ان مرض بالحمى « أو الريح الأصفر » كما يدعوها وهو فى طريق الهرب ، ولقى من يرعاه من أهالى صـــان الحجر حتى أنكر أن له أهلا ، وربما طاب له المقام ، لولا أنه راى أباه على بعد وكان قد استدل على مكانه فهرب الى « منية طريف » ولقى أعرابيا أقام عنده قليلا ، ثم هرب منه ولحق بأخ له فى برنبال ، وكان قد رجع اليها وأقام بها . وفى برنبال جاءه من أخوته من رجع به الى أبيه ، فيرضى بأن يعمل مع « صاحب له من كتبة المساحين » وتطيب له عشرته لما كان يناله من نقود تفيض عليه « مما يأخذه كاتبه من الأهالى » ولكن الكاتب يطرده بعد ثلاثة شهور لأنه لصغر سنه — كما يقول — « وعدم معرفتى بما ينفع وما يضر كنت أفشى سره وأخبر عن أخذه من الناس » ويقيم مع أبيه عاما أو بعض العام حتى

يلحق بعمل جديد « مساعداً عند كاتب فى مأمورية أبى كبير بماهية خمسين قرشا أبيض له الدفاتر » .

ولكنه لم ينل منه غير القوت مما يطعم فى بيته وبقى ثلاثة أشهر دون أن يقبض راتبه وخلقت ثيابه ، وساء حاله ، فما كان منه الا أن اقتص راتبه من أموال كلفه الكاتب بتحصيلها ، وكتب به « علما بالواصل » ووضعه فى « كيس النقدية » فغيظ الكاتب منه ووشى به لدى مأمور أبى كبير واغراه بتجنيـــده أو « بالحاقه بالجهادية » على حد قوله « فنادونى على حين غفلة وأمرنى المأمور بالذهاب الى السجن لمكتب المسجونين وأصحبنى رجلا من أغوات المأمورية ، فلما دخلت السجن أحضروا باشا من الحديد ووضعوه فى رقبتى ، وتركت مسجونا فداخلنى مالا مزيد عليه من الخوف ، فلبثت فى السجن بضعة وعشرين يوما فى أوساخ السجون وقاذوراتها وصرت أنتحب فرق لى السجان لصغر سنى فقربنى الى الباب ، وواسيته بشىء من النقود التى كانت سبب سجنى ، وكنت أرسلت الى والدى بخبرى ، فذهب الى العزيز وكان بناحية منية القمح ، وقدم له قصتى فى عرضحال ، فكتب باخلاء سبيلى ، وأخذ والدى الأمر بيـــده ، وقبل حضـــوره أتى الى السجان صاحب له من خدمة مأمور زراعة القطن بنواحى أبى كبير وأخبره أن المأمور محتاج الى كاتب يكون معه بماهية ، وكان السجان يميل الى فدله على ووصفنى له بالنجابة وحسن الخط وعرفه مسكنتى وما أنا فيه ، فمال الخادم الى وطلب منى أن أكتب خطى فى ورقة ليراها المأمور ، فكتبت عريضة واعتنيت بها وناولتها للخادم مع غازى ذهب إقيمته عشرون قرشا ليسلك لى الطريق عند مخدومه ووعدته بأكثر من ذلك أيضا ، فأخذهما ، وبعد قليل حضر بأمر الافراج عنى واخذنى معه حتى قربت من المأمور وكان يسمى « عنبر أفندى » فنظرت اليه فاذا هو أسود حبشى كأنه عبد مملوك لكنه سمح جليل مهيب ،

ورأيت مشايخ البلاد والحكام وقوفا بين يديه وهو يلقى عليهم التنبيهات » .

ويقص على مبارك ، بعد ذلك ، كيف قابله عنبر افندى واتفق معه على العمل والأجر وكان خمسة وسبعين قرشا فى الشهر عدا « جراية كل يوم » ثم يتساءل متعجبا كيف يكون ممن يعرفهم من المشايخ الذين يعرف انهم من مشاهير البلاد وأصحاب الثروة والخدم والحشم والعبيد من يقف بين يديه ممتثلا لأوامره ولم ير ذلك من قبل ولم يسمع به « اذ ان الحكام لا يكونون الا من الأتراك على حسب ما جرت به العادة فى تلك الأزمان » .

وتستبد به الحيرة ، فيلازمه ليقف على سره ، وينفرد بأبيه ، وكان قد جاء بأمر العزيز وعرف ما آل اليه أمر ابنه ، ويسأله عما يكون من امر هذا المأمور ، وهو عبد أسود وما هو من الترك ، فيقول له أبوه « قد يكون عبداً عتيقا » فيسأله « وهل يكون العبد حاكما مع ان أكابر البلاد لا يكونون حكاما فضلا عن العبيد ؟ » .

ويمضى الحوار بين رجل لا يرى فى الأمر خروجا على ارادة القدر وغلام يريد أن يعرف علة ذلك وأسبابه ، ولا يخرج الغلام من حديث أبيه بما يقنعه ، ويلح عليه الأمر ويلمح وراءه بصيصا من الأمل ، فاذا كان جد هذا العبد وذكاؤه قد وصلا به الى هـــذا المنصب المرموق وليس من الترك ، فما أحراه بمعرفته عساه يجد فيه أملا جديدا لعله راود خياله من قبل لولا يأسه من أن يكون من بين المصريين صاحب منصب أو جاه فى وقت يعرف أن المنصب والجاه فيه للترك أما وعنبر أفندى ليس تركيا بل أنه أسود حبشى ، فهناك فرجة من الأمل ، الا أن يكون عنبر أفندى عبدا عتيقا على ظن أبيه ولعتقاء محمد على بعض ما للأسرة من جاه ونفوذ حين سودهم على المصريين ، ولم يكن المصريون فى نظره غير حمالى أثقال وسواقى حمر ، فاذا كان للجد سبيل فالسبيل هين اليه .

ولعل الفتى حين طافت به هذه الخواطر قد أخـــذ يفكر فى مستقبله ، وفيما يؤول اليه أمره لو غدر به المأمور كما غدر به الكاتب ، فاذا كان المأمور قد أنقذه أول مرة فمن ينقذه هذه المرة . فيقول « كانت همتى فى التخلص من كل ذلك ومن أمثاله وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها » .

ولعله وهو يرى أبواب الطموح موصدة أمام المصريين ما كان يعنيه من المستقبل الا أن يؤمن حياته من الذل ومن غوائل الحاجة، فاذا استوت الحياة عند لقمة العيش فأمرها هين أما أن يكون الذل كفاء لقمة العيش ، فلا حاجة به اليها وأمرها يسير ، فقد خرج من داره وعاش بعيدا عن أهله فلم يفقد هذه اللقمة قط ، بل لقد وجد من يرعاه حين مرض وطال به المرض خلال هربه ، أما وهناك فرجة أمل تلوح له فى عنبر أفندى ، فما أحراه أن يسعى اليهـــا ويستوثق منها ، فاذا لم يجد عند أبيه ما يرضى فضـــولة الى الحقيقة ، فلعله يجدها عند من يعرف عنبر أفندى ويعرف سر نعمته ، ولعله فى سعيه وراء هذا السر كان يريد أن يستوثق من الطريق الذى سلكه فرفعه الى منصبه هذا . وقد بدا له حينذاك ضخما خطيرا ، وهل يتسنى له أن يسلكه أم كان أمـره استثناء فلا قدرة له عليه .

العناء والأمل :

ويسعى الفتى الصغير وراء الحقيقة فى تاريخ عنبر أفندى ، ويعرف عن طريق خادم له وثق صلته به « أن سيده مشترى ست من الستات الكبار مرعيات الخواطر أدخلته سيدته مدرسة القصر العينى لما فتح العزيز المدارس ، وأدخل فيها الولدان ، واخبرنى أنهم يتعلمون فيهـا الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك ، وان الحكام انما يؤخذون من المدارس فحينئذ جال فى صدرى أن

ادخل المدارس ، وسألته هل يدخلها أحد من الفلاحين ، فأفادنى أنه يدخلها صاحب الواسطة ، فشغل ذلك بالى زيادة ، ومع ذلك فلم تفتر همتى ، وسألته عن قصر العينى وعن طريقه ، وكيف الاقامة فيه ، فأخبرنى عن ذلك كله وأثنى على حسن اقامتهم بهـا ومأكولهم وملبوسهم واكرامهم ، فازددت شوقا ، وكنت أكتب عندى كل ما يخبرنى به من بيان الطريق وقدر المسافة وأسماء البلاد التى فى الطريق ، وقامت بنفسى فكرة التخلص والتوصل الى المدارس » .

اذن فقد استبان الفتى طريقه وعرف أن السبيل الى المدارس ومن ثم الى المناصب مفتوح أمام الفلاحين ، ولكن « بالواسطة » وان أهمته « الواسطة » الا أن الطريق ليس مقفلا تماما ثم طلب الاذن بزيارة أهله ، وبينما هو فى الطريق اليهم ، وعنـد قرية بنى عياض صادف أطفالا « تحت قيادة رجل خياط مع كل واحد دواة واقلام فجلست معهم تحت شجرة وتحادثنا ، فظهر لى أنهم تلامذة من مكتب منية العز » ويشهد له الأطفال حين يرون خطه أنه لو كان بينهم لأصبح « جاويشا » فيقول الخياط ذلك قليل عليه فان خط الباشجاويش الذى عندنا لا يساوى هذا الخط « ويعرف أن الجاويش والباشجاويش » هم « المقدمون فى المكتب » كما يعرف أن « نجباء المكتب ينتقلون الى المدارس بلا واسطة » ويقول على مبارك : « فرأيت ذلك غاية مرغوبى ، فلم أتأخر عن الذهاب معهم ودخلت المكتب فاذا ناظر من معـارف والدى فأراد أن يمنعنى من الانتظام فى عقد التلامذة واجتهد فى ذلك لمرضاة والدى » .

ويحتال الناظر مع أبيه على ابعاده عن المكتب ، ويحبسه أبوه فى البيت عشرة أيام « ووالدتى ـ كما يقول ـ تبـكى منى وعلى وتستعطفنى للرجوع عما يوجب فراقهم ، وتحلفنى أن أرجع عن تلك النية ، فوعدتها بالرجوع » حينذاك أطلق سراحه ليرعى غنيمات لهم ما دامت حرفة الكتابة تجذبه بعيدا عنهم .

اى حياة تلك التى كان يحياها المصريون حينذاك ، أهو الجهل الذى خيم حقبة على أفئدة الناس فقعد بهم عن الطموح ؟ أم عاطفة الأبوة واواصر الأسرة التى تقعد بهم عن تعليم ولدهم مخافة فراقه ، أم هو البعد عن السلطان مخافة أذى السلطان ؟

هذا ما سكت عنه المؤرخون فلم يشيروا اليه بتفسير أو ايضاح ، ولعلنا نجد فى نظام محمد على التعليمى ما يفسر لنا ذلك ، فما رأينا المصريين يصدون عن الأزهر أو يرهبون تعليمه ، وظل الأزهر أحقابا يزود البلاد بالعلماء والمتعلمين على قلتهم ، ولم يكن فى التعليم الأزهرى جاه أو سلطان الا للموهوبين ، وكثيرا ما كان يقصده من عجزت بهم سبل الحيـــاة عن فريق آخر من المكفوفين او العاجزين يحفظون القرآن ويشتغلون بالدين ، وكان الأزهر يقدم لهم جراية يومية تكفل لهم معيشة وان بلغت حد الشظف ، الا أنها تبقى عليهم حياتهم ، وهكذا كان نظام محمد على التعليمى يكفل للتلميذ حياته من المأكل والملبس والاقامة . وكان ما تجريه المدارس على تلاميذها أهنأ على جفافه مما يجريه الأزهر على طلابه ، ولكن المجاور الأزهرى كان لا ينقطع عن أهله ولا يقطع صلته ببلده فينزل اليها كل أجازة وخلال شهر رمضان ، يؤم الناس للصلاة ويقرأ دروس الدين فى المسجد ويتلو القرآن فى ليالى رمضان الساهرة . أما تلميذ المدارس فكان يقطع ما بينه وبين أهله ، وان كان لهم أن يزوروه فما كان لهم أن يصحبوه الى قريته وكثيرا ما أختير للتلاميذ أسماء غير أسمائهم لأولى يعرفون بها وتسرى عليهم فى سجلات الحكومة ، فتقطع صلتهم بأهليهم ولا يعرفون لهم غير الدولة أهلا .

وكان أن انقطعت صلة على مبارك بأهله بعد أن فر من جديد ليعود الى صفوف المكتب الذى اقتنصـــــه أبوه منه ، فما يراه الناظر « الا مع الأطفال فى داخل المكتب » ويقول : « والتزمت

أن لا أخرج منه ليلا ولا نهارا مخافة اختطافى .. وكان ذلك آخر عهدى بسكناى بين أبوى » .

وأختير على مبارك لمدرسة القصر العينى ، وجاء أبوه شاكيا يرجو أن يرده عن سعيه فأبى والتحق بها « فى سنة احدى وخمسين ومائتين وألف ، وأنا يومئذ — كما يقول — « فى سن المراهقة » وفى هـــذه المدرسة كان درس حياته الثانى ، وكان درس حياته الأول حين عرف أن التعليم هو طريق التقدم والطموح عرفه حين أسر اليه خادم عنبر أفندى أن سيده من تلامذة مدرسة القصر العينى وأن الحكام انما يؤخذون من المدارس ، فكانت غاية حياته أن يعلم المصريين ويحملهم على التعليم ويفتح لهم السبل اليه ، وفى مدرسة القصر العينى يرى « أن المدارس على خلاف ما كنت أظن » كانت واجبات الوظائف مجهولة فيها ، والتربية والتعليمات غير معتنى بها ، بل كان جل اعتنائهم بتعليم المشى العسكرى فكان ذلك فى وقت الصبح والظهر وبعد الأكل وفى أماكن النوم ، وكان جميع المتكلمين على التلامذة يؤذونهم بالضرب وأنواع السب والاهانة من غير حساب ولا حرج مع كثرة الأغراض والأعراض عن الاعتناء بشئونهم من مأكولات وخلافها ، وكانت مفروشاتهم حصر الحلفاء وأحرمة الصوف الغليظ من شغل بولاق ، ومن كراهيتى للطبيخ المرتب لنا جعلت ادامى الجبن والزيتون » ويقول « فلما رأيت هذه الحالة ضقت ذرعا وظننت أنى جنيت على نفسى فى دخولى المدارس التى بهذه المثابة » حتى مرض وأصابه الجرب ونقل الى « الاسبتالية » وعانى فيها أشد مما عاناه فى المدرسة حتى كان لجوعه يمص « العظم الذى يلقيه الآكلون » وكادت نفسه تساوره بالهرب مع أبيه حين جاء ليزوره ويحتال على رؤيتـــه ويمهد له سبيل « الهروب » ولكنه يفضل البقاء وامتنع عن الخروج مع أبيه معللا النفس بأنهم « يطلبون من يهرب من التلامذة ويقبضون على أهله

ويقيدونهم ويهينونهم » ، وان كنا نظن أن طموحه الكامن وحوافزه اللاشعورية وان وارتها تلك العوارض السيئة بقيت تشده اليها أكثر مما شده العذاب والمرض ، وخرج من تلك المحنة بأن التربية وطرق التعليم الصحيحة هى التى تجذب التلميذ الى المدرسة وتحببه فى التعليم ، وكان هذا درس حياته الثانى ، وحمله فيما بعد على انشاء « دار العلوم » لتمد المدارس بالمعلم الصالح . وكان من اهتمامه بالتعليم ، وهو المهندس الذى تخصص فى الهندسة العسكرية أن أصبح يدعى « أبو التعليم » .

واجتاز على مبارك المحنة ، وأقبل على دروسه ، ولم يمرض بعد ذلك كما يقول ، وفى العام التالى نقلت مدرسة القصر العينى الى أبى زعبل ، بعد أن تحول القصر العينى الى مدرسة للطب ، وسار فى دروسه بعد أن وفق الى فهم ما عجم عليه من طلاسم « فن الهندسة والحساب والنحو » وكان ناظر المدرسة الجديد « ابراهيم بك رأفت » قد جمع « متأخرى التلامذة » وكان منهم وأخذ يعلمهم بنفسه« ففى أول درس ألقاه علينا ــ كما يقول ــ أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة وبين أهمية الحدود والتعريفات .. الموضوعة فى أوائل الفنون وان هذه الحروف التى اصطلحوا عليها انما تستعمل فى أسماء الأشكال وأجزائها كاستعمال الأسماء للأشخاص .. فانفتح من حسن بيانه قفل قلبى ووعيت ما يقوله وكانت طريقته هى باب الفتوح على ، ولم أقم من أول درس الا على فائدة ، وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين ، فلم تكن لهم هذه الطريقة ، وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع لى من الفهم ، فختمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتى ، وبقيت فى النحو على الحالة الأولى لعدم تغير المعلم ولا طريقة التعليم السيئة وكان رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجابتى على يديه برهانا

على سوء تعليم المعلمين وان سوء التعليم هو السبب فى تأخر التلامذة » وتأكد لديه ضرورة اعداد المعلم الصالح ، فكان حين قام على ديوان المدارس فى عهد اسماعيل ، لا تشغله كثرة أعماله « عن الالتفات الى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين ، فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشيا عند غدوى من البيت ورواحى وأعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية » .

وبعد أربع سنوات أختير فيمن اختيروا « لمدرسة المهندسخانة » فأتم دروسها بعد خمس سنوات كان فيها دائما أول فرقته « وقلفتها » ، ثم أوفد ضمن بعثة الأنجال الى « مملكة فرنسا ليتعلموا بها » وألح عليه « لآمبير بك » ناظر المهندسخانة أن يبقى ليكون « معلما بها » ويسوق اليه من يغريه بالبقاء من « الخوجات » ولكنه يرى السفر مع الأنجال مما يزيده « شرفا ورفعة واكتسابا للمعارف » ولعله كان يرى الأخيرة ولا يرى الأولى الا أن يرى فى صحبة الأنجال ما يساعده على التقدم ويحقق له بعض طموحه ، فما كان يرى أو لعله أدرك ذلك فيما بعد أمانا « لمن يلوذ بالعائلة الخديوية » وما كان اصراره على السفر اذن الا « لاكتساب المعرفة » .

ولا ينسى على مبارك أهله فيجعل لهم نصف راتبه فى البعثة وكان مائتين وخمسين قرشا « يصرف لهم من مصر كل شهر » ويجد عناء فى متابعة الدراسة باللغة الفرنسية فيقبل على تعلمها مبتدئا بكتاب للأطفال ، ويداوم على السهر « مطالعة وحفظا » حتى أصبح السهر عادة لازمته ـ كما يقول ـ بقية حياته ويغدو فى المقدمة يتبادل أولوية « الرسالة كلها مع حماد بك ، وعلى باشا ابراهيم » ويظفر بالجائزة الثانية للتقدم وهى « كتاب جغرافية مالطبرون الفرنساوى وأطلسها » وبعد دراسة سنتين « تعين الثلاثة الأول من فرقتنا وهم أنا وحماد بك ، وعلى باشا ابراهيم الى مدرسة

الطوبجية والهندسة الحربية بناحية ميتس من مملكة فرنسا أيضا ، وأعطينا رتبة الملازم الثانى ، فأقمنا بها سنتين أيضا ، وتعلمنا فيها فن الاستحكامات الخفيفة والاستحكامات الثقيلة والعمارات المائية والهوائية عسكرية ومدنيــة والألغــام وفن الحرب » فلما اجتاز الامتحان ، بعد سنتين وكان ترتيبــه الخامس عشر بين خمسة وسبعين تلميذا ، عين « بالآلاى الثالث من المهندسين الحربيين » وبقى به عاما آخر قبل عودته الى مصر .

بداية الطريق :

عاد على مبارك وصحبه من المبعوثين الى مصر ، بعد أن رأى عباس الأول أن لا حاجة بهم الى البقاء بعد ذلك ، وان كان ابراهيم ـ كما يذكر على مبــارك ـ قد أراد « اقامتنــا فى العسكرية حتى نستوفى فوائدها ثم نسيح فى الديار الأورباوية لنشاهدالأعمال ونطبق العلم على العمل مع كشف حقائق أحــوال تلك البلاد وأوضــاعها وعاداتها ، وكان ذلك نعم المقصد ، ولكن أراد الله غير ما أراد هو ، وتوفى الى رحمة الله تعالى ، وفى سنة ست وستين من الهجرة تولى حكومة مصر المرحوم عباس باشا فطلبنا للحضور الى مصر نحن الثــلاثة » .

ويرى بعض المؤرخين ان عودة المبعوثين كانت جزءا من سياسة عباس التعليمية التى تقوم فى الظــاهر على الاقتصاد الشــديد فى الانفاق على المدارس ، والتى تقوم فى الحقيقة على كراهية التعليم ، وتعليم المصريين بوجه خاص ، مستشهدين على ذلك بالتضييق على التعليم بأنه جعل « مدرسته الحبيبة اليه ـ مدرسة المفروزة ـ لصفوة أبناء الترك » . وحين رأى فيهم من « لا يرتاح الى خلقه ، فحكم بأنه من أبناء الفلاحين وأمر باخراجه من صفوف الطلبة » فاذا بعث يؤنب أفراد البعثة المصرية فى ميونخ يصفهم بأنهم ما زالوا

متخلقين بطباع الخونة التي هي طباعكم الأصيلة ــ ويتهددهم باعادتهم الى القرية وتلبيسهم ملابس الفلاحين وسلكهم في فلاحة الأرض » وانه كان في هذا على خلاف ما كان محمد علي « الذى كان يرى في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ــ وعز عليه أن يرى ــ كما يقول شفيق غربال ــ العقول المصرية تضيع هباء ، فعول على أن ينقذ لمصر تلك الثروة العقلية التي لا تعدلها ثروة ، واستطاع أن ينقذ قدرا ليس بالقليل من هذه العقلية » .

ولقد حمل عباس في الواقع أوزار جده محمد علي ، فما كان محمد علي شديد الحفاوة بالمصريين وما كان يرى فيهم « نجابة وقابلية للمعارف » وهي عبارة جاءت على لسان الجبرتي وصفا لاعجاب محمد علي بآلة ابتكرها مصري لضرب الأرز « فان الباشا لما رأى هذه النكتة من حسين شلبي هذا قال ، ان في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف » ولا نعرف أن الباشا كان يتكلم العربية حتى تعد هذه العبارة نصا نستشهد به ، وما نظن الجبرتي قد حمل هــذه العبارة ما حملها المؤرخــون من اعجاب بالعقلية المصرية ، ولا تعدو الاعجاب بشيء جديد فما كانت فكرة محمد علي عن المصريين بأفضــل من فــكرة عباس عنهم ، وما كان يراهم يصلحون كما يقول دودول « الا لحمل الأثقال وسوق الحمر » .

ولا يذهب عمر طوسون في الحملة على عباس مذهب المؤرخين الذين أرادوا أن يحملوا عباس وحــده فشل نظام محمــد علي التعليمي ، فقد كان هذا النظام ، باعتراف المدافعين عنه يحمل جرثومة فنائه اذ « عاشَ ــ كما يقول عزت عبــد الكريم ــ قلقــا معلقا في الهواء ، لم تمتد جذوره الى باطن التربة المصرية فكان ما نعرفه عما أصابه من الاستقرار حينا ، والترنح حينا آخــر ، ومن التوسع حينا والانكماش حينا آخر » وان اعتذر عنه بأن الزمن كان يتعجله وكان محمد علي يخشى أن تنتهي حياته قبل

أن يتم رسالته « ولم يكن عباس – كما يقول – بالحاكم الذى يتابع سياسة جـده ويحنو على مؤسساته ويؤيد نظمه » فحمل عباس وحـده وزر النهـاية الأليمة الذى سـار اليها نظام محمد على التعليمى فى أواخر أيامه ، حين أصبحت حاجتـه عليها على يد عباس ، ولا يريد عمر طوسون أن يحمل « عباس » هذا الوزر ، ويرده الى تحامل مؤرخى فرنسـا عليـه « اذ شعرت بانصراف هذا العاهل عن الاتجـاه اليها بعد ما نحى عن الحكم فى بلاده أكثر الأجانب وبخاصة الفرنسيين » ثم يقول : « على أننا لسنا بصدد الدفاع عن حكم عباس الأول رحمه الله من جميع نواحيه ، وانما غرضنا أن نجلى هذه الناحية فقط ، وقد رأيت أنها نقية بيضاء » ويستشهد على ذلك ببعوثه التى أوفدها الى النمسا وانجلترا وايطاليا وفرنسا وان « ما ذكر عنه من أنه على أثر توليته الحكم أمر بارجاع البعثة العسكرية التى أنشأ لها جده المدرسة الحربية المصرية بباريس ثم أغلق هذه المدرسة ، فالصحيح الثابت من دفاتر دار المحفوظات وغيرها انه أرجع بعضهم وأبقى البعض الآخر ، وظل ينفق على هؤلاء الباقين الذين أتموا تعلمهم فى غير هـذه المدرسة حتى آخر أيام حكمه ، كما أن بعثـة الخمسة والعشرين تلميذا الذين ارسلوا لتعلم الميكانيكا بانجلترا فى عهد محمـد على قد بقى افرادها جميعـا حتى أتموا تعلمهم فى عهده ، ويظهر انه رأى أن مصر قد اكتفت من التعليم العسكرى فأمر بالغاء هذه المدرسة التى أسست له فى باريس ، ولذلك لما أرسل بعوثه لم يكن فيها من أرسله لتعلم الفنون العسكرية بل كان أغلب هذه البعوث بعوثا طبيـة أرسلها الى النمسا وايطاليا وانجلترا » .

اذن فلم يكن عصر عباس الا استمرارا للنكسة التى بدأت فى أواخر عصر محمد على ، ولم يصنع أكثر مما كان مقدرا لغيره

أن يصنع ، ولم يكن خلقه اكثر سوءا مما كان خلق غيره من أفراد الأسرة الخديوية ، ولكن ما ناله من القدح والتحامل كان اكثر مما نالهم جميعا ، لأن أسرته كانت أول المتحاملين عليه فأفسحت للمؤرخين مجال الحقيقة ، ولم يكن عباس على صلة طيبة بالأجانب تحملهم نحوه بدلا من أن تحملهم عليه ، ولعله لقى من تقدير المؤرخين الانجليز لحسن صلاته بانجلترا ما لم يلق من تقدير المؤرخين الفرنسيين ممن كانت تعنيهم أمور مصر والكتابة عنها ، فنرى المؤرخ الانجليزى « دن — Dunne » يدفع عنه ولا يحب له أن يتحمل الوزر وحده .

وقد ولى عباس حكم مصر فى ظروف عصيبة من ناحية أسرته ومن ناحية الفشل الذى انتهت اليه أعمال جده ، حتى كره أسرته ، وكره سياسة جده فسار على نقيضها فى التمكين لعرشه والتمكين لسلطته ، وهما ما عناه محمد على ومن جاء بعده من أبنائه دون اى حساب لصالح البلاد ، فاذا كان الصالح متفقا مع هذه الرغبة فهو الاصلاح ، وان شذ عنها فلا حاجة لهم به . اذ أراد ابراهيم أن ينزع عنه ولاية العهد الى أكبر أبنائه « أحمد » فلما توفى ابراهيم فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ ، خشى قناصل الدول ، وخشيت الطبقة التركية الحاكمة — وهى طبقة مخدثة تدين بوجودها لمحمد على — أن ينشب نزاع بين افراد الأسرة الحاكمة ، فأرسلوا يستدعون عباسا من الحجاز ، وكان قد ذهب اليها خشية مكر ابراهيم ، وعاد عباس على ظهر باخرة انجليزية وضعها تحت امرته — تشارلس مورى — قنصل انجلترا العام فى مصر ، فكانت بداية الود بينه وبين الانجليز والاحن بينه وبين أفراد أسرته من أبناء ابراهيم ، وتولى العرش بمساعدة القناصل ورضاء الطبقة التركية وفرحة المصريين ، فبدلا من سكون الحزن فى مثل تلك المناسبات القليلة ، كما يقول مورى — كانت الجماهير تند بالفرحة

منادية : « عباس باشا الى الأبد » وأراد عباس أن ينال عطف السلطان ورضائه فحمل فى الزيارة التقليدية بمناسبة توليه العرش من الهدايا لرجال البلاط ما قيمته مائة ألف جنيه ، ونزل على كل مطالب السلطان فى خفض قوات مصر العسكرية البرية والبحرية وألا يتجاوز عدد الجيش ١٥ ألف جندى وزيادة الجزية السنوية وتقديم سفينة الى البحرية العثمانية كل عام ، وفصل المهندس الفرنسى المسئول عن تحصينات الاسكندرية ، ولم يكتف بذلك بل لج فى اعلان ولائه فبعث أمه لزيارة أم السلطان تحمل عديدا من الهدايا ، وأمد تركيا بثلاثة آلاف جندى وألف وخمسمائة بحار وبارجتين وعدد من السفن الصغيرة لمساعدتها فى الحرب ضد روسيا ، وتوسط لدى باى تونس ليرضى بالسيادة العثمانية وعادت مصر الى الوصاية العثمانية على طول العناء الذى بذله محمد على لاستقلالها كما يرى مورى .

ويفسر هذا الموقف من عباس فى رأى « هيلين آن رفلن » ما خرج به عباس من درس النكسة عام ١٨٤١ فلم يظفر محمد على على طول العناء الا بولاية مصر له ولأبنائه من بعده ، ولم ترض تركيا حتى بذلك ، فتلكأت أكثر من ستة شهور فى اقرار ولاية ابراهيم ولم تسلم الا حين لمست أنه سيلجأ الى القوة للدفاع عن حقه ، ولكن عباس يعرف أن القوة لم تثمر أمام تألب الدول على جده كما يعرف أن فرنسا تخلت عنه بعد أن شجعته على الوقوف أمام الباب العالى ففقد ثقته بها وبالقوى الأوربية الأخرى ولم يعد أمامه ما يحميه من أطماع أوربا غير تركيا التى ما زالت تتمتع بنوع من الهيبة فى المجتمع الدولى وغير التعلل بارادة الباب العالى أمام الحاح الدول ومؤامراتها لكسب امتيازات لها فى مصر ، وهو ما أدركه محمد على نفسه فى أخريات أيامه حين عرف أن لا وقاء لمصر الا بالارتباط بتركيا .

فلما دب النزاع بين عباس وأفراد أسرته بعد وفاة محمد على نزح كثير منهم الى الآستانة وبدلا من أن تقف تركيا الى جانب عباس شجعت هؤلاء على الالتجاء اليها ، وفى الآستانة أخذوا يكيدون لعباس ويلعنون حكمه مما حمله على البحث عن حليف جديد فى شخص بريطانيا . وكان ثمن الصداقة الجديدة قبول المشروع البريطانى لمد خط حديدى يربط السويس بالاسكندرية ، ولم ينس عباس لبريطانيا تأييدها لولايته بعد وفاة ابراهيم .

هذه الظروف العصيبة التى واجهها عباس ، ولم يكن له يد فيها قد شابت حكمه بالقلق ، وعاد على مبارك ليواجه هذا القلق ، وهذا الركود الذى ألم بالحياة فى مصر بعد نصف قرن من الحركة السريعة والنشاط الفائر ، ينتظر ما تصنع به ارادة ولى الأمر « ومكثنا جملة أيام ــ كما يقول ــ لاندرى ما يفعل بنا » ثم طلبهم حسن باشا المناسترلى « وهو الكتخدا يومئذ وأحسن الينا نحن الثلاثة دون غيرنا برتبة يوزباشى أول ، وتعينت خوجة بمدرسة طره وتعين على باشا ابراهيم وحماد بك فى آلاى الطوبجية بطره أيضا ، وتعين الذين كانوا بمدرسة أركان حرب الفرنساوية فى معية رئيس أركان حرب سليمان باشا الفرنساوى برتبتهم الأولى وهى رتبة الملازم ورفت الباقون » .

وتمضى به الحياة هينة رضية فى مدرسة طره الحربية ، ولعله لم يقلق كثيرا لانكماش المدرسة وقلة عدد طلابها بعد انشاء « المدرسة المفروزة » على خلاف ما يصوره المؤرخون قلقا غير راض اذ لم يبق فى فرقته غير طالب واحد فأصبح اذن « بلا عمل ــ كما يقول الرافعى ــ وليس هذا مما تميل اليه نفسه لأنه اعتاد الجد والدأب على العمل » أو « ضيق النفس مبلبل الفكر والخاطر » فى رأى آخر فاذا كان قد أصابه شىء من الضجر ، كما نرى من حديثه مع « برنستو بك » ناظر المدرسة ، فلعله حديث الرئيس

الذى يخشى على مرءوسيه الضجر الذى يحملهم على الكسل والتهاون فيجمعهم اليه ليقول لهم : « ان التلامذة الباقين صاروا الى ما ترون من قلة العدد وكبر السن وطول المدة وأخاف أن ذلك يدعوكم الى التكاسل ، لكنى أرجوكم كما هو الواجب عليكم أن تبذلوا الجهد معهم زيادة حتى تستميلوهم الى الاستفادة على قدر الامكان ، وأملى أن هذه الحالة لا تدوم وعما قليل تستقيم الأحوال وعلى وعليكم أن نقوم بواجب الامتثـــال وأداء ما علينـــا » وأراد أن يطامن من نفس على مبـــارك فيقول له : « وخصوصا انك قد اشتغلت بفن الهندســـة الحربية وقد بلغنى أن جاليس بك — وكان قائما على استحكامات الاسكندرية — يرغب فى أن تكون معه وألح كثيرا فى طلبك ولم يجب الى مرغوبه ، وأظن أن الأمر يؤول الى الحاقك به فلا تضجر واصبر فعاقبة الصبر خيرا » ولعل قلق على مبارك كان من الفصل أكثر مما كان من قلة العمل ، فما كان عباس جريا على سياسته فى الاقتصاد وشدته مع الموظفين يتوانى عن فصل من لا حاجة للعمل اليه أو من يرى منه تقصيرا أو اهمالا ، لذلك يطامن « برلستو بك » من نفسه ويخبره بحاجة جاليس بك اليه .

ولعله لم يكن يخشى شيئا من هـــذا فنراه على غير ما نعهد من رجل قلق حذر يتأهل .. « بكريمة معلمه فى الرسم بمدرسة أبى زعبل ، وكان أبوها قد مات وصـــارت الى حالة من الفقر فتزوجت بها لما كان لوالدها على من حق التربية والمعروف » فلو كان قلقا لما أقدم على الزواج .

وكان على مبارك لين العريكة كيسا — كما نعتقد — وتلك صفة لازمته طوال حياته ويسرت له أن يكسب المسئولين والرؤساء الى صـــفه ، مرنا يستطيع ان يتكيف مع الموقف ويواجهه ليحقق ما ينشده ، ويسرت له تلك الخلة أيضا أن يمضى فى أعماله كما يحب

دون عنت أو حذر من غضب ولى الأمر فأحبه « برنستو بك » أول من عمل معه ، حتى أنه لما رغب فى زيارة أهله بعد غيبة طالت واستأذنه فى ذلك ، لا يأذن له برنستو بك بالزيارة فحسب ، بل يعينه عليها ويقول له « ان من يسافر يقطع نصف ماهيته وأنت الآن محتاج اليها فالأحسن أن تصبر حتى أكلم سليمان باشا الفرنساوى ليأخذك معه فى مأمورية استكشاف البحيرة والسواحل ، فاذا حصل ذلك يتم مرغوبك بسهولة » .

ويتم الأمر على ما رسم برنستو بك ، فلما كان فى دمياط بصحبة سليمان باشا الفرنساوى « انفصلت عنه فى جهة من المأمورية وبعد أن رسمت البحيرة وحررت جرنالها ورسمها ذهبت الى بلدتنا برنبال وكان أهلى قد رجعوا اليها قبل ذلك بمدة » .

أى مشاعر تلم بالنازح الذى طالت غربته أربعة عشر عاما فى مثل هذا الموقف ، هذا ما سكت عنه على مبارك وان وصف الموقف كما جرى فى بساطة تترك من الأثر مالا يتركه حديث المشاعر والأحاسيس فهى فى صدقها وبساطتها أبلغ من كل بيان ، ففى ليل الزيارة يطرق الباب ، وقد وقف وراءه مرتديا بزته العسكرية « بقيافة العسكرية الفرنساوية لابسا سيفا وكسوة تشريف » ولعله أراد أن يرى أهله ما ناله من سؤدد بعد اصرار وكفاح امتد سنين عددا لم يرهم ولم يروه فيها ، وكأنه يقول ما عذرى فى الخروج على طاعتكم وقد نلت ما نلت ، ولعل الأم التى أذهلتها المفاجأة لم تلق بالا الى الرجل الذى يرتدى زى الحكام ماثلا أمامها فى « كسوة التشريفة » وسيفه يتدلى الى جانبه ، ولم تذكر غير الصبى الصغير الذى فارقها أربعة عشر عاما ، وتأخذها المفاجأة فتقع مغشيا عليها لتفيق فتغرق فى الضحك والبكاء و « تزغرت » فتعلن للأهل والأقارب عودة الغائب ويمتلىء البيت بالوافدين

« الى الصباح » وكان الأب « قد سافر الى مصر لزيارتى » وتنتابه أمه الحيرة فيعرف أنهـا « تريد عمل وليمة وهى فارغة اليد » وتبكى ، فيفرغ فى يدها ما يجيبـه « عشرة بنتو ففرحت وأولمت فأقمت عنـدهم يومين ثم استأذنتهم ووعـدتهم بالعود ورجعت الى دمياط » وفى دمياط عرف أن سـليمان باشا قد استصدر أمرا من عباس باشـا « بالحاقى بمعيـة جاليس بك فقبلت يده وشكرت له » .

واعد نفسه للعمل الجديد ، وسـافر الى الاسـكندرية « بعيالى وأخ وأخت لى صغيرين كنت أربيهما » ويقابل جاليس بك، فاذا بأمر من الخـديو يطلبه حالا « فى الوابور المتهيىء للقيام » فينتابه الخوف من مقابلته لما يعرف عما « يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الايذاء» ويهون عليه سليمان الأمر وكان مع جاليس بك حين لقيه ، قائلا « لعله يريد أن يجعلك معلما لأبنـه لأنه تكلم فى ذلك مرارا ، فلا تخف » ويكفل له سليمان باشا أمر أهله الذين خلفهم بالمركب ويرتحل لمقابلة عباس دون أن يراهم وهو « بين راغب وراهب » .

ويقابل عباس مع « حماد بك وعلى باشا ابراهيم » ليعرف أنه ألحقهم بمعيته ، ويأمرهم « بامتحان مهنـدسى الأرياف ومعلمى المدارس لأن الكثير منهم ليسـوا على شىء » وأنعم عليهم برتبة الصاغقول أغاس « وأعطانا نيشانات المرتبة وهى عبارة عن نصف هلال من الفضة ونجمة من الذهب فيها ثلاثة أحجار من الماس ، وخرجنا فرحين بما نيط بنا على الوجه الأتم » .

ويبدو ان «عباس» لم يكن راضيا عن عمل المهندسين ، فنراه يكتب الى ديوان المدارس فى ٢٣ محرم سنة ١٢٦٦ (١٨٥٠) يقـول : « عند وصولى هـذه المرة الى مديرية المنيا امتحنت المهندسين المتخرجين والمتربين فى ديوان المدارس الذى أسس لنفع الوطن ، ولتربيـة أولاد الأمة المصرية ، فظهر أنهم محرومون من العلم

والعمل اللازم لهم ولخدمتهم ، وبمطالعة الجرنال المرسل طرفكم ستعلمون أنهم صفر اليدين من كل علم وعمل وفضلا عن ذلك رأيتهم غير واقفين حتى على عملية ضرب الحساب فتعجبت جدا وسألتهم كيف لا يقومون بهذه العملية التى هى قوام مهنتهم ، وهم مهندسون فأجابوا بأنهم يجرون هذه العمليـة بواسطة المعلمين الأقباط الموجودين معهم ، فبينما نحن منتظرون منهم الفائدة اذا هم يتسببون فى خراب الأقاليم ... » ويمضى عباس فى رسالته آمرا بطرد « الأساتذة والمهندسين المومى اليهم والبـالغ عددهم خمسة عشر شخصا » مهددا بالغاء ديوان المدارس اذا تبين عجز المهندسين الجدد عن العمل .

ويقول عزت عبد الكريم أن المهندسين الجدد قد أنقذوا الموقف وديوان المدارس ولهذا أمر عباس أن يقوم على مبارك وزميليه حماد عبد العاطى ، وعلى ابراهيم باختبار المهندسين وقام « الأفندية الامتحانجية » بعملهم « وصار امتحان المهندسين وتعويض كثير بآخرين من أرباب المعارف الذين تربوا فى المهندسخانة » ـ كما يقول على مبارك ـ ويبدو أن الامتحان قد أثبت رأى عباس فراح يتهكم على ديوان المدارس ويتهدد رجاله بالعقاب .

وتحال عليه أعمال أخرى لتيسير الملاحة خلال شلال أسوان ، وتحويل مياه البحر عن منفلوط فيقوم بها على خير وجه مما حمل « عباس » على تكليفه بالعمل مع « موچيل بك » لبحث مرورالمراكب خلال القناطر الخيرية وكانت قد قاربت التمام ، فوضع مشروعا بسحب المراكب أقل تكلفة مما تقـدم به موچيل بك فحاز رضاء عباس وبقى يقوم مع زميليـه بما يكلفون به من أعمال الهندسة حتى أحيل عليهم مشروع « لامبير بك » .. لتنظيم المـدارس ، وقد بلغت نفقـاته ـ كما يقول ـ عشرين الف كيس (مائة ألف جنيه) فاستكثرها وطلب منهم أن يضعوا مشروعا أقل نفقة منه .

وتتجلى مرونة على مبارك ولباقته ، فيدرك مرمى عباس ، وينفرد بوضع مشروع يكلف ألف كيس بعد أن رأى الوقت يمضى ولا يتفق ثلاثتهم على رأى . ويقدمه الى زميليه فلا يوافقان عليه ، ولكنه يطلب منهما أن يبقياه « فان لم نعمل غيره نقدمه ليمتنع عنا اللوم » فلما لم ينجزوا غيره تقدموا به « فاستغربه المرحوم عباس باشا وعجب مما فيه من الأصول المخترعة مع قلة مصروفاته ، وقال من عمل هذا ، فقلت أنا عملته ، ووجد آراء صاحبى مختلفة ومخالفة لذلك فأحال النظر فيه على مجلس ينعقد من جميع رؤساء الدواوين مع حضورى وحضور لامير بك ، فانعقد المجلس ثمانية أيام وبعد المناقشة الطويلة ، استقر رأى الجميع على هذا وصدرت خلاصة باستحسانه واستحقاقى رتبة أميرالاى ، فطلبنى المرحوم عباس باشا وسألنى عما أراه من نجاح هذا الترتيب وعدمه لدى العمل به ، فقلت هذا رأيى فان أحسن مديره ادارته وأجراه على فهم منه وبصيرة نجح ، والا فان الساعة المضبوطة الدقيقة الصنعة يفسدها من لا يحسن ادارتها من جاهل أو مفرط ، وتدوم على حالها اذا كانت بيد من يحسن ادارتها ، فعجب من جراتى واستحسن جوابى وقال : فهل تضمن ذلك ، فقلت : كيف وقد ضمنه الجميع بالقرار الذى عملوه ، فأحال على نظارتها وأعطانى الرتبة والنيشان ، وجعل على باشا ابراهيم معلم نجله الهامى باشا وحماد بك ناظر قلم هندسة برتبة بكباشى » .

وسار الرفاق الثلاثة كل فى طريقه يفترقون ويتلاقون فى خدمة الدولة وخدمة مصر . وكان المشروع الذى تقدم به على مبارك هينا وبسيطا يقوم على تجميع المدارس فى مكان واحد وتحت نظارة واحدة ، أما الرصدخانة فقد أسقطها حتى يعد لها من يقوم بأمرها وأشار بايفاد محمود الفلكى وكان اذ ذاك برتبة صاغقول أغاسى ، واسماعيل الفلكى ، وحسين ابراهيم ليتعلموا

فنونها فى الخارج ، وبعد عودتهم « يصير فتحها وادارتها » . وكانت بداية الطريق لأبى التعليم .

العمل والجزاء :

اضطلع على مبارك بالتنظيم الجديد للمدارس ، وأصبح ناظرا لمدرسة المهندسخانة ، وقد غدت محور النظام التعليمى الجديد . وضمت مدرستا المبتديان والتجهيزية اليها ، والغيت الرصدخانة ريثما يعود المبعوثون الذين رشحهم على مبارك لدراسة الفلك فى فرنسا ، وبدأت المهندسخانة ، كما يقول عزت عبد الكريم « عهدا جديدا فى تاريخها لم يطل أكثر من أربع سنوات (١٨٥٠-١٨٥٤)» .

ولا نستطيع أن ندعى لعلى مبارك فضلا فى هذا ، فقد أراد الوالى أن يقتصد فاقتصد ونال رضاء عباس ، ورضى بسياسة الانكماش التى أرادها عباس وسار فيها ، وان كنا نعتقد أن على مبارك قد أنقذ المهندسخانة من مصير مثيلاتها ، وحفظ عليها مستواها ، فبقيت بميزانيتها الضئيلة مركز الحركة تعليمية وعمرانية قوية وأدت خدمات جليلة للبلاد فى تلك الفترة القصيرة من تاريخها كما يقول مؤرخ التعليم فى مصر .

وقد نعجب مما يقول على مبارك عن تقدمها ، مع ما كان عليه حال المعلمين بها من ضيق واملاق فرضه على مبارك ، اقتصادا فى النفقة ، فلا نعلم أن معلما يمكن أن يثمر عمله ما لم يطمئن الى حياته ومعيشته الا أن يكون قد غرس فيهم روحا جديدا حملهم على المثابرة والعمل المثمر فقد بقى لهم قبل الحكومة من أجورهم فى أخريات عباس ثلاثة وثلاثون ألف قرش بح صوتهم الحاحا فى طلبها . ثم كان أكثرهم يعمل بالساعة يتقاضون عنها من خمسة الى ثمانية قروش ، وقيل فى تبرير ذلك أنه « مما يقوى اجتهاد المعلمين فى تعليمات التلامذة وحثهم على التعليمات فى الأوقات

المعينة »ويعنى هذا حرص المعلم على ساعات التدريس حتى ينال أجره عنها ، ومن المعلمين من كان يعمل « بالمقاولة » فيؤجر عن كل تلميذ يقوم بتعليمه .

ولكن على مبارك يقول : « كان أمر المدارس كل حين لا يزداد الا صلاحا ، ولا التلامذة الا نجاحا ، ولا المعلمون الا اجتهادا ، وكانت الامتحانات السنوية تشهد بمزيد من الاعتناء وحسن الأسلوب ونجاح الطريقة المتبعة ، وكان ما يحصل للتلامذة ومعلميهم من المكافآت والثناء والتشويق والترغيب داعيا حثيثا لهم لزيادة الجد والاجتهاد ، وجرت بين المعلمين مواد المودة والألفة وتربت الأطفال على الأخوة وغرس فيهم حب التقدم وشرف النفس والعفة ، حتى وصلت النظارة للاكتفاء فى تأديب من فرط منه أمر بالنصيحة واللوم وانقطع الشتم والسفه ، وكاد يمتنع الضرب والسجن وبالجملة فكانت أغراضى فيهم أبويه ، انظر للجميع من معلم ومتعلم نظرة الأب لأولاده ، والى الآن اعتقد ان ذلك واجب على كل راع فى رعيته حتى يحصل الغرض من التربية ، وقد تحقق لى نتيجة ما صرفته من المهمة فى تربيتهم والشفقة عليهم » ونراه يصف هذا الأسلوب الذى اتبعه فيقول : ان كثرة أعماله من تعيين معلمى المفروزة « وترتيب دروسها واختيار ما يلزم لها من الكتب » فضلا عن نظارته للمهندسخانة وقيامه على تأليف كتب المدارس والاشراف على طبعها « لم يشغلنى عن التفاتى للتلامذة فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم غير ذلك ، وكنت أباشر ذلك بنفسى حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب ، وألاحظ المعلم كيف يلقى الدرس وكيف يؤدب التلامذة ولا يمضى يوم الا وأدخل عند كل فرقة وأتفقد أحوالها مع التشديد على الضباط والخدمة حتى الفراشين بالقيام بما عليهم كما ينبغى فامتنع بذلك عن التلامذة مضار عمومية ،

ومفاسيد كثيرة ولم أكتف بذلك بل رتبت على نفسي دروسا كنت القيها على التلامذة كالطبيعة والعمارة ، وألفت فى العمارة كتابا بقى متبعا فى التعليم بالمدارس وان لم يطبع ، وبحمد الله نجح مسعانا ونجب كثير من التلامذة وقاموا بمصالح كثيرة ، وحصل بهم النفع العظيم وترقى جمع منهم الى الرتب العالية . وشاع الثناء عليهم فى المعارف والآداب ، وشهدت لهم بالفضل أعمالهم المهمة التى أجروها . ولكثير منهم معرفة باللغة الفرنساوية بحيث يجيد التكلم بها كمن تعلموا فى أوربا ، وخرج منهم معلمون متفننون فيها وفى غيرها » .

اذن فقد كانت روح المعلم هى التى تسدد خطاه وهى التى هونت كل عسير وقضت على كل صعب فتقدمت المدارس المدنية وأثمرت فى الوقت الذى عصفت فيه الأهواء بمدرسة الطب ومدرسة الولادة فساء أمرهما وانتهى بمدرسة الطب البيطرى الى الالغاء والزوال ، ولولا رعاية عباس للمدرسة المفروزة لكان مصيرها مصير غيرها .

وكانت روح المعلم فى على مبارك وليدة التجربة والاستقراء والذكاء المبدع الخلاق ومواجهة الواقع فى مرونة تقضى على كل عقبة . فلقد عرف فى مدرسة القصر العينى كيف يساس التلاميذ . وأدرك ما يثمره المعلم الناجح فى تلاميذه غداة التحاقه بالمهندسخانة وتعلم كيف يثمر الجد والاجتهاد عند التلميذ حين تغلب على جهله باللغة الفرنسية فى فرنسا ، فاكتسب الى صفاء الفطرة وعى التجربة فكان له فى تنشئة المعلم واعداده ما له من فضل على التعليم وتطويره وتقدمه .

وظل على مبارك قائما على التعليم المدنى حتى تولى سعيد ، فنزعه عنه والحقه بالقوات المصرية المحاربة فى القرم عام ١٨٥٤ والتى كان يقودها أحمد باشا المنكلى . وما لبث أن أمر بالغاء

مدرسة المهندسخانة ، بعد أن رماها عنده « بعض المفسدين بلسان الحسد والفتنة ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة واختلقوا لها معايب لم تكن فيها » .

(كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغضا انه لذميم)

هذا ما ظنه على مبارك وذكره سببا لالغاء المهندسخانة وسلم به مؤرخو مصر الحديثة .. وان كنا نرى أن الغاء المهندسخانة كالغاء غيرها خضع لنزوات سعيد المتقلبة أكثر مما خضع لحسد الواشين فقد عرف عن سعيد قابليته للاستهواء وتأثره بالقيل والقال ، ولا نظنه حفل كثيرا أو قليلا بمكانة على مبارك لدى عباس ، فما كان لأبناء الفلاحين مكانة لدى الخديوى ولو عرف له هذه المكانة أو الايثار لدى عباس لفصله من الخدمة ، لما كان فى نفسه على عباس من موجدة وكره ، بل أن على مبارك ليحمد هذا الرحيل « فان رفقتى الذين نشأت معهم كحماد بك وعلى باشا ابراهيم كانوا قد رفتوا من الخدمة فى مدة سفرى ، فلو بقيت للحقت بهم » .

ولا ينسى على مبارك وداع التلاميذ لمعلمهم الأكبر ، فقد خرجوا كبيرا وصغيرا « قهرا عن ضباطهم » ووقفوا تجاه المركب التى تقله الى الاسكندرية وهم ينشجون بالبكاء « وينتحبون انتحاب الولد على والده حتى بكت عينى لبكائهم » ولكنه يقر عينا لما رأى من ثمار غرسه وآثار تربيته ويمضى بمعية « أحمد باشا المنكلى » حيث يقضى ما بين القرم والأناضول قرابة عامين ونصف العام . هون من مشاق السفر « وما يلحق المجاهدين من الأرجاف والاضطرابات والحرمان من المألوفات » ما رآه من بلاد جديدة وما عرفه من عادات يجهلها ، وأناس لم تك له بهم صلة فضلا عن تعلم اللغة التركية .

وكانت الحرب قد نشبت بين تركيا وروسيا عام ١٨٥٣ ، فطلب السلطان عبد المجيد الى عباس أن يمده بحملة من الجيش والأسطول تحارب بجانب تركيا ، فأعد لها عشرين ألف مقاتل بقيادة « سليم باشا فتحي . وعقد لواء الأسطول لأمير البحر حسن باشا الاسكندراني من كبار رجال البحرية فى عهد محمد على . وامتدت الحرب الى عهد سعيد واستشهد القائدان فيها .. استشهد سليم باشا فتحي فى حصار ايباتوريا برصاصة في جبهته ، وغرق حسن باشا الاسكندراني مع ضباطه وبحارته على ظهر سفينته مفتاح جهاد بعد اصطدامها فى عاصفة مع السفينة « البحيرة » أمام البسفور .

وانتهت حرب القرم بانتصار تركيا وحلفائها ، ونزلت روسيا على مطالب الحلفاء فى صلح باريس عام ١٨٥٦ .

ويذكر على مبارك انه أقام « بالقسطنطينية » أربعة شهور هى التى تعلم خلالها اللغة التركية وعشرة شهور فى القرم قام فيها على المراسلات بين تركيا وروسيا ، أو على حد قوله « أمر المحاورة بين المسكوف والدولة العثمانية بأمر مجلس العسكرية » وثمانية شهور فى الأناضول قضى « أغلبها في مدينة كموشخانة » يشرف على الشئون الادارية للقوات المحاربة فيقوم بترحيل « العساكر من مدينة طرابزون الواقعة على البحر الأسود الى مدينة أرضروم » وكان يباشر كل فرقة بنفسه لا يصحبه ـ كما يقول ـ غير خادم واحد ، وانشأ للمصابين بالبرد ، وكان الوقت شتاء والبرد شديدا والثلوج كثيرة « اسبتالية بمدينة كموشخانة وهيأت مفروشاتها ولوازمها بعضها بالشراء والبعض من طرف أهالى المدينة ولاشتغال الحكماء بالآلايات استعملت فى مباشرة المرضى رجلا مكيا له المام بالحكمة وسلكنا فى المعالجة عادات أهل تلك الجهة فأثمر ذلك ثمرة عظيمة » وحمد له هذا العمل « أعيان المدينة وأكابرها من القاضى

والعلماء والأمراء وكتبوا بذلك مضبطة وضعوا فيها شهادتهم ، وهى عندى الى الآن وعليها أيضا ختم خالد باشا مأمور سوق العساكر العثمانية » .

وكان قد ركبه الدين قبل سفره بسبب ما أنفقه على تأثيث بيته ، وعلى اصلاح ثلاثمائة فدان « أبعادية أحسن الى بها المرحوم عباس باشا بلا واسطة » — والأبعاديات هى الأراضى المستبعدة من قانون فك الزمام لعام ١٨١٣ ، كان محمد علي يقطعها رجال الجهادية وكبار الموظفين ، وفى عام ١٨٣٨ أمر بألا يؤجروها وان يقوموا على استصلاحها بأنفسهم ، ويبدو أنه كان يرمى الى خلق طبقة موالية له تقيم فى الريف وتسود القرى توطيدا لسلطانه — فوفى مرتبه بدينه اذ « اقتصرت على ما كان يصرف لى من التعيين وزاد منه ثلاثمائة جنيه حضرت بها الى مصر » .

وما ان يعود حتى يواجه بأمر سعيد بتسريح جنود الحملة ، وفصل عدد من الضباط كان منهم .

« من دروس الحياة »

ولم تكن له — كما يبدو — قـــدرة على الصراع أو الكفاح الايجابى — وأن تميز بقدرة على الجلد والمثابرة ، والطموح الذى يتكيف مع الواقع ويواجهه فى مرونة تحوله الى الغاية التى ينشدها ، فقد شق طريقه الى التعليم بالجلد والمثابرة ، وحاز رضاء عباس بذكائه ومرونته ، وعجز رغم هذا الذكاء أن يظفر بتقدير سعيد ،وحالت جفوته للصراع دون موقف التحدى حتى الدفاع عن حقه ، وحين تتكاتف عليه الخطوب ، يغض الطرف « عن التطلع للوظائف والمناصب ، وعزمت على الرجوع الى بلدى والاقامة بالريف والاشتغال بالزرع ، والتعيش من جبايته ، وترك الاشتغال بالقيل والقال عوضنا الله خيرا فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ، ولنفرض أننا ما فارقنا البلد ولا خرجنا منها » .

كانت تلك أيام محنته ، محنة امتدت الى حياته العامة حين فصل من وظيفته والى حياته الخاصة حين فشل فى زواجه الثانى ، وكان قد تزوج بعد وفاة زوجه الأولى من « قريبة أحمد باشا طوب صقال » وهى على ما يبدو من بنات الطبقة المتميزة الأثيرة فى دولة محمد على ، وكان من عادة المصريين اذا ما برزوا أو علا قدرهم حينذاك ، أن يصاهروا الأسر التركية ، ويربطوا ما بينهم وبين تلك الطبقة المتميزة ، وكانت يتيمة ذات « مال وعقار غرة بمنزلة الطفل الصغير لا تحسن التصرف ولا تميز الدرهم من الدينار مع كثر ايرادها وتعدد أملاكها وكان جميع أمرها بيد غيرها ، والسبب فى ذلك أن أمها كانت تزوجت برجل يعرف براغب أفندى فماتت عنده الأم وبقيت البنت عنده يتيمة صغيرة فتزوج بامرأة أخرى فكانت زوجته الجديدة قيمة هذه اليتيمة والقائمة بأمرها والكافلة لها مع راغب افندى » ويمضى على مبارك فى قصة زواجه هذا ما خلاصته أن طمع المرأة فى أموال ربيبتها حملها على الكيد له خوفا من إن يطالب لها بحقوقها ، فأخذت توقع ما بينها وبينه ، وتستعين عليه بأصحاب الجاه والنفوذ حتى اذا استخلص لها حقها وأثبت حقه لديها فى نصيبه من بيت لها بناه بماله « وصرفت عليه نحو ستمائة كيس ، وكان موقوفا عليها ، فأرادت اشتراكى فيه معها فى نظير ما صرفته ، — وكان ذلك بمقتضى شرط الوقف — فقبلت ودخلت معها فى الوقفية ، وكتبت الوثيقة بمحضر من العلماء والأمراء والأعيان » ويقول : « فثبت لى عليها مائة وخمسة وعشرون ألف قرش عملة ديوانية غير ستمائة كيس التى صرفتها فى عمارة البيت » ولكنه يتنازل « فى المجلس عن جميع ذلك ، ولم آخذ الا وثيقة من أهل هذا المجلس بجميع ما حصل وباثبات تنازلى بعد الثبوت » فلما تم له ذلك تركها بعد أيام قلائل « وخرجت من البيت ولم آخذ منه شيئا حتى تركت جوارى اللائى كن فى ملكى ، وطهرت نفسى

مما نسبه الى أهل البهتان وأرحت نفسى من تلك الدسائس والهواجس » وأقام فى بيت صغير « بالأجرة » مع أخ كان يقوم بتربيته مع ابن أخ آخر ، وطردا من المدرسة بعد سفره الى بلاد القرم « لم يعطف عليهما أحد ممن كنت أساعدهم فى مدة نظارتى » الا سليمان باشا الفرنساوى « فانه أدخلهما فى مكتب كان أنشأه بمصر العتيقة على نفقته » ومات ابن أخيه غرقا وبقى أخوه حتى عودته ليقيم معه فى هذا البيت الصغير الذى اكتراه .

ولم يغير الأسى من نفس على مبارك ولم يحمله يوما على الحقد والضغينة ، والأثرة من قلة الوفاء وجذب النفوس من المروءة ، وان بقيت صور ما لقى منها لا تفارقه فيذكرها فى خططه حين يروى قصة حياته ، ولا ينسى قصة دين عليه « لبعض الأفرنج ستمائة فرنك » حين صدر الأمر بعودة المبعوثين من فرنسا ، محذرا من العودة قبل أن يفى الواحد منهم بدينه والا وضع « فى الليمان فوقعت فى أمر خطير وبقيت متحيرا ، وطلبت من رفقتى أن يسلفونى ، فقالوا ما عندنا ما نسلفك اياه ، وأنا أعلم تيسر بعضهم واقتدارهم فقعدت فى محل اقامتى أفكر فيما أصنع ، واذا بصاحب لى من الافرنج دخل على ليدعونى للأكل عنده حيث انى مسافر ، فوجد حالى غير ما يعهد فسألنى : فأخبرته ، فقال : لا تحزن ، قل يا سيد يا بدوى يا من تجيب الأسير خلصنى مما أنا فيه ، فقلت له ، ليس الوقت وقت هزل ، فقال : هذا أمر هين ، لا يهمك ، ثم ذهب وغاب قليلا ورجع الى بكيس رماه أمامى ، فاذا به قدر الدين مرتين وقال لى : بعد استقرارك بمصر وتيسر أمرك ترسل لى وفاءه . ولم يأخذ منى سندا بوصول المبلغ وقال : أنا أكتفى بالقول منك . وقد كان . وحضرنا الى مصر فى تلك السنة وأرسلت اليه المال على يد قنصل فرنسا بعد مدة » .

وبقى على رحابته يعمل لخير الجماعة أكثر مما يعمل لنفسه ، لا يؤوده غير أن يصنع لمصر جيلا من المثقفين النابهين ، فنراه بعد ذلك بأربعين عاما وقد أصبح وزيرا للمعارف يفسح من صدره ومكانه للكبير والصغير « وكان بيتـه بالحلمية ـ كما يقول أحمد أمين ـ ناديا عجيب الشـأن يجتمع فيه كل ليلة طلبة المدارس وأساتذتها من كل نوع حتى تمتلىء بهم الدار ، وينشغل هو بينهم يخاطب كل جماعة منهم فى شأن من شئون العلم يتناسب معهم ، فيخاطب الطلبـة فى حالة مدارسهم ومقـدار تحصيلهم للدرس وما يشكون منـه من نظم التدريس وما يقترحون لاصلاحها ، ويخاطب المدرسين فى تدريسهم وانتقاداته عليهم ، ويستحثهم على التأليف فى الموضوعات التى يقترحها وما ينبغى أن تكون عليه الكتب فى أيدى الطلبة ، ويلتمس الفرص ليشرح لهم الأخطـاء التى يقع فيهـا الطلبة ، ويقع فيهـا الأساتذة ، وتأخر الشرق وأسباب تأخره . وتقدم الغرب وأسباب تقدمه الى غير ذلك . حدثنى عبد العزيز باشا فهمى فقال » :

« كنت يوما فى بيت على باشا مبارك ، والناس تموج فى بيته ، والحجر مزدحمـة بالزوار ، وعلى باشا يتصـدر حجرة منها ، فحضر مصطفى باشا رياض ، وكان ناظر النظار اذ ذاك ، فأخذ يخوض فى النـاس حتى وصل الى على باشـا مبارك فقال له : ما هذا يا باشا ؟ فقال له : يا دولة الرئيس أنا فى بلد يهاب الناس فيه أن يخاطبوا معـاون ادارة ، او مأمور مركز أو أى موظف حكومى ، فاذا نحن جرأناهم علينا وخاطبناهم وخاطبونا ، أمكنهم أن يخاطبوا الموظفين فى غير هيبة وتعودوا أن يطالبوا بحقوقهم وقالوا : انا نجالس الناظر (الوزير) ونخاطبه ، فلم لا نخاطب من هو أقل منه منزلة ؟ » .

ويقص الرافعى نقلا عن الشيخ على يوسف صاحب المؤيد

« انه دخل ذات ليلة على على باشا مبارك فى منزله أوائل سنة ١٨٩٠ ، وهو يومئذ وزير المعارف ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء واذا بمصطفى كامل ، وكان وقتئذ تلميذا بالمدرسة الثانوية يجادل الباشا فى أمره ، ويقول اننى لا أطلب منك الا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذا مثلى ، وما يدريك أن لا أكون عظيما أخدم وطنى غدا بأكثر ما تخدمه أنت اليوم ... وبعد ما خرج ابتسم الباشا وقال : اننى أعجب كثيرا بشجاعة هذا التلميذ ، ويلذ لى أن يتكلم أمامى كثيرا بمثل هذه الشجاعة النفسية ولذلك لم أخبره بما أمرت اليوم لأجله « وكان مصطفى كامل قد ذهب اليه فى سراى الوزارة وشكى اليه حيف نظام الامتحان الذى أدى الى رسوبه ورسوب زملائه .

هذه النفس الكبيرة لم يصبها الأسى بالتعقيد أو التكبر وظلت على بساطتها من روح المعلم الذى ينشد الصلاح ويرجو الخير .

كان يرى أن يأخذ من الحاكم ، وهو حاكم مطلق الارادة « لخير بلده بقدر ما يستطيع » فيستنقذ من عباس ما يستطيع انقاذه للابقاء على التعليم ، ولا يملك فى ظل الاحتلال الا أن يقوم بأمر التعليم فى تلك الحدود الضيقة التى فرضها الاحتلال ضمانا لبقاء النزر اليسير من الاصلاح ويقول : « وأنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح ، بقدر الامكان ، والله المستعان » .

أيام قلقة :

وكانت مرونته ورحابة أفقه وتكيفه مع الواقع معوانا له على الاصلاح ، فيقوم بالعمل الذى يكلف به على خير وجه ، ويخلق منه على ضآلته شيئا نافعا ، وهو يرى الاصلاح مرتبطا بارادة الحاكم فاذا أبعده الحاكم يثوى الى السعى وراء رزقه ، فيعتزم الاقامة بالريف والعمل بالزراعة حين (رفت) من الخدمة ،

« وبينما أتجهز للسفر الى البلد على هـــذه النية صدر أمر بأن جميع الضباط المرفوتين يحضرون بالقلعــة للفرز » لاختيــار القادرين على الخــدمة من غيرهم بتحديد أعمارهم ، « وكانوا يعرفون السن بالنظر الى السن » مما هال على مبارك ــ كما يقول ــ وود لو لم يلب الطلب ، ولكن أدهم باشا ــ أحد القائمين بالفرز كان يعرفه ، فأعفاه من هذا الضير « وتعينت معاونا بديوان الجهادية ، وأحيل على النظر فى القضايا المتأخرة المتعلقة بالورش والجبخانات وغيرها من ملحقات الجهادية » وبقى بها وقتا حتى كلفه « اسماعيل باشا الفريق ناظر الديوان برسم بعض المناورات العسكرية » وكان قد عجز عن القيام بها « فرسمتها فى عدة أفرخ من الورق على الوجه اللائق » فأثنى على ووعدنى بذكرى بخير عند المرحوم سعيد باشا وطلب منى وضع اسمى على الرسم ، فقلت عافنى من ذلك ولا تذكرنى عنده » .

ولكن اسماعيل باشا الفريق يبين له الخير منه ، فلما ذكره لديه ، أمر بنقله الى مستودعى الداخلية بعد أن « أمر بابطال التحقيق وحفظ القضايا بالدفترخانة » وبقى « زمنا قليلا » كان يحال عليه خـــلاله النظر فى بعض القضـــايا حتى عين وكيلا لمجلس التجار ، ولم يبق فيه غير شهرين اذ وشى به سلفه وكان رجلا من الأرمن ــ لدى سعيد ، ففصل عنه وعاد كما بدأ عاطلا ، ويقول ان التجار من أبناء البلد ، أو التجار البلديون ــ على حد تعبيره ــ قد أسفوا لفصله « لما رأوه من البت فى القضايا على وجه الحق » .

وبقى عاطلا ثلاثة أشهر حتى عين مفتشا لهندسة « نصف الوجه القبلى » ولم يبق غير شهرين اذ استدعاه سعيد وكلفه بوضع مشروع استحكامات الحماد ، وهو مشروع يرى الرافعى أنه « جليل الشأن ، كان الغرض منه تحقيق موقع الحماد (جنوبى رشـــيد) بين فرع رشـــيد وبحيرة ادكو لمنع العدو من مهاجمة

القطر المصرى من هـذه الناحية » كما كلف على باشا ابراهيم بالكشف على الجانب الغربى من النيـل ، ويقول على مبارك : « فاشتغلنا بذلك مـدة بلا ماهية » ولما فرغ من اعداد مشروع استحكامات الحماد ، سعى به الى سعيد فى طره ، وعبثا حاول أن يلقاه بعد أن تردد عليها أياما ، فلما انتقل سعيد الى قصر النيل ، أطال عليـه التردد دون جـدوى ، « ثم قام الى الاسـكندرية فتحيرت فى أمرى ، اذ كان لا يثبت فى مكان ، ولم يتيسر لى عرض نتيجة المأمورية عليه فالتزمت الاقامة بمصر حتى أتمكن من لقائه ، وطالت المدة وفرغ المصروف ، ثم قدم الى مصر ، فذهبت اليه فلم اتمكن من الدخول اليه ، فقال لى مأمور التشريفات : كن معنا على الدوام لعلك تجد فرصة فى وقت من الأوقات تتمكن منه ، وحضر على باشا ابراهيم أيضا فاصطحبنا ولازمنا معيته فى السفر ثلاثة أشهر بلا ماهية ، ولا شغل مع كثرة التنقلات من بلد الى بلد ومن موضع الى آخر ثم لما كان ذات يوم فى الجيزة ، وقع نظره على فنادانى ، وكلمنى ، وسألنى عما صنعت فى الرسم فقدمته له ، فنظر فيه قليلا ، ثم قال ابقه حتى نجد وقتا لامعان النظر فيه ، ثم لم يلتفت اليه بعد ذلك ، ولكن ربطت لى ماهية وبقيت فى معيته زمنا بلا شغل » .

وتلك هى محنة مصر فى تاريخها الحديث ، لم يكن هناك قانون يحكم المجتمع غير نزوة الحاكم الفرد وأهوائه ، وكان الحكام طرازا عجيبـا من الرجال يسوقهم الهوى والغباء والأثرة وقصر النظر يضيع معهم الجهـد ، وتقف عجلة التقدم ، ويتضاءل الابداع والخلق ، ويبقى العاملون بلا عمـل ويغيض كل حافز طيب أمام الانطواء الاجتماعى ، الذى يقعد بالأفراد عند طلب المعيشة ، فينزوى كل الى حاله ، وتبدو الذاتية أكثر أمانا من الغيرية ، فتكون اللامبالاة التى تحطم الرباط الاجتماعى للأمة .

ويضيق على مبارك بهذا الفراغ فى معية الحاكم ، وان طاب

للآخرين مثل هذا الفراغ وتلك الصحبة ، ولكنه لا يأمن الصحبة التى تحكمها النزوة ، ولأنه يعرف منذ زمن ما يقع من الايذاء لمن « يلوذ بالعائلة الخديوية » . فلما عرف من أدهم باشا « أنه صدر له الأمر بترتيب معلمين لتعليم الضباط وصف الضباط القراءة والكتابة والحساب » وسأله « عمن يليق » لهذا العمل ، فقدم نفسه وظنه أدهم باشا « يهزل » وقال : « أترضى أن تكون معلما لهؤلاء ، فقلت : كيف لا أرغب انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم ، فقد كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا الى ما وصلنا اليه » . ويضطلع بهذا العمل مع اثنين آخرين من « الأفندية » . وتعاوده طبيعة المعلم فلا يرى عائقا عن تعليمهم مع نقص فى المعدات والأدوات فكان أحيانا يكتب لهم حروف الهجاء « بالفحم على بلاط المحلات » أو يخطها لهم على الأرض ويذهب اليهم فى خيامهم ، لعدم استقرارهم فى مكان واحد ، حتى ألم بعضهم بالقراءة والكتابة وقواعد الحساب الأساسية فجعل منهم « عرفاء » لتعليم الآخرين ، وكان يلجأ الى أبسط الوسائل التعليمية فيلجأ الى « العصا والحبل » فى تعليم قواعد الهندسة « كتقدير الأبعاد وتعيين النقط واستقامة الحذاء » يجرى ذلك على الأرض فيثبت فى أذهانهم ، ووضع فى ذلك كتابا أسماه « تقريب الهندسة » طبع على مطبعة الحجر . وتكرر طبعه لتعليم الجنود ، وفى أوقات الفراغ أخذ يشغل نفسه بالقراءة والكتابة فيما يفيد المهندسين ، وجمع ما كتبه وطبع بعد ذلك أيام نظارته على المدارس فى عهد اسماعيل باسم « تذكرة المهندسين » .

ويفصل مرة أخرى من الخدمة حين اعتزم سعيد السفر الى أوربا « وأمر برفت غالب من كان بمعيته » وكان « فى جملة المرفوتين » ويضيق ذرعه « ويتشوش طبعه » — كما يقول — اذ كثرت نفقاته بعد أن تزوج واشترى « بيتا بدرب الجماميز »

ولحقه الدين ، الا أنه يجد فرصة في التجارة اذ عرضت الحكومة بعض مهماتها التى اعتبرتها « زائدة عن الحاجــة » للبيع « فلما حضرت المزادات ـ كما يقول ـ رأيت الأشـــياء تباع بأبخس الأثمان ، ورأيت ما كان لمدرسة المهندسخانة من اللوازم والأشياء الثمينة العظيمة ، وفى جملتها الكتب التى كنت طبعتها وغيرها تباع بتراب الفلوس ، وكذا أشـــياء كثيرة من نحو آلات الحديد والنحاس والرصاص والعقارات والفضيات والمرايات والساعات والمفروشات ، وغير ذلك وليتها كانت تباع بالنقد الحال ، بل كانت الأثمان تؤجل بالآجال البعيدة وبعضها بأوراق الماهيات ونحو ذلك من أنواع التسهيل على المشترى ، فكان التجــار يربحون فيها أرباحا جمة ، فلبطالتى واستدانتى وكثرة مصرفى مالت نفسى للشراء من هذه الأشياء ، والدخول فى التجارة ، ففعلت وعاملت التجار وعرفتهم وعرفونى ، وكثر منى الشراء والبيع فربحت واستعنت بذلك على المصروف وأداء بعض الحقوق ، واستمر منى ذلك نحو الشهرين فازدادت عندى دواعى التجارة وصارت هى مطمع نظرى وقصرت عليها فكرتى ، خصوصا لما تقرر عندى من اضطراب وتقليات الأمور التى كادت أن تذهب منى ثمرات المعارف والأسفار ، بحيث كلما تقدمت فى العمر ، وكثرت العيال ، كنت أرى التقهقر ونفاد ما استحوذت عليه ، فآثرت حرفة التجارة على حرفتى الأصلية وصرفت النظر عن الخدمة الأميرية » حتى جال فى خاطره أن يكون شركة من المهندسين المتقاعدين ، ولكن فكرته لا تحوز القبول والرضا لديهم فاعتزم القيام بها بنفسه « وشرعت فى العمل وبينما أنا فى حوالك هذه الأحوال أروم التخلص من تلك الأوحال » اذ جاء النبأ بوفاة سعيد .

وكان من اليسير على على مبارك أن يصبح تاجرا عظيما بما أوتى من ذكاء وقدرة على الابتكار والتكيف وأن يجمع ثروة طائلة ، ويمضى به التاريخ عابرا ، اذ لا يأبه التاريخ الا بمن يغير

من صفحة الحياة ويملى عليها ارادته ، ولكن القدر كان يعد له الدور الذى يلج به محراب التاريخ ولم يكن له يد فى تهيئة هذا الدور ، فما كان له أن يختار لنفسه ما يشاء ، ما دام الحاكم هو الذى يرى ما يشاء ، ولو لم يشأ ، الحاكم لعبر به التاريخ غير آبه ، ولكنه حين أراد له الحاكم ما أراد استطاع أن يصنع مما أراد ، بذكائه وقدرته على الابتكار والتكيف شيئا يستحق التخليد فجذب اليه التاريخ ليقف عنده مدونا فضل أبى التعليم .

الوسيلة والغاية

ومهما يكن من أمر الرجل العظيم ، فانه حين تواتيه الفرصة يكون له من ذكائه وقدرته هاديا الى التميز والبروز ، فيستهوى الأنظار وينال التقدير الذى يحمل صاحب الارادة على الوثوق به . وقد واتت على مبارك الفرصة حين الحقه اسماعيل بمعيته واستشاره فى أمر القناطر الخيرية ، ولم تكن عيونها تقفل خوفا من ضغط المياه على جدرانها ، كما قرر المهندسون ، وكانت مياه النيل تتجه الى بحر الغرب (فرع رشيد) وأخذت تتحول اليه عن بحر الشرق (فرع دمياط) مما أدى الى قلة مياه الرى فى الجانب الشرقى من الدلتا ، مع حاجة الزراعة الصيفية اليها ، ورأى على مبارك أن تقفل العيون التى تمد فرع رشيد بمياه النيل فتتحول الى فرع دمياط ، وليس من خوف على بناء القناطر ، اذ أن ضغط المياه لا يكون من القوة التى تهدد البناء بالخطر لانسيابها الى فرع دمياط ، هذا فضلا عن أن المهندسين الذين قرروا فتحها لم يجزموا بوجود خطر من اغلاقها ، وانما بنوا رأيهم على الشك والامعان فى الحذر ، فاذا أغلقت ظهرت الحقيقة ، فاما خلل يتدارك فى أوانه ، واما صح رأيه فينال فرع دمياط حاجته من المياه وتنال الأراضى حاجتها من الرى .

واستصوب اسماعيل الرأى ، فأمر باغلاق العيون ، ولم ينجم عن ذلك خطر الا ما ظهر من خلل فى بعض العيون القريبة من « البر الغربى » فأقام حولها سياجا من الخشب ترسب حوله

الطمى فنشأت جزيرة رملية كانت وقاء للبنـاء من ضغط المياه « فلم يكن خللها مانعا من اقفالها كل سنة » .

ولعل صواب هذا الرأى هو الذى لفت أنظار اسماعيل الى على مبارك فوثق به فيما يعهد به اليه من جلائل الأعمال ، فاذا كان اسماعيل قد الحقه بمعيته « لأنه فكر ـ كما يقول الرافعى ـ فى استخدام مواهب زميله القديم فى البعثة » فما نظن ذلك مما جال بخاطر اسماعيل ، ولانرى على مبارك يشير الى شىء من هذا القبيل . ولا نرى ذكرا لصحبة قامت بينه وبين اسماعيل أو أحد من الأمراء أيام البعثة ، ولا يذكر الا « ما يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الايذاء» ولم يكن قد تمرس من قبل بعمل يلفت اليه انتباه اسماعيل وقضى اسماعيل أيامه بالآستانة فى حكم عباس ، فلما رجع الى مصر فى حكم سعيد ، كان على مبارك بالقرم ، ولما عاد من القرم ، لم يكل اليه سعيد عملا ذا شأن ، وظل بعيدا عن محك القدرة والنباهة فى عمل جليل فاذا كان اسماعيل قد الحقه بمعيته ، فلأنه كان يرى حاجته فى سياسته الجديدة الى كل رجل نال قسطا من التعليم وما كان له أن يسقط من حسابه هؤلاء المبعوثين ممن نالوا تعليما عاليا فى الغرب . فلما أبرزت التجربة مواهبه ، كان له فى دولة اسماعيل ما كان من نباهـة وسـداد رأى وقـدرة على العمل جـذبت اليه انتبـاه اسماعيل .

وكان اسماعيل على خلاف عباس بانطوائه وساديته وخموله ، وسعيد بغبـائه وبساطته ونواياه الطيبة ذكيا طمـوحا نشيطا بهرته مظاهر الحضارة الغربية دون جوهرها ، فبقى حياته أسير هذه المظاهر يريد « أن يجعل لعرش مصر ـ كما يقول هيكل ـ مظاهر العروش الأوربية » وأن يكون « قصره كقصر لويس الرابع

عشر ان لم يكن أبهى منه وأزهر وليقول عن مصر انها أصبحت قطعة من أوربا » وكان الى ذكائه قصــير النظر « شرها فى كل مطامعه وشهواته مغامرا فى سبيلها مجازفا مجازفة لا يهون منها أى حذر ، وكان فيه من دم محمد على اقدام لا يعرف التردد وبطش لا هوادة فيه ، وقسوة لا يتسرب اليها أمل فى رحمة » وأن أعوزه حذره ومكره فكانت نهايته الأليمة حصاد المغامرة والطموح والنزق ، كما كادت تكون نهاية محمد على لولا حذره ، عندما قادته المغامرة الى معاناة أزمة سنة ١٨٤٠ ولولا استجابته لحرم عرشه هو الآخر ، ولذهب عناء السنين هباء .

وكما كان عهد محمد على عهد نشاط وحركة لم تهدأ طوال سنوات حكمه ، أعقبها خمود جابه الفقر الذى أورثه البلاد وأدارة قلقة اتسمت بالغباء على يد خليفتيه عباس وسعيد ، كان عهد اسماعيل هو الآخر عهد نشاط وحركة لم تهدأ طوال حكمه هو الآخر ، الا أن الزمن كان غــير الزمن ، وكان مسرح الأحــداث بلاعبيه مختلفا أشد الاختلاف ، فحين استطاع محمد على أن يقضى على كل نزعة قومية ، وأن يخرج الشعب تماما من حسابه فلا يكون له دور فيما يعمل . لم يستطع اسماعيل وان أسقط الشعب من حسابه أن يقضى على النزعة القومية الوليدة التى انفجرت بكامل قوتها أوائل حكم توفيق ، ولا أن يتوقع ما للحركة الفكرية الناشئة من أثر على أسرته لو سارت الأمور على غير ما ســـارت عليه من احتلال بريطانيا لمصر ، ولعله لم يعن خطر تلك الحركة الفكرية على حاكم مستبد ، ولعله ـ دون أن يدرى ـ قد أمدها بالقدرة على التفتح والانطلاق ، وكان الزمن فى صفها أكثر مما قدره فكر الحاكم المســتبد ونوايا العاهل الطموح ، فمـــا كان اسماعيل أقل من جـــده حفـــاوة بالعناصر التركيـــة أو ازدراء

للمصريين ، وما كان يحفل بالتقدم الاجتماعى ، قدر ما كان يحفل بتقدم الدولة فى شخصه وأبهته ورواء عرشه وبلاطه ، واستقلاله عن الدولة العثمانية ، فنراه وان لم يجد بدا من الاستعانة بالمصريين فى المناصب الادارية ، يحول دون ترقيهم فى السلك العسكرى الى الحد الذى يؤثر فى كيان الجيش ، على غير ما ذهب اليه سعيد من افساح مجال الترقى أمام المصريين لمناصب القيادات العسكرية ولا يشجع المصريين كثيرا على ملكية الأرض ، وكانت أكثر (انعاميات) الأراضى للعناصر التركية فى الحاشية الخديوية ، وفى صفوف الجيش ، وحال بين الفلاحين وشراء الأرض حين لجأ نفسه الى حيازة الأرض وقفزت مساحة أراضيه خلال سبعة عشر عاما من ١٥ ألف فدان فى بداية حكمه الى ٩٥٠ ألف فدان مقسمة الى احدى وخمسين دائرة فى نهاية حكمه ، فكأنه ألغى « اللائحة السعيدية » بملكية الفلاحين للأراضى بطريق غير مباشر ، وحين هالته كثرة (الوجوه السمراء) أو المصريين فى مناصب مديرى المديريات فى « تشريفة عيد من الأعياد » (عام ١٨٧٠) نراها تختفى بعد ذلك ، وبعد أن كادوا يحتلونها عام ١٨٦٩ . ولم تكن تلك الظاهرة ، ظاهرة كثرة مديرى المديريات من المصريين فى تلك الفترة من وحى اسماعيل أو ارادته ، فمما ينسب الى اسماعيل صديق « المفتش » وهو ناظر للمالية ومفتش عموم الأقاليم ابان حظوته عند اسماعيل أنه أخذ « يدمج فى سلك المديريين » كما يذكر أمين سامى باشا — بعض أفراد الأهالى المصريين ابتداء من سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٩) واستمر يزيد فى عدد هؤلاء لتمتعهم بوظائف المديرين ووكلاء المديريات ونظار الأقسام سنة فسنة حتى كان من بين هؤلاء من يجهل القراءة والكتابة بالكلية خصوصا فى سنة ١٢٨٧ وما بعدها .. والمحقق أنه سلك هذا المسلك .. للانتفاع بما كان يناله هو أو هو وغيره

من الاتاوة التى فرضـها على من يريد الحصول على وظـائف المديرين (١) .

ويذكر أمين سامى أن على مبارك « وكان فى هذا العيد مفصولا وعلى المعاش » قال حين سمع بسرور الخديو لرؤية معظم المديرين من ذوى اللون الأسمر المصرى « أنا مصرى مثلهم وأسمر منهم ولكنى أعرف القراءة والكتابة » .

وكان اسماعيل كجده لا يأبه للشعب فقد كان « يعتبر مصر ـ على حد تعبير هيكل ـ كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له ، مركز الشعب فيها مركز العبد أو الخادم » وحين أراد جده أن

---

(١) كان مديرو المديريات عام ١٢٨٧ هـ (١٨٦٩)

الوجه البحرى : السيد أباظه باشـا (مدير عموم الوجه البحرى) ـ أتربى أبو العز بك (الغربية ثم المنوفية) ـ هلال بك (الغربية) ـ محمد سعيد بك (الدقهلية) سليمان أباظه بك (القليوبية) .

الوجـه القبلى : أبو سلطان باشا (مدير عموم الوجه القبلى) ـ محمد توفيق بك (الجيزة) جابر خليفة بك (بنى سويف) ـ مراد رفعت بك (الفيوم) ـ عمر أحمد بك (أسيوط) ـ محمد حمادى بك (جرجا) .

وكانوا عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩)

الوجه البحرى : درمللى حسين باشا ـ خالد باشا ـ اسماعيل دانش باشا ـ محمد شاكر باشا ـ اسماعيل حمدى باشا ـ على غالبباشا ـ مصطفى فهمى باشا ـ محمد رضا باشا ـ ادريس بك ـ حسن سرى باشا ـ أحمد الشريف باشا ـ اسماعيل صفوت باشا ـ طه لطفى بك ـ محمد فوزى باشا .

الوجـه القبلى : محمد سلطان باشا (مفتش عموم الاقاليم القبلية) ـ ابراهيم أدهم باشا ـ الياس حسين بك ـ حسين عاصم باشا ـ حسين واصف باشا ـ أحمد فريد بك ـ عثمان لطيف باشا .

يستثمر المزرعة على أحسن وجـــوه الاستثمار ، ويستعين على ذلك بالادارة والعلم الغربيين . أراد اسماعيل أن يضفى على هذه المزرعة رواء الغرب وبهائه ، وأن ينقل « مصر من بلد شرقى بعيد عن مظاهر الحضارة الأوربية الا القليـــل الذى جاء مع نابليون والبعثة الفرنسية ، والذى دخل الى مصر سدا لحاجات محمد على الحربيـــة » فليخطط المدن والحواضر على أحدث نظام ولتكن القـــاهرة على غرار باريس تعبـــد فيها الشوارع وتقام القصور وتغرس البســاتين وتنشأ الدواوين ودور الحكومة ولتمد السكك الحديدية وخطوط البرق والتليفون ، وليكن له بلاط يزدهى به على ملوك أوربا وقصور تبز قصورهم واذا كان للبلاد الأوربية مجالس نيابية ، فلينشىء هو الآخر فى مصر مجلسا نيابيا وان لم يكن من السلطة ما للمجالس النيابية فى الخارج ، ويكفيه منها الا ينقصه من مظاهر الحكم الغربى شىء ، وليقم المدارس ويرسل البعوث الى الخارج حتى يقال عنه حاكم مستنير يمكن للحضارة ويمد رواقها على بلاده ، وليستثمر المزرعة بعد ذلك على أحسن وجوه الاستثمار فيشق الترع ويقيم الجسور والقناطر ويعنى بالزراعة فهى مصدر الايراد والثروة . وعن هذا الطريق استطاع على مبارك أن يكون له شأن فى دولة اسماعيل وأن يحول اهتمام الحاكم بالمظهر الى عمل جوهرى يعود بالخير على البلاد ويمتد من أثره فى حياتهـــا ما كان للتعليم الذى يرعاه من أثر على العقول والأفهام ، وليستثمر حوافز الحاكم فيما ينفع ويفيد ، وانه ليعلم أن التعليم مرقاة الأمم والشعوب الى ما ترجـــو من خير وما تنشد من تقدم . ألم يقم بتعليم الجند القراءة والكتابة ، ولم يستنكف هذا العمل أو يترفع عنه فكيف لا يرضى ، « تعليم أبنـــاء الوطن وبث فوائد العلوم » ولم يصل الى ما وصل اليه الا عن طريق التعليم ، فلتكن الدولة وسيلته الى الغاية التى ينشدها ، فليس أقدر منها عليه ، وليكن ولاؤه للدولة ولاء للوطن .

فى خدمة الدولة :

لم يكن على مبارك رجلا ثائرا ، ولم يكن زعيما شعبيا ، ولم يتصد طوال حياته لقيادة الجماهير وحين قامت الثورة العرابية ظل بعيدا عنها ، وانما كان رجل عمل ، يرى تحقيق غايته فى عمله وفيما تمنحه الدولة من قدرة على العمل المثمر ، وفيما يبدع فكره وذكاؤه من فائدة تجنيها أمته من وراء عمله ولم يكن أثيرا على الخديوين ، وهو المصرى الفلاح ، الا بقدر ما يحول رغبة الخديوين الى عمل مثمر فقد عانى الفصل أو (الرفت) ــ كما يقول ــ من خدمة الحكومة زمن سعيد ولم ينج منه زمن اسماعيل ولكن القدرة والتفوق والأصالة كانت هى التى تحملهم اليه مرة بعد أخرى . ولا يرى فيه اسماعيل الا رجلا يقدر على ما يعجز عنه الآخرون ، وتتجاوب قدرته مع رغبة الحاكم ، فيرى ما يبغيه ، وقد تحقق على يديه بأقل نفقة وأحسن نتيجة ، وحين يحيل عليه نظارة القناطر الخيرية ، وينفذ ما أشار به على اسماعيل تصدر ارادته عام ١٨٦٥ بتعيين « صاحب العزة على مبارك بك ناظر القناطر الخيرية فى خدمة معيتى ، وقد أصدرنا أمرنا لنظارة المالية بخصوص قيد مرتباته فى دفاتر المالية اعتبارا من هذا التاريخ ، فبناء عليه يجب أن تبادروا بفصل قيده من مأموريته السابقة ، وبطلب انتخاب كفء من نظارة الاشغال لاستخدامه فى الوظيفة المذكورة بصورة مؤقتة بدلا منه » . واختاره ممثلا للحكومة المصرية فى لجنة تقدير أراضى شركة قناة السويس ، تنفيذا لقرار التحكيم الذى أصدره نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى النزاع بين اسماعيل وشركة القناة فى ٦ يوليه ١٨٦٤ وكانت اللجنة مكونة من ممثل للحكومة المصرية ، وآخر للدولة العثمانية وثالث للحكومة الفرنسية ورابع للشركة .

وكان اسماعيل قد اعترض على بعض شروط الامتياز الذى

أبرمه سعيد مع الشركة ، وارتضى نابليون الثالث حكما فى النزاع ، فكان حكمه الجائر ما يأتى :

١ ــ ليس للشركة حق فى الزام الحكومة المصرية بتقديم العمال المصريين على أن تؤدى الحكـــومة للشركة مقابل ذلك ، تعويضا ماليا قدره ثمانية ملايين فرنك .

٢ ــ تتنازل الشركة عن كل حق فى ترعة المياه العذبة ، والزام الحكومة بحفرها ، مع احتفاظ الشركة بحق الانتفـــاع بمياهها ، ومقابل هذا التنـــازل تدفع الحكومة للشركة ستة عشر مليون فرنك .

٣ ــ قصر ملكية الشركة على الأراضى اللازمة للمشروع ومساحتها ثلاثة وعشرون ألف هكتار (الهكتار عشرة آلاف متر) منها ١٠و٢٦٤ هكتارا عـــلى جانبى القنـــاة البحرية وملحقاتها وتسعة آلاف وستمائة هكتار للترعة العذبة وثلاثة آلاف هكتار لمبانى الشركة .

٤ ــ اعادة الأراضى الأخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ستون ألف هكتار ، مقـــابل تعويض تدفعه الحكومة وقدره ثلاثون مليون فرنك .

وقامت اللجنة بعملها بعد أن طافت بالأراضى من « السويس الى بورسعيد وبعد المذاكرات والمداولات عملت الرسوم اللازمة وتحرر بذلك القرار وتمت المسألة على أحسن حال » وأحسن اليه الخديو بعـــدها ــ كما يذكر ــ برتبة المتمايز ومنح النيشان المجيدى من الدرجة الثالثة ، كما منحته فرنسا بدورها نيشان « اللجيون دونير » من رتبة ضابط ، وان كانت مثل هذه اللجان مما لا تحتاج الى فكر أو ذكاء اذ لا يتجاوز عملها تنفيذ ما تقرر .

ويصـــدر قرار الخديو فى ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٣ هـ (١٨٦٧) بتعيينه وكيلا عاما لديوان المدارس وبقائه ناظرا على القناطر الخيرية ــ وقد أعيد اليها ــ وكان قد تقـــدم بمشروع (لائحة) لاصلاح التعليم وبعد قليل انتدبه للسفر الى باريس « فى مسألة تخص المالية » وكانت « سفرة مفيدة ــ كما يقول ــ اغتنمت فيها فرصة الاطلاع على ما بهذه المدينة وقتئذ من المدارس والمكاتب الجمة ، واستحوذت على فهارس تعليماتهم والاطلاع على كتبهم المطبوعة هناك ، وتفرجت على مجاريها العمومية » .

وبعد عودته نال رتبة الميرميران عام ١٨٦٨ ، وأصبح « على باشا مبارك » واحيل اليه فضلا عن ديوان المدارس ، ديوان الاشغال العمومية ، وادارة السكك الحديدية ، ونظارة عموم الأوقاف مع بقائه فى المعية الخديوية ، فقام بها جميعا ، يباشر فيها عمله صباحا ، أما مساء أو « من بعد الظهر الى الغروب » ــ كما يقول ــ فقد خصصه « لديوان السكة الحديدية » لاتساع أعمالها وظل قائما بها جميعا « الى رمضان ســـنة ثمان وثمانية » (سبتمبر ١٨٧٠)«ثم انفصلت عن ديوان السكة ثم عن المدارس والاشغال بعد أيام قلائل ، ثم عن الأوقاف بعد مضى قليل من شوال من تلك السنة » .

وترجع أسباب فصله الى وشاية اسماعيل صديق (المفتش) ناظر المالية حينذاك الأثير على اسماعيل وصاحب الحظوة عنده ، فقد أراد اسماعيل المفتش أن يضم ايراد السكك الحديدية الى المالية ، فلم يقبل على مبارك الا أن تقوم المالية بمصروفاتها ما دامت تستولى على ايراداتها ويكتفى هو بادارتها مشترطا صدور أمر الخديو بذلك حتى لا يسأل عما « يحصل من الضرر » بعد ذلك .

ولم يلبث طويلا حتى عاد الى ولاية ديوان المدارس بعد أن أحيلت

اليه ادارة المكاتب الأهلية . ويبدو أن الخديو قد شعر بالفراغ الذى خلفه ولم يجد من يملأه ، فأعاده الى مناصبه الأولى فى الأشغال والأوقاف وان لم يعهد اليه بادارة السكك الحديدة ، ولما ادمجت هذه الدواوين فى بعضها وتحولت الى الأمير حسين كامل بقى معه مستشارا لها ، وحين صدر أمر الخديو بتعيين الأمير حسين كامل ناظرا للداخلية ، الحق بها الأشغال العمومية وعين على مبارك وكيلا لها ، ولم يلبث غير شهرين وصدر الأمر الخديو بفصله من وكالة الأشغال وتعيينه عضوا « بالمجلس الخصوصى » وكانت الأشغال العمومية قد ألحقت قبل ذلك بأيام بديوان الجهادية ثم فصل منه بعد أن لحقته نقمة اسماعيل صديق وأضرابه اذ وشوا به عند الخديو « بأن كتابنا نخبة الفكر الذى أمرنى بتأليفه فيما يتعلق بأمر النيل مشتمل على ذم الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها » ، فلزم بيته مرة أخرى وان بقى مرتبه يؤدى اليه « من المالية » حتى أعيد الى الخدمة بعد قليل « رئيس اشغال الهندسة بديوان الاشغال » ثم أعيد ديوان الاشغال الى نظارة الداخلية وكان يتولاها محمد باشا توفيق « ولى عهد الحكومة الخديوية « فعين.. مستشارا له . ولما استقل الديوان بنفسه عام ١٨٧٥ « تحت نظارة دولتلو ابراهيم باشا نجل المرحوم أحمد باشا » بقى معه فى منصبه حتى عين فى وزارة نوبار عام ١٨٧٨ ناظرا للأوقاف والمعارف ، وظل فى منصبه فى وزارة توفيق حتى سقطت ، وألف محمد شريف الوزارة ولم يكن من أعضائها ، وبقى بمنأى عن الحكم حتى خلع اسماعيل وتولى الخديوية ولى عهده توفيق .. فكلف محمد رياض بتأليف الوزارة عام ١٨٧٩ وعين على مبارك ناظرا للأشغال حتى استقالت فى سبتمبر ١٨٨١ وألف شريف الوزارة الجديدة فلم يكن من أعضائها ، ولما الف شريف وزارته الرابعة بعد الاحتلال كان فيها ناظرا للأشغال حتى استقالت فى يناير ١٨٨٤ احتجاجا على اخلاء السودان ثم عاد الى الوزارة ناظرا للمعارف

العمومية فى وزارة رياض التى تألفت عقب اقالة نوبار فى يونيه ١٨٨٨، وكان هذا آخر منصب تولاه وبقى به حتى استقالة رياض سنة ١٨٩١ فلزم داره ثم سافر الى بلده لادارة أملاكه حتى مرض بداء المثانة ، فرجع الى مصر وألح عليه المرض حتى وافته المنية بداره بالحلمية الجديدة فى ١٤ نوفمبر ١٨٣٩ .

الحافز والأثر :

ولم يكن العمل لديه خاليا من الحوافز ، ولم تكن حوافزه من قبيل الحوافز التى حملت غيره من المصريين الذين تقدموا فى وظائف الدولة أو نالوا حظوة لدى الخديوين ، فحين حملتهم ذاتيتهم الى التنكر لأصولهم القديمة والتشبه بالأتراك ، وجمع الثروة والسير فى ركاب الخديوين وخدمة مآربهم ، والانتفاع منها بما يعود عليهم من كسب الجاه والنفوذ واقتناء العقار والأموال ذهب هو الى اتخاذ المنصب أو الجاه أو التقدم فى سلك الوظائف العامة أو مصانعة الخديوين ، وسيلة لخدمة بلده ، وكأنه يرى أن كل ما يجود به الخديويون من أموال ـ وكان من العسير أن يجودوا بها ـ يجب أن يستثمر أعظم استثمار فى خدمة العمران والتقدم فى بلاده ، وان كل نزعة منهم للبناء والتعمير وان كانت مظهرية كنزعة اسماعيل يجب أن تستغل لخدمة أهله وعشيرته ، وكل حافز فيهم للعمل وان كان عائده عليهم كما كان من الاحتلال حين عنى بالزراعة والرى وأهمل التعليم ، يجب أن يتجه ويتكيف بحيث تنال البلاد بعض عائده ، كانت تلك حوافزه : العمل من أجل مصر ومن أجل المصريين ليخفف عنهم ما أرهقهم به الحاكم من أعباء وليهون عليهم بقدر ما يستطيع من شدة الحياة ووقر الحاكم ، ولينشىء للمستقبل جيلا جديدا يزود بالقدرة على استعادة حقه واثبات وجوده « ولهذا التزمت ـ كما يقول ـ فى كل ما تقلدت

من الأعمال وجميع ما تقلبت فيه من الأحوال ، أن أخدم وطنى بكل ما نالته يدى وبلغه امكانى مما أراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل أو جل » ومضى فى الحياة لا يألو جهدا فى خدمة مصر ، ولم يشأ أن يتشبه بالترك وانما أراد أن يكون قرينا لهم ، ولم يفكر كما فكر غيره ممن نالوا بعض الحظوة أو الحظ من المصريين فى التنكر لأصوله وعشيرته والتشبه بالترك أو التقرب اليهم ولو عن طريق الجوارى أو البطش بالأهل والعشيرة لمصلحة الحاكم المستبد كما كان من اسماعيل صديق وكانت نهايته عنوانا على البطش والاستبداد ، ومحمد سلطان الذى قال فيه عبد الله النديم « انه تلميذ مدرسة الظلم الوبيل وتربية الخديو اسماعيل » ومحمد رياض الذى تولى الوزارة أكثر من مرة قبل الاحتلال وبعد الاحتلال فكان على المصريين أشد مما كان الترك ووصفه الرافعى « بالتعاظم والكبرياء والزراية بالشعب » .

وكانت تلك وما زالت آفة المصريين أورثتهم اياها عهود الاستبداد الطويلة لا ينجو منها الا من أوتى رحابة من الفكر واكتمالا فى الشخصية ، وكانت أسس التربية التى قامت عليها المدرسة المصرية الحديثة فى عهد محمد على وبعد عهده حتى الاحتلال البريطانى خالية مما يقوم شخصية الفرد أو يهدى الى الفكر الحر ، فكانت بنظامها العسكرى وبما حفلت به من عقوبات بدنية ونفسية أقتل لشخصية الفرد مما كانت عليه الكتاتيب القديمة ، وما كان عليه التعليم الدينى فى الأزهر والمدارس الكنسية المسيحية على قلتها ، فاذا كان التعليم الدينى قد أقام سياجا من الجمود على فكر الناشىء ، فقد ترك له حريته الشخصية يكيفها ويتكيف معها على ما تستهديه حياته ، وكان من الأزهر رجال قبل عهد محمد على تركوا آثارهم جلية على صفحة الحياة المصرية فى الوقوف أمام المماليك ، وفى الثورة على الفرنسيين وفى وصول محمد على

الى الولاية ، ويختفى هذا الأثر من آثار الأزهر بعد أن استبد محمد علـى بالحكم وقضى عـلى نفوذ علمائه بين المصريين . فلما أقام مدرسته الحديثة ، أقامها لاعداد طبقة أثيرة من خدام الدولة تدين بالولاء له ولأسرته من بعده ، وطبع نظامها بنوع من الصرامة يجرد الفرد من شخصيته ومن الولاء حتى لأهله ، فكثيرا ما كان يعطى للتلاميذ أسماء وألقابا غير أسمائهم وألقابهم الأولى ، وكان يقطع الصـلة بينهم وبين أهليهم ، فلم ير على مبـــارك أهله الا بعد أربعةعشر عاما من فراقه لهم ، وعاقه عن زيارتهم بعـد عودته من البعثة ما عرفه من أن « من يقوم بأجازة يقطع نصف راتبـه » .

وكان يؤثر من بينهم الأجانب وأبنـاء المماليك ويعلى عليهم جميعا أبناء جلدته من الترك والجركس ، فاذا احتاج الى مصرى فهى الحاجة التى لا يقوم بها غيره ، ومن هذه الثغرة نفذ كثير من المصريين الى التعليم والى مناصب الدولة حين استوعب جيشه أبنـاء المماليك ، واستوعبت وظائف الدولـة الكبرى المدنيـة والعسكرية غيرهم من الترك ولم يبق للمصريين غير وظائف التعليم والوظائف الفنية الأخرى فى الطب والهندسة والصناعة اذ لم يكن للمماليك أو الترك قدرة عليها .

ولم يكن مما يعنى محمد على أن يعد طبقة من المتعلمين تنهض بالأمة وترقى بها ، وما كان يعنيه الا أن يمده نظامه التعليمى بنفر من القادرين على خدمة الدولة ، ولا تتعدى رسالة المدرسة عنده تلك الغاية ، وبقـدر ما تحتاجه الدولة من هؤلاء النفر ، بقدر ما يتسع أو ينكمش نظامه التعليمى .

وفى هذا السياج الذى أقامه محمد على للحكم ، وأقام فى داخله نظامه التعليمى ظهر بعض المصريين ونبه شأنهم فى خدمة الدولة ،

ولكنهم كانوا يحملون فى نفوسهم عقدتين : عقدة الأستعلاء على مواطنيهم والتنكر لأصولهم القديمة ، وعقدة النقص أمام الحاكم التركى والاستخذاء للحكم الغاشم مهما كان وباله . ولم ينج من عقدتى النقص والاستعلاء الا من أوتى — كما قلنا — رحابة من الفكر واكتمالا فى الشخصية ونكاد لا نعثر بين خريجى مدارس محمد على من استوت فى نفسه وفى خلقه الشخصية المصرية استواءها الصحيح ، فما أن تتقدم بهم المناصب ، حتى يأخذوا السمت التركى فى التعاظم والاستعلاء على المصريين ، ويبقى فيهم مركب النقص يشدهم الى التشبه بالأتراك ، ويجرهم الى مصاهرة الترك ، وقليلا ما كانت تقبل الأسر التركية مصاهرة الفلاحين المصريين ، فكانوا يقبلون على زواج الجوارى من معتوقات الأمراء أو خدم الأسرة العلوية ، ولم يرض الخديو اسماعيل عن عرابى ويعيده الى خدمة الجيش ، الا بعد أن تزوج ابنة مرضعة الأميرة أمينه الهامى ولى عهده توفيق .

وكانت التركية عتيقة أو حرة قادرة على أن تجمع بين زواجها من مصرى وازدراء غيره من المصريين ، وبين الولاء الذى عرفت به التركيات للزوج والازدراء الذى نشأن عليه للمصريين ، كن يوائمن أنفسهن على الاعتقاد بأن الزوج المصرى قد سلخ نفسه عن عشيرته بزواجه منهن . وبقيت تلك العقدة كامنة فى أبنائهن ، فكان اعتزازهم بالنسبة الى الترك يفوق اعتزازهم بالنسبة الى المصريين وخاصة فى الاناث منهم .

ولم ينج على مبارك من عقدة الاستخذاء وان نجا من عقدة الاستعلاء مما يفسر التناقض بين ما أداه لبلاده من خدمات وبين موقفه من الثورة العرابية . فقد حملته عقدة الاستخذاء على أن يرى فى الدولة ، رجاءه فى خدمة وطنه ، فيستنكر الثورة عليها ويكون موقفه من الثورة العرابية موقف من يخشى العواقب ،

ولا يغامر بالتجربة ، فيستنكرها ويلام على ما لم يكن فى طاقته أن يقوم به ، فما كان الا ربيب النظام التعليمى الذى انشأه محمد على ، وان لم يدن بنوع من الوفاء لهذا النظام الذى حمله فى مستهل التحاقه بمدرسة القصر العينى علـى التفكير فى الهرب فلم يعقه عنه الا خوفه مما يلقى الهارب وأهله من نكال .

ولكن هذا النظام التعليمى قد ترك فى نفسه هذا الأثر من التسليم والاستخذاء ، وكان فى الوقت نفسه صدى لنشأته فى أسرة تشتغل بالدين وتقيم حياتها عليه ، فبقدر ما يعرف عن مثل هذه الأسر من الطيبة والوداعة والتسامح ، فانها تعيش فى قرى مصر على رعاية المجتمع وبر الناس ، ولم يكن العنف أو الثورة من طبائعها ، بل أنها لترى من واجبها أن تدعو الناس الى الرضا والتسامح وأن تصلح ذات البين بينهم ، فاذا حلت بها مصيبة أو نكبة أو لقيت جورا أو ظلما ــ كما لقيت أسرة على مبارك فى برنبال الجديدة ــ فأرض الله واسعة وليهاجروا الى حيث تطيب لهم الحياة وليجدوا فى كنف قوم آخرين من الرعاية والبر ما يقيم حياتهم الجديدة .

ولم يكن على مبارك بحكم نشأته وتربيته وتعليمه ممن يؤمن بالثورة ، ولم تكن له قدرة عليها وكان يرى فى العمل الوئيد المحقق مالا تثمره الآمال العراض . أو الرغبـــة فى تغيير عنيف لا يضمن عواقبه ، فكان موقفه من الثورة العرابية ، وكان حذره منها ، فضلا عن أنها جاءت فى وقت كان قد بلغ فيه أقصى ما يأمله مصرى فى طموحه حينذاك ، وحقق من آماله فى العمل وفى المنصب ما يبتغيه . فاذا قصده بعض شـــباب الضباط من المصريين فى داره ــ وما من شك فى أنهم ما ذهبوا اليه الا لأنه مصرى صميم يحس احساسهم ، وتجيش نفسه بما تجيش به نفوســـهم ــ يستشيرونه فى أمرهم وفيما يعتزمونه من استخلاص حقوقهم

بالقوة ، وقد بلغ بهم التذمر من الضباط الجراكسة حد الانفجار ، قص عليهم قصة وقعت له فى بداية حياته ، حين طلبه الخديو لمقابلته فى سراى رأس التين ، وقد جلس معه فى قاعة الانتظار تركيان تحدثا الى بعضهما باللغة التركية وقد ظنا انه لا يفهمها ، وابديا عجبهما من أن يدخل فلاح قصر الوالى أو أن يطلبه الوالى ، ثم قال للضباط : « وهذا الفلاح عينه قد أصبح ناظرا ، هذا مكسب كبير لنا ، فاذا صبرنا فسنحل محل هؤلاء الشراكسة ... اذن كونوا أثبت من ذلك ولا تتحركوا حركة من قبيل ما ذكرتم » .

فلم تكن الثورة من طبيعته ، ولم يكن التحدى وسيلته ، وما كان يؤمن بغير العمل المثمر فى اطار الدولة ، فكانت الوظيفة عنده وسيلة لغاية ، وكانت غايتـــه أن يتخذ من حوافز الدولة معوانا لغايته ، والدولة كما هى دولة الفرد صاحب الأمر والنهى ، ورب السلطة المطلقة ، ما من عمل يتم الا بارادته وما من قرار يبرم الا بأمره ، ودولة هذا شأنها فان تقدمها رهن بمشيئة الفـــرد وحوافزه ، ولن يتاح لفرد فى مثل هذه الدولة سبيل الخدمة العامة مالم يكن من رجالها القائمون على تنفيذ ارادتها ، العاملون على تحقيق ما يراه الحاكم لها ، على أن يستهدى فى عمله خدمة الوطن وصالح المواطنين ، فلا تكون بغيته ارضاء الحاكم فحسب ، فكثيرا ما يرضى مثل هذا الحاكم المستبد ببهاء الصورة ويغفل عن المضمون المتداعى المنهار فلا تكون لأعماله صفة الأصالة أو البقـــاء .

ويفصح عن أسلوبه فى العمل فيقول « وأستعين ... بالأوامر الخديوية » فالأمر الخديوى وسيلة لتحقيق الغاية التى يتوخاها من الاصلاح والتعمير ، وليست وسيلة لأرضاء الخديو فحسب وان كان لا يغفل عن ارضائه بتنفيذ ما يبغى ولكن على الصورة التى يراها مثمرة ونافعة ، ففى ارضائه ما يمنحه مزيدا من

القدرة على التنفيذ ، فليس بعد الأمر الخديوى أمر وليس عليه معقب .

فالحافز الذى يدفعه الى العمل النافع المثمر ، هو أن يخدم وطنه — كما يقول — بكل ما نالته يده ، وما بلغــــه « مكانه » والوسيلة اليه هى الأوامر الخديوية التى تمثل ســـلطة الدولة العليا . أما الأثر فهو ذلك السجل الحافل من الأعمال الجليلة التى تمت على يديه والتى عادت على مصر بأعظم النفع ، ولم تكن لتتم على تلك الصورة ، لو لم يكن وراءها هذا العقل المبدع الخلاق وتلك الطاقة القادرة على التكيف ، لتصل بعائد العمل الى أقصى مداه .

فاذا توارت عنه الحوافز أو غامت لديه يبقى أمامه حافز واحد يضنيه ويدفعه فهو تجربة حياته كلها . وهو الفكرة التى ندبها عقله من واقع وجوده وكفاحه لتحقيق طموحه ، فما زالت صورة الطفل الشارد يبغى أن يتعلم ، وأن يتقدم عن طريق التعليم ليكون مثل « عنبر أفندى مأمور زراعة القطن بنواحى ابى كبير » تراود ذهنه ، وتلح عليه ليكون لكل مصرى من فرص التقـــدم ما كان له باصراره ، وما كان لعنبر افنــدى بحظـــوته : فها قد أصبح الطفل الشارد مهندسا ومديرا وناظرا فاذا أتيح للمصريين حظ التعليم ، واذا انتشر التعليم بين المصريين ففى ذلك تقدم مصر وتقدم المصريين .

كان هذا ايمانه وأعظم حوافزه فشغل جل اهتمامه ، وتضاءلت الى ما تركه من أثر فى ميدان التعليم — وهو المهندس النابه — كل آثاره فى الميادين الأخرى على جلالها وقيمتها ، وان بقى يعمل فى ميدان التعليم ، كما عمل فى الميـــادين الأخرى فى اطار الدولة واستطاع أن يجعل من جهاز الدولة اداة لخدمة حوافزه وأغراضه ،

فينزع التعليم من صورته المظهرية ويحـــوله الى أداة مثمرة فى تكوين الأمة وتقـدمها ورفع مستواها الفكرى والثقافى لتعرف طريقها على خط الحياة ، وعلى هدى المستقبل المنشود ، وحين يتحقق ذلك تكون مصر لأبنائها لا للترك والجركس ، كما قال لمن قصده من الضباط الثائرين .

رجل وعمل :

وهو فى كل هــذا يواجه الواقع على ما هو عليه ، وتتجلى قدرته فى التكيف معه ليحول ما فيه من شر أو خير الى نفع أكيد يعــود على بلده وعلى أرومته بالخـير ، وكانت حاجـة الحاكم الى قدراته العـديدة ســببا فى تعدد مجالات عمله وتنوعهــا ، فلا نجـد رجلا يقترن اســمه فى تاريخ مصر الحديث بالجانب العملى للنهضة والعمران كما يقترن اسم على مبارك فضلا عن انتاجه الفكرى ، ويكفى وحده لأن يدرج اسمه فى ســـجل الخالدين .

وقد بدأ حياته العملية كما رأينا مع عباس واستطاع أن يتكيف مع ارادته فينقذ تلك البقية من المدارس من شر يحيق بها بحجة كثرة نفقاتها ، فما كان أيسر على عبـــاس من اغلاقها لو زادت نفقاتها على الفضــــلة التى يراها لها ، والتى لا ترهق نزواته الأخرى ، ولعل هذا ما استشفه على مبارك حين جعل ميزانية التعليم خمسة آلاف جنيه بدلا من مائة الف ، اذ لو كان يعلم أن عباسا يهتم بالتعليم ، أو يلقى اليه بعض العناية لما أنقص ميزانيته الى هذا الحد ، ولا اكتفى بالحد المعقول لضغط الانفاق ، وهــو ما غفل عنه لامبير بك ، وزميلاه عــلى ابراهيم وحماد عبد العاطى حين ترددوا فى الموافقة على مشروعه .

ولم يكن له على أيام سعيد دور يذكر ، الا دوره فى حملة القرم ، ولكن قدرته على العمل المثمر لا تفارقه فينشيء « اسـبتالية » للجند فى كموشخانة لا تكلف الدولة شيئا ويستعين على انشائها بالتبرعات ، وعلى الخدمة فيها بالتطوع . وحين اعتلى اسماعيل العرش تحفزه نزعة جياشة الى التشبه بالغرب ، وحافز قوى لأن يقال عنه ملك متنور يحكم بلادا مستنيرة ، استطاع أن يستغل هذه الحوافز للعمل المثمر الذى ينشده ويرتجيه لتقدم بلاده ، وان وقف عمله عند حدود وظيفته ، فما كان له أن يتعدى تلك الحدود والا حل به غضب الحاكم ، وجرده من القدرة على العمل ، وقد رأيناه مفصولا أو محالا الى التقاعد لا يعمل الا ما تقتضيه أمور معاشه .

لذلك كان كل عمل قام به فى خدمة (دولة الحاكم) متسما بالحكمة والمرونة تحكمه — كما قلنا — المنفعة والرغبة فى الاصلاح كما تحكمه رغبة الحاكم وارادته ، فقام على تنظيم المدن بما يحقق رغبة الخديو فى الرواء الأوربى الذى يبتغيه لحواضر البلاد ومدنها الكبرى لتكون على غرار المدن الأوربية .

ويرى على مبارك أن الحركة فى القاهرة قد اتسعت « فكثرت عربات الركوب وعربات البضائع والعمائر فصار غير لائق بها بقاء الحالة القديمة على حالها من ضيق الحارات والشوارع واعوجاجها اذ كان الازدحام بها يترتب عليه النصب والعطب والخطر والضرر ، فصدرت الأوامر الخديوية لديوان الأشغال ونحن به بالنظر فى ذلك وأن يعمل له قانون يأتى على المرام » وكانت لجنة تنظيم القاهرة برئاسة محمود الفلكى ، قد انتهت من تخطيطها الجديد ، فاعتمده ونفذ على الصورة التى أصبحت عليها القاهرة من بعده ، « مثل شارع محمد على وميدانه ، وشوارع الأزبكية وميدانها ، وما بعابدين من الشوارع ونحوها ، وباب اللوق ، وغير ذلك مما

هو بداخل المدينة وخارجها » فقامت المبانى والعمائر الجديدة ، وامتدت الشوارع الواسعة تحف بها الأشجار المغروسة كما أزيلت التلال التى كانت تمتد من الفجالة الى باب الفتوح ، وحلت مكانها المبانى والبساتين واقيمت « قصور الاسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها » بعد أن سويت أراضيها ومستنقعاتها وتلالها . « ولم يكن بها صالح للزرع ومأهول بالنـاس الا القليل » وبنى جسر قصر النيل ليصل القاهرة بالجيزة و « لأجل زيادة الأمن والتسهيل على الخاص والعام » وامتدت الشوارع الفسيحة « المنتظمة فى بر الجيزة ، وحفت بالأشجار ، وفرشت بالأحجار الدقيقة المختلطة بالرمل ، لمنع الأتربة وتسـهيل المرور الى العمـائر والسرايات والبساتين التى تجل عن الوصف » وهـو ما قامت على غـراره « الشوارع المستجدة بالمدينة وضواحيها » وقامت « شركة من الأفرنج بعمل وابور الماء » ليمد « الأهالى بماء النيل بلا كبير ثمن ولا مشقة » وأنيرت المديـنة بغاز « التنوير حتى ذهبت غياهب ظلامها والتحقت لياليها بأيامها » ــ ثم يقول ــ ان هذا كله « غير الأعمال الجسيمة التى أجريت فى جهات القطر مثلما تجدد فى الاسكندرية ... وما تجدد بالسويس من عمل الميناء والحوض والمحافظة وشركة الماء ... وما رسم فى المديريات من الدواوين والجسور والقناطر والترع التى من أعظمها ترعة الابراهيمية ، وترعة الاسماعيلية التى حفرت بالمقاولة » ولعله حين أشار الى أنها « حفرت بالمقاولة » كان يشير دون أن يفصح الى تفكيره عن السخرة ، فقـد كانت السخرة نوعا من العبودية ، اذ كان على القرية أن تقدم عددا من أبنائها للعمل مجانا فى المنشآت العامة . وأحيانا فى المنشآت التى تخص الحاكم أو صاحب السلطان .

وما كان لعلى مبارك أن يلغى نظاما قائما أو يقضى على سنة جارية ينتفع منهـا الحاكم وتنتفع بها دولته ، فما كان من دعاة

الاصلاح الاجتماعى ، وما كان من المطالبين بحقوق الشعب ، ولكنه حين يرى بادرة لرد بعض الحق للناس ، أو لتخليصهم من جور يلم بهم ، لم يكن يتنكبها ، أو يقعد عنها ، فوضع نظاما للعمل فى حفر وتطهير الترع يقول أنه « وفر تسخير عشرة آلاف شخص عام ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣) وأدى الى تعديل لائحة العونة (السخرة) ، وهى اللائحة التى يقول أنه « ندب لهـا جملة من أعيـان البلاد والحكام ، وهى المتبعة الآن ، من مقتضاها جعل العونة على كل من له قدرة على العمـل مع الترخيص فى التخلص منهـا بدفع البدل ، فتخلص من العمل ثمانية وخمسون ألف نفس ، وتحصل منهـا فى السنة نحو ستة وثلاثين ألف جنيه ، وكان كل سنة يزيد » واسـتعاض عن السخرة فى تطهير رياح البحـيرة باقامة « وابورات بفم الخطاطبة وتحسين وابورات المحمودية » لرفع ما يلزم المديرية من مياه الرى ، وكلف احدى الشركات بالقيام بها « فبطلت السخرة ــ كما يقول ــ وقل الاحتياج الى التطهير » ويذكر أنه كان يسخر لتطهيره سنويا « نحو عشرين ألف نفس تجمع من سائر مديريات الوجـه البحرى ، لقلة أنفـار مديرية البحيرة ، ومع ما فى ذلك من الظلم والاجحاف كان لا يتحصل منه الا على ثمانمائة ألف متر مكعب من الماء فى اليوم والليلة » .

وكان ديوان الأشغال يستخدم كتائب الجيش لنقل الأحجار اللازمة لصيانة جسـور النيل ، فاستعاض عنهـا بالتعاقد مع المقاولين لتوريد الأحجار اللازمة ، وأعفى الجيش من السخرة ، وحقق وفرا فى النفقة وزيادة فى كمية الأحجار اللازمة .

وبهذه القـدرة على التكييف والتكيف استطاع على مبارك أن يوفق بين حاجة الدولة ونظامها وما يقتضيه حبه لبلده وأرومته من خير . وهو نوع من الوطنية يعز على كثير من الناس وان مست

الحاجة اليه عندما يستشرى سلطان الدولة ويعصف بحقوق المواطنين .

وكان عمله فى كل ما تولاه من مناصب يقوم على الدراسة والفكر وامعان النظر الى طاقة هائلة من الجلد والمثابرة تميز بهما منذ صغره . ومكنتاه من أن يقوم بأعمال عديدة فى وقت واحد ، وان يسرت له تلك الأعمال قدرته الفائقة على التنظيم والادارة ، وهى قدرة تقوم فى العادة على ذكاء أصيل وادراك واسع ، فكان العمل الذى يبدو عسيرا معقدا فى يد غيره ، يصبح فى يده سهلا بسيطا ، وكثيرا ما كان يأخذ على يده اتجاها جديدا يصلح به من خلله القائم ، فحين تولى ادارة السكك الحديدية عام ١٨٦٨ ، اخذ يعـالج أمورها على ما يراه كفيلا بتقدمها وقيامها بوظائفها على خير وجه .

وكانت السكك الحديدية شيئا جديدا على مصر ، كما كانت فى بلاد العالم أجمع حينذاك ، ولم يكن قد مد منها فى مصر حتى ولاية اسماعيل سوى ٢٤٥ ميـلا تمثل امتداد الخط الحـديدى بين القاهرة والاسكندرية ، وبعض الخطوط الفرعية الأخرى فى الوجه البحرى ، ولم تكن قد استوفت ــ كما يقول ــ المقومات الأساسية لحسن الأداء « فلم يبن من المحطات غير محطتى مصر واسكندرية وأما باقى المحطات فكان فى بعضها أخصاص من خشب وفى بعضها بناء من الطوب النىء والدبش على هيئة غير هندسية . وفى جميع المحطات كان الاقتصـار على رصـيف للركاب من غير أن ينظر لراحتهم ووقايتهم من حر الصيف وبرد الشتاء ، ولا الى ما يلزم للمحطات من الفرش وأدوات الجلوس ، بل كانت مجردة من ذلك ، ولا الى حركة الوابورات الواردة والصادرة على وجه يجلب منافعها ويدفع مضارها والمحطتان المبنيتان وهما محطة مصر واسكندرية ، وان وجد فيهما بعض من المبانى اللازمة لتلقى أمتعة

الركاب وبضائع التجار لكن لم يكن ذلك كافيا ... فكان ما فيها من الأبنيــة اما غير كاف للبضائع واما غــير مســتوف لشروط حفظها ... وجميع المستخدمين بالمحطات كالوكلاء والمعاونين ، وجميع خــدمة الوابورات والمقطورات والمخــازن كانوا بهيئات لا يتميزون بها عن بعضهم واكثرهم كان من الأجانب الذين لا معرفة لهم بلغة هذه الديار ... فلذا كانت عديمة الأرباح كثيرة الخسارة والمضرات داعية الى النفوز » ومع حرص القائمين عليها كانت الخسارة تتزايد عاما بعد عام ، ولقلة الخبرة الفنية « تلف أكثر المهمات والعربات والوابورات » ولم تكن الايرادات لتفى بنفقات الاصلاح ، ولا ورشة العمليات بكافية للتعمير « اما لنقص بعض العدد والآلات واما لقلة العمال » ولكثرة ما يرد اليها لم تعد تتسع لغيرها مما اضطر الادارة لخزنها فى أماكن أخرى وكانت « حرارة الشمس فى فصل الصيف تؤثر فى خشب العربات فتفصل الواحها عن بعضها وكذلك اهمال دهنها » .

تلك كانت حالة السكك الحديدية كما يصورها على مبارك ، وقد حفها اسماعيل بعنايته بعد توليته ــ كما يقول ــ باستكمال ما يلزمها « مما يجلب اليها رغبة الركاب والتجار لعلمه أن أيرادها تابع لقدر الرغبــة فيها قلة وكثرة » ثم « قلدنى نظــارة هــذه المصلحة ... فأعملت فى ذلك جل أفكارى » ويقول أنه بدأ ببناء المحطات وأولها محطة الاسكندرية « لأنها مجمع المتاجر الواردة والصادرة ، فمتى استوفت لوازمها وسهل الشحن والتفريغ بها وأمن التجار على بضائعهم من التلف أقبل الناس على استعمال السكة الحديد خصوصا اذا قلت الأجرة فيها عن اجرة البحر » فعمل على تيسير ذلك ببناء المخازن وتعبيد الطرق اليها حتى يسهل وصول العربات الى أرصفة الشحن وتقل نفقات «العتالين» .

ويبدو أن تلك الحالة لم تتغير كثيرا عمــا كانت عليه فى أيام

سعيد ، بالرغم من أن اسماعيل قد حفها بعنايته ـ كما يقول ـ فما أن تولى أمورها بعد خمس سنوات من ولاية اسماعيل حتى وجد أن « أربعمائة عربة متخربة ... وكان الذى يعمر منها مع قلته يعمر بمهمات عربات أخرى ، فكانت عمارة العربة الواحدة تستوجب تخريب عربتين وأكثر ، وعمارة الوابور الواحد تستلزم تخريب وابور مثله » وكانت القاطرة تتغير أكثر من مرة فى الطريق من الاسكندرية الى القاهرة حتى فقد الناس ثقتهم بالسكة الحديد وعدلوا عنها الى ركوب البحر « فشمرت ساعد الجد وبذلت غاية الجهد ، وشرعت فى عمل الطريق الجالبة للرغبة وصيانة المهمات وعمارتها » فأصلح الأرصفة وأقام فوقها المظلات « والسقائف » وخصص لكل نوع من البضائع رصيفا معينا وأنشأ الورش فى الاسكندرية والسويس وكفر الزيات ومحطة مصر لعمليات التعمير والاصلاح الخفيفة وأحكم نظام المراقبة والحركة مما حمل « المستخدمين على زيادة الملاحظة وأعمال الأفكار فيما هو مطلوب منهم فحصل من ذلك نتائج حسنة » حتى « غطت رغبة التجار فى استعمال السكة الحديد وانهالت البضائع على اختلاف أنواعها على جميع المحطات تجارية وزراعية حتى البطيخ والخيار والأسماك والحجر والدبش والرمل والحطب والسباخ » وان حال بعد البلاد عن المحطات عن الوفاء برغبة « المزارعين من نقل محصولاتهم الى الأسواق أو الى بلد أخرى من مراكز التجارات الريفية » .

ولم يبق على مبارك طويلا فى ادارة السكك الحديدية حتى ينجز ما يراه كفيلا بتقدمها وان أفصحت المدة القليلة التى تولى فيها ادارتها عن طريقته وأسلوبه فى العمل سواء فى ادارة مثل هذا المرفق أو فى ادارة غيره من المرافق الأخرى التى تولاها .

وبقدر ما يفصح عمله عن الاصالة والقدرة بقدر ما يفصح عن

ذكاء شامل ، ونظرة عامة تتكامل فيها الجزئيات ، وتتسق فى اطارها الكليات ، فحين تولى ديوان الأوقاف وكان فى الوقت ذاته مديرا للمدارس ، جعل من كل منهما عونا للآخر ، أو على حد تعبيره « مساعدة كل منهما للآخر مساعدة كلية ، اذ صار أمر التعليم فى المكاتب ملحوظا بعين المدارس فكاد سيرهما فى التعليمات والتنبيهات والامتحانات السنوية وغيرها سواء ، وتيسر لمن أكملوا دروسهم الابتدائية فى مكاتب الأوقاف والمكاتب الأهلية المنتظمة دخول المدارس التجهيزية والتدرج منها الى المدارس العالية ، وبذلك صار يؤخذ منهم بالرغبة والأهلية كل سنة عدد عديد كما يؤخذ من تلامذة المدارس الابتدائية الأميرية ، واحيت المدارس كثيرا من عقارات الأوقاف المندرسة وانتفعت بها » . وكان بعض أهل الخير « فى الزمن السابق » قد وقفوا شيئا من أموالهم على التعليم « حسبة لله تعالى » ولكن المتنظرين عليها ، انحرفوا بها « عن الصراط المستقيم صراط الواقفين الراغبين فى الخيرات وصار ما يسلم من العدم والتخريب يستعمل أكثر فى اغراض أخرى ، والمستعمل فى الفرض الأصلى على قلته ولا يستوفى فى سيره شروط الواقف وحد اللازم ، وساء حال التعليم فى المكاتب الحاصلة وقل المعلمون والمتعلمون ، وصار اجتماع الأطفال والمتعلمين بهذه الأماكن قليل النفع بحيث كاد لا يفيدهم الا الضياع والأمراض الناشئة عن الوساخة والتفريط فحصل رجوع كثير من هذه العمائر الى أصلها المقصود منها والفائدة الموضوعة لها » فردها على مبارك الى ادارة ديوان الأوقاف وشملها باشراف ديوان المعارف لتقوم برعاية مكاتبها ، تحقيقا لرغبة الواقف ومنفعة التعليم .

ولا يقف جهد على مبارك عند هذا الحد ، فقد لا يعد هذا أكثر من تصحيح وضع خاطىء ولكن أصالته تبدو فى تنظيمه

لادارة الأوقاف تنظيما لم يتناوله التغيير كثيرا من بعده ، اذ أنشأ مأمورية للأوقاف فى كل قسم من أقسام القاهرة يرأسها مهندس يشرف مع مساعديه من الكتبة والمعاونين والمحصلين على عمائر الأوقاف وأراضيها فى مأموريتـــه ، ويقول أنه « شدد عليهم فى الالتفات الى ما نيط بهم بحيث أن من فرط فى أمر يجرى عليه ما يســـتحقه ، ففتحوا أعينهم ونصـــحوا فى ســيرهم خوفا على أنفسهم ، فانصلح كثير من الأوقاف وحسنت أحوالها » وأنشأ ادارة لأوقاف الوجه البحـــرى مركزها طنطا أما أوقاف الوجه القبلى فان موظفيها من المأمورين والمهندسين كانوا تابعين للديوان بالقـــاهرة .

كما تبدو أصالته الادارية فى تنظيمه لأعمال الأشغال العمومية حين تولى نظارتها فى وزارة رياض سنة ١٨٧٩ بعد عزل اسماعيل ، وكان يراها « الأساس الأعظم للثروة » اذ كانت « جميع الأعمال ــ كما يقول ــ ما عــدا المقايسات يجريها المفتشون والمــديرون ونحوهم فيعملون برجال العونة مبانى وترعا ومساقى على أغراضهم الخاصة بلا فائدة عامــة حتى كثرت الخلجان وضاعت بسببها مزارع كثيرة ، وضاعت المصارف التى عليها مدار اصلاح الأرض » فقسم الديوان الى ثلاثة أقسام رئيسية هى : « قسم التحريرات والمحاســبة ، وقسم التصميمات لما يلزم تجديده من الأعمال ، ويتبعه فرقة مهندسين لعمل الرسومات والموازين وقسم يختص بالقاهرة وغيرها من مدن القطر » هذا عدا الأقسام الفرعية وهى كما يقول : « قلم الزراعة ، وقلم المصلح ، وقلم الانجرارية ، وقلم القضاء » ثم عاد وقسم الأعمال الهندسية الى خمسة تفاتيش تتبع وكيل الوزارة ، وعلى كل تفتيش مفتش يشرف عليه ويديره ويقول : « وانتشر المهندسون فى جميع انحاء القطر لمعاينة ما به من مبان وترع وقناطر وغيرها فحرروا الدفاتر بالموجود من ذلك ،

وما يلزم تجديده أو رمه فى كل مديرية » وأخذ فى التنفيذ مقدما « الأهم على المهم » وجعل التنفيذ على عدة سنوات وفقا لحجم العمل وحاجته من الانفاق .

ويتحدث عما أنجزه من أعمال فيقول : « وجـــددت جملة من المبانى والقناطر النافعة منها بمديرية الشرقية قنطرة الزوامل على الترعة الاسماعيلية ، وقنطرة الشرقاوية على النيل والبولاقية وقنطرة أشمون وقنطرة كفر الحمـــــام ، وهويسات الاسماعيلية ورصيف العريش وبلغت تكاليف ذلك كله حوالى اثنين وثلاثين الف جنيـــه » .

وجعل الاشراف على أعمــــال الرى للمهندســـين ، فحـــددوا مواعيد معينة لفتح القناطر واغلاقها وفقا للحاجة ومنع « ما كان يحصل من الفتح والسد على حسب الأغراض الخاصة » ووضع لائحة لآلات رفع المياه تنظم استعمالها فقد « ترتب على كثرتها حرمان كثير من الأهالى من الانتفاع بمياه تلك الترع ، سيما مع استحواذ أصحاب النفوذ على ترع لوابوراتهم ، اما لسقى زروعهم أو لبيع الماء لزرع غيرهم ، وكثر التشكى من ذلك » فانتظم الرى — كما يقول — « وبلغ مقـــدار الماء بمديرية القليوبية فى أعظم التحاريق نحو ثمانمائة ألف متر مكعب فى اليوم والليلة » منها ستمائة ألف متر مكعب من الترع وحدها ، « وفى مديرية الشرقية نحو ثلاثة ملايين ونصف ، وفى الدقهلية نحو أربعة ملايين ، وفى الغربية والمنوفية نحو ثمانية ملايين » وطهرت الترع والخلجان « بطريقة لا تمنع من سقى المزروعات ، بأن منع سد أفواه الترع عند التطهير » والابتداء من نهاية كل ترعة بدلا من أولها ، على مراحل فى كل مرحلة يطهر جزء فما يليه حتى البداية ، وحولت ترع الوجه البحرى من النيلى الى الصيفى ، فأصبحت الأرض تزرع زراعة صيفية ، وأقيمت الجسور وحفرت الترع فى الوجه

القبلى لرى الجزائر وأعالى الحيضان وأصلح نظام الرى بالفيوم بعد أن أفسدته « أحداث الجفلك » وحول اليها ما يلزمها من مياه الابراهمية ، فقل بها « استعمال السواقى » وزرع من أرضها خمسة عشر ألف فدان زراعة صيفية ، ولتعويض ما نقص الأرض من طمى النيل فى مديرية المنيا بعد أن تحولت الى ترعة الابراهيمية ، استغل مياهها ـ بعد أن كانت قاصرة على رى أراضى الدائرة السنية ـ ومياه اليوسفى فى « ملء الحيضان » فتمكنت من زراعة ثلاثة آلاف فدان من القصب ولم يكن يزرع فى غير أراضى الدائرة السنية وتمت زراعة الذرة « أضعاف ما كانت عليه » وكانت أعمال المبانى والتنظيم مما يخص وزارة الأشغال فلقيت من اهتمامه هى الأخرى ما لقيته أعمال الرى ويقول : « وأجريت عمارات فى المحافظات والمديريات صرف عليها نحو ٥٠ ألف جنيه ، وصار الابتداء فى بناء سلخانة القاهرة ، واسبتالية القصر العينى ومدرسة الطب » واتفق مع شركة المياه على مد حلوان بماء الأنابيب ، كما اتفق مع شركة النور على زيادة « فوانيس الغاز » بالقاهرة ، وزود طريقى الجيزة والجزيرة بالماء « للرش وسقى الأشجار » وعبد طريق شبرا ، وأقام بنهايته ـ كما يقول ـ رصيفا « طوله نحو مائتين وخمسين مترا ، وجدد بالقاهرة ميادين وفساق ، وأنشئت جنينة الانتكخانة ببولاق وبنى بالأسكندرية سراى البوستة » .

واستأنف عمله وجهوده فى وزارة الأشغال ، وقد عين وزيرا لها فى وزارة شريف الرابعة ، بعد الاحتلال ، فمد ترعة الابراهيمية لرى أراضى بنى سويف ، وتم تطهيرها وتطهير ترعة الاسماعيلية وبحر مويس ، « والشرقاوية والمنصورية ورياح الوسط ورياح المنوفية والغربية » لزيادة حصيلتها من مياه الرى ، واستخدمت الكراكات فى تطهيرها ، فخفت السخرة « عن كاهل الأهالى » .

« والى ذلك الوقت لم يكن بالمديريات محلات كافية لدواوين الادارة والقضاء والضبط ، ونحو ذلك ، وكان الموجود منها مبنيا بالطوب النيىء أو الدبش على غير نظام ، وكانت الحبوس حواصل مظلمة لا يدخلها النور الا قليلا ، وكان أصحاب الجرائم على اختلاف جرائمهم يخزنون فيها كالأمتعة وداخلها يختنق بمجرد استنشاق هوائها ... فعمل ديوان الأشغال التصميمات اللازمة وشرع فى بنائها على التدريج فبدأ بديوانى الشرقية والمنوفية ، وكذا لم يكن بالمديريات اسبتاليات داعية الى الصحة ، بل كان بعضها محل ورشة ونحوها ، واكثرها متهدم والسليم منها كمربط البهائم ، فعملت تصميمات لتلك الأعمال على حسب أهمية كل مديرية بالكبر أو الصغر ، وتدرجت الأعمال على السنين ، فعملت اسبتاليتا المنصورة والغربية فى تلك السنة ، وكذا الذبح كان فى الفضاء وجاريا على غير قانون ومنافع الحكومة منه قليلة ، فبنى مذبح المنصورة والغربية ، وجعلت تلك المبانى انموذجا لما يبنى فى سائر المديريات ، وبنيت جملة شون للمصالح وقراقولات العساكر ، وغير ذلك مما لا يسع المقام شرحه » .

ويمضى على مبارك فى ذكر ما قام به فى وزارة الأشغال لتوفير مياه الرى للزراعة أيام التحاريق وعند هبوط الفيضان ، باقامة آلات رفع المياه الى الحد اللازم لثبات كمية المياه اللازمة للزراعة . مهما بلغ هبوط النيل ، « فيتوفر على الناس ما ينفقونه فى سبيل رفع الماء بالسواقى ... ويتمتع الأهالى بالزراعة الصيفية ... وتحويل جميع الترع النيلية الداخلية الى صيفية بدون اجراء حفر بحيث يتيسر استخدامها للزراعة الصيفية وبالجملة فبجلب المياه الى الترع بواسطة الآلات الرافعة يصير مقدار تصرفها كافيا كافلا لاحتياجات الأراضى ، اذ لا توجد أرض الا وريها مرتب على ترع نيلية أو صيفية » .

وكان هذا آخر ما قام به على مبارك من جهد فى سبيل البلاد ، اذ كان عمله فى وزارة المعــارف بعد أن تولاها فى وزارة رياض عام ١٨٨٨ ضئيلا ، فعلى قدر ما عنيت سياسة الاحتلال بالزراعة والرى ، بقدر ما أهملت التعليم ، فكان عمله فى وزارة الأشغال على عهد الاحتلال أثمر منه فى وزارة المعارف وان بقى أبو التعليم حفيا بالتعليم والمعلمين .

أبو التعليم

لم يكن معلما ، ولم يعد نفسه ليكون معلما ، وسواء أعد نفسه ليكون مهندسا أو اختير لهذه الدراسة بين من اختيروا لها « من نجباء مدرسة أبى زعبل » فما نعتقد انه كان يختار لنفسه غير هذا فقد كان — كما يقول — أول فرقته فى الهندسة والحساب ، وكان أستاذه فيهما « ابراهيم بك رأفت » يضرب بنجابته المثل ، وكان هو نفسه يتخذه مثلا على ما يمكن أن يؤديه المعلم النابه لتلاميذه وكان يقول « وان سوء تعليم المعلمين هو السبب فى تأخر التلامذة » ولكنه كان بطبعه معلما وكان له من تجربته فى مدرسة قصر العينى من الأثر ما ظل عالقا بخاطره حتى قدر له أن يقوم على التنظيم الجديد للمدارس فى عهد عباس ، فكان ما علق بخاطره من صورة الماضى حافزا له على ما أراده للتعليم من اصلاح وهاديا له فى تقويم طرقه ووسائله من معاملة التلميذ فى المدرسة الى اعداد المعلم الذى يقوم على تربيته .

وقد رأينا كيف حمله العناء فى مدرسة قصر العينى على التفكير فى الهرب ، وهجر الدراسة وكيف عمل بعد أن ولى أمر المدارس على كف هذا العناء عن التلاميذ ، فكان ما قام به للنهوض بالتعليم من واقع تجربته الذاتية وهى تجربة عقل مستنير ملهم لا يقدر عليها الا من كانت له أصالة على مبارك وذكاؤه الفريد وتفكيره الفذ ونظرته الواقعية الشاملة ، فلم يستلهم الكتب والنظريات قدر ما استلهم الواقع الملموس ، ولم تفتنه نظم التعليم فى الغرب ، وقد

عرفها دون شك خلال بعثته فى فرنسا ، الا بقدر ما تتكيف وتتلاءم مع البيئة المصرية وحاجياتها الأساسية فكان نجاحه فى ميدان التربية والتعليم وكانت مأثرة حياته التى خلدته أكثر مما خلده عمله كمهندس ، وكان بحق أبا التعليم فى مصر لايطاوله حتى اليوم مصلح آخر فى هذا الميدان ، على كثرة ما حفل به تاريخ التعليم فى مصر من تغيير غلبته النزوة أكثر مما حكمته الأصالة وان لم تعوزه النوايا الطيبة فى الحالين بقدر ما أعوزته أصالة على مبارك وفكره المتسق المبدع ، فحين أخذ غيره بالتقنين الغربى للتعليم وجعل يستوحى النظم والنظريات الغربية على جلالها وأصالتها دون تطويرها بما يلائم البيئة المصرية وحاجياتها الأساسية وقدرتها على الاتساق ، كان على مبارك يطوع هذه النظريات التربوية من واقع تجربته الذاتية لتتلاءم مع البيئة ، وكان يطور النظم الى أقصى حد من البساطة لتصل الخدمات التعليمية الى أقصى ما تستطيع أن تقوم به قدرة الدولة من الانفاق ، وكانت قدرته تتمثل فى توجيه الأنفاق الى الخدمات التعليمية ذاتها دون ما يحيط بها من مظاهر وكماليات قد تستوعب أكثر بنود الانفاق ، ففى الوقت الذى عجز فيه لامبيربك وعجز زميلاه على ابراهيم وحماد عبد العاطى عن تصور امكان قيام نظام تعليمى فى حدود الميزانية التى أرادها عباس للتعليم ، استطاع هو أن يقيم هذا النظام التعليمى ، وينقذ البقية الباقية من المدارس من مصير ما كان عباس يتورع عنه لو رأى فيه ما يرهق ميزانيته كما قدر على مبارك حين خفضها الى الحد الذى أرضى « عباس » .

وحين زوده العناء الذى لقيه فى مراحل تعليمه بالأسلوب الصالح للتعليم فقد زوده ما حققه من نجاح فى حياته بالايمان مما يحققه التعليم للمصريين من تقدم ، فكان دأبه على نشر التعليم والخروج به من الاطار الضيق الذى أراده له محمد على الى

الاطار الشعبى الفسيح « ولقد عمل على مبارك ــ كما يقول نجيب هاشم ــ أعمالا كثيرة تتصل بتخصصه فى الهندسة من تصميم الشوارع وفتحها . وانشاء ترع وبناء جسور واستحكامات ومساجد وغير ذلك من أعمال هندسية عظيمة ولكن سر عظمته لم يكن فى ذلك كله ، انما كان سر عظمته فى شىء لم يتعلمه عن استاذ ذلك هو اصلاحه للتعليم فى مصر بالوسائل المختلفة حتى ليعد عمله فى ذلك دعامة النهضة التعليمية فى مصر » .

« لم يتعلم فى مصر ولا فى فرنسا علوم التربية والنفس على أساتذة مختصين ، وانما تعلمها من حسن استعداده وصدق نظره ، ومن دروس فى التربية الفاسدة تلقاها فى الكتاب حين يضرب ، وفى مدرسة قصر العينى حين يعذب ، ومدرسة أبى زعبل حين يلقى عليه الدرس فلا يفهم هذا الى طبيعة خيرة توحى اليه بالرحمة بالناس والاشفاق عليهم والألم لجهلهم » (١) .

وما قصد على مبارك أن يكون معلما ، وما أعد نفسه للاشراف على شئون التعليم أو ادارته ولكن حين اختاره عباس لادارة المدارس وتنفيذ المشروع الذى تقدم به ، فقد وافق ذلك هواه ورأى نفسه أقدر على القيام به من غيره فقد كان يعرف حاجة قومه الى التعلم وان التعليم مرقاتهم الى النهوض والتقدم ، واذا كانت المدرسة احدى سبل التعلم فليست فى الحقيقة الا وسيلة للتعليم أما التعلم فهو قرين التربية والتنشئة مما يعسر على المدرسة وحدها ، مالم تتكاتف معها البيئة ويتآلف معها المجتمع حتى يصبح التعلم غاية التعليم ، ويغدو امتصاصا للقيم والسلوك والفكر الرفيع وتقديرا للعقل واعلاء للتفكير العلمى واعدادا للحياة الطيبة

---

(١) من خطاب الأستاذ نجيب هاشم وزير التربية والتعليم التنفيذى فى حفل ازاحة الستار عن تمثال على مبارك بمدرسة دكرنس الثانوية فى ٨ مايو ١٩٦٠ .

الكريمة لا اكتسابا للمعلومات والمعارف المدرسية فحسب ، ولن يكف التعلم وحده للتقدم والارتقاء ، بل يجب أن يكون وسيلة لشحذ العقل وصقله حتى يغدو قادرا على النظرة الصائبة للأشياء والتقدير السليم للظروف والملابسات القائمة .

ولن تصبح المدرسة أداة للتعلم مالم يعد لها المعلم الصالح ، ولن تثمر رسالة المدرسة مالم تتواءم مع البيئة وتصدر عنها فتكون البيئة حافزا للمدرسة على أداء رسالتها وتكون المدرسة مرقاة البيئة للتقدم ووسيلتها الى التغيير المنشود .

فاذا أعددنا المدرسة للتبشير برسالة المجتمع ، فان علينا أن نعد المجتمع للتكيف مع رسالة المدرسة والنهوض بها وحتى يتسنى لنا ذلك فعلينا أن نزود المجتمع بالمدرسة الصالحة .

وكان هذا ما اهتداه على مبارك فى نظرته للتعليم والعمل على اصلاحه ، وكان هو نفسه مثالا رائعا للمعلم القادر حين تصدى لمحو أمية الجنود ، ولم يستنكر – كما قدمنا – تفاهة هذا العمل كما رآه أدهم باشا وقال له : « كيف لا أرغب انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم » . ويقوم على تعليمهم بأبسط ما يملك من وسائل ، لا يذكر أنه كان من قبل ناظرا للمدارس على عهد عباس أو أنه تقلب فى أعمال أعلا من هذا العمل وأكبر .

ولكنه لم يكن من الدعاة الذين يتبنون فكرة ويتحمسون فى الدعوة لها بل لعله لم يتصد لحركة أو لرأى معارضا أو مؤيدا ، ولكنه كان أداة فذة لصقل وتنفيذ الأفكار العليا ، أو بمعنى آخر الأفكار التى يراها تتواءم مع ارادة الدولة ورغبة الحاكم حين يكون له سلطة التنفيذ ولم يكن أعظم ما نسب اليه وارتبط بذكره وهو اصلاح التعليم والنهوض به من تفكيره وحده ، فقد سبقه اليه ابراهيم أدهم مدير ديوان المدارس فى أواخر أيام محمد على

حين تقدم بمشروع مكاتب الملة لنشر التعليم الشعبى وهم بتنفيذه على عهد ابراهيم القصير ، وعاد اليه مع رفاعة الطهطاوى فى أوائل حكم سعيد ، ووضعه رفاعة فى الصورة التى تفى على حد تعبيره « بتربية الأهلية وادخال المعارف فى أفراد مراتب الرعية على اختلاف درجاتهم ، والتسوية بين الأعيان والرعاع فى مادة التعليم الأهلى » . ولقيت الفكرة تأييد الأهالى وترحيبهم فما لبثوا أن رفعوا العرائض يشكرون فيها الحكومة على ما انتوته من تعليم « أبنائهم فى هذه المكاتب بالطوع والاختيار والمبيت عند أهاليهم ولا مانع من أخذ الانسان ولده متى أحب واختار » (١) . كما سبق اليه مجلس شورى النـــواب فى دور انعقاده الأول عام ١٨٦٦ باقتراحه تعميم التعليم بين طبقات الأمة كافة ، فكانت لائحة رجب التى قام على اعدادها ، تنظيما رائعا لهذه الاتجاهات وخطة عملية لتنفيذها .

فليس لعلى مبارك فضل الدعوة الى تعميم التعليم الشعبى ، وان كان دون شك من المؤمنين به ، ولكن الفضل له وحده فى وضع هذه اللائحة ، أو على الأقل فى وضع خطوطها الرئيسية والانتقال بها من حيز الفكر الى حيز العمل فقد أصبح له بحكم منصبه كمدير لديوان المدارس الهيمنة على التعليم والاشراف على تنفيذ اللائحة الجديدة .

وقد نسب اليه بعض مؤرخيه أو جلهم أنه صاحب اليـــد الطولى على التعليم ، وانه هو الذى أقال عثرته ونهض به من كبوته وعمل على نشره بين الكافة ، والواقع انه هو الذى نظم ونفذ فتمثل نظامه التعليمى ارادة عصره .

---

(١) محفظة ٦ (معية تركى) رقم ١٤٤ من طلعت باشا الى المعية فى ١٣ جمادى الأولى ١٢٧١ مرفقات عربية .

ولا يصح لنا أن نغفل فى هذه الدراسة ارادة الحاكم الفرد التى ترجع اليها مصائر الأمور ، هذه الارادة التى لم تثمر معها حظوة أدهم لدى عباس ، ولا محاولة أدهم ورفاعة بعث مشروع مكاتب الملة وتنفيذه على يد سعيد ، وقد انتهى التعليم على يد عباس تلك النهاية التى عرفنا ولم يكن على يد سعيد خيرا مما كان على يد سلفه ، فلم يبق من المدارس فى أواخر أيامه سوى مدرستين : هما المدرسة الحربية بالقلعة السعيدية ، ومدرسة الطب بالقاهرة ومدرسة ابتدائية وأخرى تجهيزية .

فاذا لقى التعليم خيرا على يد اسماعيل فقد كان ذلك بعض ارادة الحاكم الفرد الذى يمنح ويمنع ، فاذا لقيت هذه الارادة من يقوم على ما تمنح فيوجهها أحسن توجيه لتثمر على يديه أحسن الثمر فليس الفضل لارادة الحاكم الفرد وحدها ، وليس الفضل لمن يقوم على تنفيذها وحده ، وقد لا يرى التاريخ لأيهما فضلا الا بقدر ما يثمر اجتماع ارادتيهما من عمل وما يترك من أثر تاريخى .

وقد أبدى اسماعيل اهتماما بالتعليم لم يكن لسلفيه ، وكان الى حد ما متباينا مع اهتمام جده ، فحين أراد جده بافتتاح المدارس أن يغذى جهازه الادارى والفنى بحاجته من الرجـــال القادرين ، لم يكن اسماعيل يبغى أكثر من أن يضفى على دولته بهاء الدول المتقدمة حتى يقال عنه حاكم عصرى متمدين ، الا أن الزمن كان غير الزمن ، وكانت التربة غير التربة ، فحيث وقف المصريون فى حذر من هذه النظم الجديدة التى طالعهم بها محمد على غدوا أكثر تمرسا بها من بعده وحيث وقفوا فى وجل من امتداد الموجة الغربية الى بلادهم لم يعودوا ، بعد ستين سنة من جلاء الفرنسيين عنها يتهيبونها ، فقد نفضت مصر عزلتها وأخـــذت تتصل بالغرب اتصالا لينا لم تبد فيه بعد مظاهر العنف الذى

انتهى اليه فى أواخـــر عهد اسماعيل ، وكانت الطبقة المصرية الصميمة قد بدأت تتكون وأخذت تسفر عن ذاتها فى أول اجتماع لمجلس شورى النواب عام ١٨٦٦ حيث قام « أتربى بك أبو العز » أحد نواب الغربية يقترح تعميم التعليم الشعبى بانشاء مدرسة ابتدائية فى كل مديرية ولقى الاقتراح تأييـــد النواب مما حمل اسماعيل ـ كما نعتقد ـ الى وقف أطيان تفتيش الوادى على المدارس ، وأعلن شريف باشا باسم الحـــكومة هذا الأمر على النواب .

وكان اسماعيل منذ توليته قد أخذ فى احياء المدارس القديمة وانشاء غيرها على غير سياسة مرسومة حتى كان اقتراح أتربى أبو العز فكان بداية التفكير فى وضع سياسة مرسومة للتعليم هى التى قام بها على مبارك وهى التى قرنت اسمه بالنهضة التعليمية واستحق من أجلها أن يلقب « بأبى التعليم » .

فلم يكن على مبارك اذن رائد هذه النهضة التعليمية التى تنسب اليه ولم يكن من الداعين اليهـــا ، وانما هو الذى قام بصنعها ووضع خطتها واضطلع بتنفيذها فى أحسن صورة وعلى أكمل وجه حتى غدا صاحب اليد الطولى عـــلى نهضة التعليم فما كان لارادة اسماعيل ولا لمطالب النواب أن تثمر هذه النهضة مالم يكن وراءها عقل مبدع خلاق هو عقل على مبارك ، وما كان لعلى مبارك أن ينشىء هذا النظام التعليمى مالم تدفعه ارادة الدولة واتجاه العصر ، فبالرغم مما كان يملك من قدرة عـــلى الخلق والابداع والعمل المثمر ، ما كان يستطيع أن يعمل فى الميدان العام الا فى اطار الدولة ، ولعله لم يكن يؤمن بقدرة الجماهير على الانشاء والتغيير ما دامت لا تملك السلطة القادرة المنفذة وما دامت ارادتها معلقة بارادة الفرد ، الحاكم الذى يملك وحـده السلطة القادرة عليها . ولقد رأى ما كان من عباس وما كان من سعيد من نظرة

ذاتية يحكمان بها على الأشياء وينفذان منها ما يوافق هواهما ، ولعله كان يرى أن اسماعيل بدوره لا يصدر الا عن هذه النظرة الذاتية للحاكم المستبد ، وما دامت الأمور معلقة بارادة الحاكم فان كل تغيير لا يتم الا بارادته ، فاذا جاءت ارادة الحاكم متفقة مع ارادة عصره ، ولو من قبيل الزهو ، فان قدرة رجل الدولة أن يستثمر زهو الحاكم فى عمل نافع يعود على الدولة أو على الأمة بالخير ويزدهى به الحاكم فى الوقت ذاته .

وجاء عمل على مبارك فى الميدان التعليمى متفقا مع ارادة الحاكم الذى أخذ باحياء المدارس القديمة وارادة العصر التى بدت فى الموافقة الاجماعية على اقتراح « أتربى أبو العز » وأكثر من هذا واهم منه أنه جاء متفقا مع نظرته الى التعليم ، فالتعليم كما يراه للشعب وليس لسد حاجة الدولة من الاداريين والفنيين ، ولن يصلح التعليم مالم تصلح المدرسة ويصلح المعلم ، ولن يثمر مالم يتكيف مع البيئة وتكون البيئة ذاتها حقلا صالحا لتقبل التعليم والحفاوة به ، بأن تكون على درجة من المعرفة والثقافة تحملها على تقديره والايمان به ، فلم تقف جهوده عند انشاء المدارس وتنظيمها بل عدتها الى الاهتمام بالمعلم واعداده بانشاء دار العلوم والاهتمام برفع المستوى البيئى للثقافة والمعرفة بانشاء دار الكتب وقاعة للمحاضرات العامة .

لائحة رجب ١٢٨٤ :

لم يكن على مبارك غريبا على التعليم حين اضطلع بأموره وصدرت الارادة الخديوية بتعيين « صاحب العزة المهندس على مبارك بك وكيلا عاما لديوان المدارس » لملاحظة المكاتب الأميرية والأهلية الموجودة فى مصر والبنادر وفى الأقاليم والاهتمام باصلاحها

ونظامها ، والاعتناء بحسن ادارتها » (١) فقد قام عليه من قبل على عهد عباس كما عرفنا ، ولا نقول أن خبرته بالتعليم هى التى حملته وحدها على التقدم بمشروعه لاصلاح التعليم ولكن اهتمامه الحقيقى بنشر التعليم بين أبناء الأمة هو الذى حمله على اقتحام هذا الميدان البعيد عن فنه وتخصصه ، فما أن أثار مجلس شورى النواب موضوع نشر التعليم الابتدائى حتى أعد مشروعا بتنظيمه اذ « كانت المكاتب الأهلية فى المدن والأرياف ــ كما يقول ــ جارية على العـــادة القديمة ليس فيها على قلة أهلها الا تعليم القرآن الشريف ، وأقل من القليل من يتمه منهم ، ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته مع رداءة الخط عامـــة فى المكاتب المذكورة ، فاستحسنت اجراءها على نسق المدارس المنتظمة فحررت لائحة بتنظيمها ، وترتيبها على الوجه الذى هى عليه ودعوت الى النظر فى هذا الترتيب جماعة من أعلام العلماء والأعيان النبهاء فنظروا فيه واستحسنوه ووضعوا خطوطهم عليه وصدر الأمر الخديوى بالاجراء على حسبه » وان كان من الثابت ــ وان أغفل ذكره ــ أن مجلس شورى النواب قد سبقه اليه كما سبقه ايضا ــ أدهم ورفاعة ، فلما تقدم بمشروعه كان مما نظره القومسيون المشكل لدراسة قرار مجلس شورى النواب أيضا ، مما يشير اليه الأمر الصادر الى نظارة الداخلية بضمها الى ديوان المدارس بأن « مقتضى ارادتنا أعمال جمعية بطرفكم للنظر فى شـــأن المكاتب المذكورة وترتيبها وتنظيمها وساير ما يلزم اجـــراؤه فى هذا الشـــأن مما يستلزم انتظام أولئك المكاتب تحت مراقبة مستحسنة وتبع ادارتهم لديوان المدارس مع النظر أيضا فى المدارس اللازم تأسيسها

---

(١) تقويم النيل ٢ • جـ ٣ ص ٧٢٢ •

بجهات الأقاليم كنص القرار (١) وما يتراءى للجمعية المذكورة فى هذا . وهذا يتقدم العرض عنه لدينا بصدور أمرنا هذا لكم بذلك ، ومرفوق طيه كشوفات تعداد مكاتب المحروسة المحكى عنهم عدد ٣ ثم ورسالة قدمها على مبارك بك تتعلق بهذا الخصوص حتى بعد معلومية حقيقة تلك الكشوفات والوقوف على حقيقة مقادير المكاتب التى بثغر اسكندرية وعقد الجمعية المحكى عنها والمداولة فيما سلف الذكر عنه مع ما تحتوى عليه الرسالة السالف ذكرها مما ينحط عليه الرأى تعرضوا لدينا تفصيله حسبما تعلقت به ارادتنا » (٢) .

وأصبح على القومسيون المشكل أن يدرس المشروعين معا .
وصدر القرار بتعيينه وكيلا لديوان المدارس فى ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٤ ، وأصبح لرأيه المكان الأعلى فى مناقشات القومسيون ، فاقترح أن يضم اليه بعض الأعيان ليستهدى برأيهم فى موضوع يتصل أشد الاتصال بحياة الناس ، ويكتمل له بهم نوع من التأييد الشعبى يراه لازما ما دام يبغى فرض رسوم على التعليم ودعوة الناس للتبرع له . وفى ١٠ رجب ١٢٨٤ (٧ نوفمبر ١٨٦٧) شكل ديوان المدارس برياسته ، وفى ٦ محرم ١٢٨٥ (٢٩ أبريل ١٨٦٨) صدر قرار القومسيون (بتنظيم المدارس والمكاتب الأهلية بالديار المصرية) وهو القرار المعروف بلائحة رجب ١٢٨٤ . واضطلع على مبارك بالتنفيذ .

وتشمل اللائحة مقدمة وخاتمة وأربعين مادة فى ثلاثة أقسام ، ويتضمن القسم الأول .. المواد المتعلقة « بمكاتب المدن

---

(١) المقصود قرار مجلس شورى النواب رقم ٢٦ شعبان سنة ١٢٨٣ بهذا الخصوص .

(٢) أمر كريم صادر للداخلية بتاريخ ١٧ محرم ١٢٨٤ هـ : تقويم النيل م ٢ ج ٣ ص ٧٠٠ .

الكبيرة » ، كما يتضمن القسم الثانى « تنظيم المكاتب الأولية بالقرى والبنادر » ، وأما القسم الثالث فيتناول « تنظيم المدارس المركزية التى تنشأ فى مراكز المديريات » .

وتحدد المقدمة مصادر الانفاق على التعليم ، فالمدارس والمكاتب القديمة من طرف أهل الخير على التعليمات ـ سواء كانت بالمحروسة أو بغيرها من البنادر تكون على ريع الوقف الذى له ايراد ، فاذا كان الوقف عديم الايراد وكانت فى محلات لها موقع عظيم وشهرة ورغبة فى اجتماع التلاميذ بها ، فان عمارتها تكون من الاحسانات الخديوية .... وأن ما يستدعى الحال لتجديده بقرى الأرياف من المكاتب الابتدائية فتكون تكاليف بنائه وتعميره على طرف القرى والنواحى المنشأ فيها .... وكذلك المدارس الأهلية التى بمنزلة التجهيزية المتجددة فى مراكز المديريات فتكون تكاليف بنائها على طرف الجهة التابعة لها ، هـذا ما يخص البناء ، وأما ما يخص المفروشات .. والأدوات كلها فى مكاتب القرى ومدارس ومراكز المديريات فيكون على طرف أهالى التلاميذ .... وأما أشخاص مكاتب القرى الذين هم عبارة عن المؤدبين والعرفاء فيترتب لهم من طرف أهالى المتعلمين شيئا على قدر معاشهم بدون اتكالهم على الأشياء الهينة كالأخمسة التى لا تقوم بمعاشهم (١) . وأما أشخاص المدارس المركزية فيكونون على طرف الميرى ، بخلاف

---

(١) يرجع تاريخ المكتب الى عهد بعيد ، فهو المدرسة الأولى على ما نظن فى تاريخ البشرية حيث يجتمع الأطفال الى معلم يتلقون عليه تعليمهم الأول ، وكان المكتب أو الكتاب وسيلة التعليم الوحيدة طوال العهد العثمانى فى مصر ، ومنها ما كان على وقف خيرى ومنها الخاص الذى يديره فقيه يناديه الأطفال بلقب « سيدنا » ويتقاضى سيدنا عن تعليم الأطفال جعلا من الحبوب أو الأطعمة الجافة أو المـال يؤدى له كل يوم خميس فعرفت بالخميس وجمعهـا على مبـارك على أخمسة .

المأكولات والمشروبات والأدوات تكون على طرف أهالى المتعلمين وتحتم اللائحة أن تكون « جميع المدارس والمكاتب سواء بالقرى أو البنادر تحت أصول تنظيمية وترتيبات حسنة منتخبة وامتحانات سنوية وملاحظات وتفتيشات من طرف الحكومة ، وهذا لتحسين حالهم واستقبالهم ومنفعتهم الخصوصية العائدة اليهم مع المنفعة العمومية على الحكومة من تهذيب رعاياها واصلاح حالهم ووجود التعاون بينهم ، ومعاونتهم لأوطانهم » .

وأباحت اللائحة هبات الأهالى للتعليم و « كل من تبرع بشيء للاعانة على ذلك فهو مقبول » على « أن يجرى حصره في دفتر بالمديرية والمحافظة ، ويتقدم هذا الدفتر لعموم .. المدارس » . وقد أحصيت المكاتب فى المحروسة وبولاق ومصر القديمة فبلغ عددها ٢٢٢ مكتبا منها الكبير وعددها ثمانية ، ويقرب عدد الأولاد فى الواحد منها من المائة ، ومنها « الوسط والصغير الذى يختلف عدد أطفالهم (١) من خمســـــة أولاد الى اربعين أو خمســـين » وهى اما وقف ونظارتها تابعة للميرى ، أو انها وقف ونظارتها تابعة لغير الميرى ، وأما أهلية لا وقف لها ولا تخرج المكاتب الأخرى فى المدن الكبيرة والثغور « عن الثلاثة الأنواع السابقة » الا أن منها ما هو خرب مستعمل ، أو صالح مهجور أو ملائم للصحة أو لا يتفق مع الشروط الصحية ، فقررت اللائحة أن تكون جميعا على نمط يتفق والشروط الصحية ، فألغت ما كان منها « فى دكان أو حاصل أو يماثل ذلك وتكون مضرة بالصحة » على أن ينقل أطفالها الى المكاتب الأخرى تبعا لرغبة أهاليهم .

ويتعلم الاطفال فى المكاتب الكبيـرة التى يزيد عـدد تلاميذها على السبعين الخط والحساب مع تطبيقه على التجارة والصرف

(١) هكذا فى الأصل .

والتاريخ والجغرافيا ، ولغة أجنبية وبعض الكتب الأدبية ، أما المكاتب الصغيرة فيكتفى فيها بتعليم القرآن الكريم والكتابة والقراءة « ومن الحساب باب العدية » وللتلميذ الحق فى الانتقال من مكتب صغير الى مكتب كبير بغير امتحان ، فاذا كان يريد الالتحاق بمدرسة أميرية فعليه أن يجتاز امتحانا لذلك .

وأما « الكتب اللازمة لتعليم الأطفال فهى كتاب القرآن الشريف وكتاب ألف باء ، وكتاب آداب وكتاب حساب وهندسة وكتاب جغرافيا وتاريخ وتطبع جميعا على طرف الميرى ،وتصرف من ديوان المدارس حسب اللزوم ، وتعطى لمن يلزم لهم من الأطفال بالثمن ، وتتحصل أثمانها بمعرفة المؤدبين لخزانة ديوان المدارس » .

وتنص اللائحة على انشاء « أربع مدارس مركزية فى بنادر المديريات البحرية بالتدريج حسب الامكان : الأولى بطنطا لزوم مديرية الروضة والبحيرة ، والثانية ببندر الزقازيق للشرقية وللبلاد القريبة للزقازيق من القليوبية والدقهلية ، والثالثة ببندر المنصورة لزوم الدقهلية والبلاد المجاورة من الروضة والشرقية ، والرابعة بالجيزة لزوم مديرية الجيزة وما جاورها من القليوبية والروضة » وهذا عدا ما هو قائم منها فى الأسكندرية والقاهرة ، كما تنشأ أربع مدارس فى بنى سويف والمنيا وأسيوط وقنا من الوجه القبلى .

ويقوم الأهالى بتكاليف بناء هذه المدارس وتزويدها بالأدوات فى مديرياتهم أما « مفروشات محل نوم التلامذة وأدوات تعليمهم ومأكلهم وملابسهم فانها تتحصل من الهدايا الخيرية ، من أطيان الوقف الخيرية الخديوية ومن ريع الأوقاف الآيلة لمدارس المديريات ... فاذا لم يف ما ذكر لتكميل المصروفات فالباقى يجرى تأديته من أهالى المديريات كل منها بالنسبة للتلامذة الواردة منها » .

ويتراوح عدد تلاميذ المدرسة ما بين مائتين الى ثلثمائة ، يقيمون بالقسم الداخلى ويسمح لعدد من التلاميذ فى حدود ٢٠٪ بالالتحاق بالمدرسة ، زيادة على العدد المقرر على أن يكونوا «برسم خارجية» اى لا يقيموا بالقسم الداخلى .

وبرنامج الدراسة فى المدارس المركزية ، وفقا لما رسمته اللائحة هو :

أولا – اللغة العربية من نحو وصرف ومطالعة وانشاء وعقايد التوحيد وواجبات العبادة والأدب .

ثانيا – لغة افرنكية تركية أو غيرها بقراءة كتبها المختصرة .

ثالثا – مبادىء جغرافيا وتاريخ .

رابعا – اصول الحساب وتطبيقه على التجارة ومبادىء الهندسة وتطبيقها على المساحة .

خامسا – نبذة فيما يتعلق بالحيوانات والنباتات الأهلية ومقدمة لفن الزراعة .

سادسا – تعليم الخط والثلث والنسخ والرقعة والرسم .

وتقوم لجنة بديوان المدارس باختيار الكتب المقررة مما هو موجود أو ما يرى تأليفه .

وحددت اللائحة الزي المدرسى لتلاميذ المدارس المركزية «فمن المعلوم أن حسن نظام المدرسة يقتضى أن يكون تلامذتها على هيئة واحدة

مخصوصة بها ، فلهـذا استحسن أن يكون (١) جميع المدارس المركزية على نسق واحد بطقم مخصوص » (٢) .

والخاتمة تعريف بأغراض التعليم وتوجيه للمعلمين ، تتمثل فيها روح على مبارك وطريقته فى التعليم ، وكأنه علم من أعلام التربية الحديثة ، ولم تكن غير تجربة حياته التى هدته الى وسائل التربية الصحيحة ، كما هدته الى الغرض الحقيقى من التعليم ، فالتربية كما هدته اليها فطرته وكما يعرفها فى الخاتمة هى « اكتسـاب الأدب وحسن السلوك » والغرض من التعليم هو « حصول أبناء هذا القطر على ما يوجب اصلاح شأنهم وشأن أهاليهم ليفوزالوطن بثمرة التقدم لأبنائه جميعا ... واتساع دائرة المعارف » ويرشد المعلمين الى الطريقة الواجبة لتحقيق ذلك فيقول أن عليهم « أن يبذلوا غاية جهدهم فى تلقين ما يلزم اكتسابه فى المدارس والمكاتب الاولية للأطفال بالطرق البسيطة الحسنة الموافقة لحداثة سنهم ، بحيث لا يستعملون فى تربيتهم الا ما تقوى به حواسهم وقواهم

---

(١) يلاحظ ما فى النص الأصلى من أخطاء لغوية مما يعطى صورة من تطور كتابة الدواوين .

(٢) وحتى تتكون لدينا صورة عن تطور الزى المدرسى والأزياء عامة ننقل فيما يلى ما قررته اللائحة لكل تلميذ :

عدد		عدد	
٣	قميص	٢	طربوش
٣	لباس	١	زر حرير
٣	صديرى غزلية او غيرها	٣	طاقية
٣	جلابية ملونة شكل واحد مسدودة الصدر بياقة	١	كبود للشتاء على سنتين
٤	شراب أبيض	٢	مركوب جزمة بلدى
٣	دكك	١	سبتة حـزام من جلد بأبزيم او كمر

العقلية ، ويتجنبون فى التربية الأمور المورثة لشراسة الأخلاق مثل السب والضرب ، وما أشبهه مما يوجب الجفاوة ، وأن يعاملوا الأطفال معاملة الأبناء لأنهم عوض عن آبائهم ، فبناء على ذلك ينبغى من الآن فصاعدا للمؤدبين أن يقتصروا فى التأديب على النصايح الحسنة للأولاد .. وتفهيمهم عواقب الأخلاق الحسنة ونتائجها العايدة عليهم بالاصلاح ليتعودوا عليها من زمن طفولتهم مع ملاحظة أطوارهم وحركاتهم فى داخل المكاتب ، فبهذا لا يحصل وقوع الأطفال فيما لا ينبغى ، ولا يحتاج الحال الى سب ولا ضرب كالسابق . وعند ترتيب المكاتب وادارتها على الوجه المشروع أعلاه يصير تنظيم لوايح من ديوان المدارس متعلقة بتهذيب الأخلاق والاجراءات اللازمة لذلك ليصير اتباعها حرفا بحرف فى هذه المكاتب . وبحسن التعليم والتربية واتباع اللوائح الخصوصية تتهذب أبناء الوطن .... وتتحسن أحوال الأهالى المصرية » .

وغدت اللائحة دستور التعليم فى السنوات التالية لا يطرأ على اجراءاتها تغيير يذكر ولا يعنى هذا أنها جمعت فأوعت ، أو أنها كانت مخططا للأجيال القادمة فانها فى الواقع قد لمست الأساس فى نواح كثيرة ، وأصلحت القائم حتى تتهيأ البلاد لخطوة أكثر تقدما ، الا أن الاضطراب المالى والسياسى فى أواخر عهد اسماعيل وأوائل عهد توفيق قد عاق خطى التقدم ، ثم كان الاحتلال البريطانى فاختط للتعليم خطة مؤسية لم تتخلص البلاد من وقرها الا بعد أن خفت يده عن كاهلها .

ولم يمر على صدور اللائحة غير نيف وعشر سنوات حتى بدت الحاجة الى خطوة أكثر تقدما للنهوض بالتعليم اذ رفع على باشا ابراهيم ناظر المعارف فى وزارة رياض الأولى عام ١٨٧٩ ، مذكرة الى مجلس النظار حدد فيها جوانب النقص فى نظام التعليم واقترح الوسائل لتنفيذها ، وشكل قومسيون المعارف لدراستها

فى مايو ١٨٨٠ فوضع تقريرا مفصلا لاصلاح التعليم والنهوض به ، نستطيع أن نعده استكمالا لنواحى النقص فى لائحة رجب وتطويرا للأساس الذى قامت عليه مما يتلاءم والتطور السريع للبلاد فى تلك الفترة وكان مما أشار به انشاء مجلس أعلى للمعارف يكون ناظر المعارف مسئولا عن تنفيذ مقترحاته ، وفى مارس ١٨٨١ صدر المرسوم بانشائه من أربعة وعشرين عضوا منهم على مبارك ناظر الأشغال حينذاك والشيخ محمد عبده ، محرر الوقائع المصرية . وجاء الاحتلال البريطانى فلم تر توصيات القومسيون النور وان بقى تقريره أساسا لكل دراسة لاصلاح التعليم فيما بعد .

دار العلوم :

لم تعرض لائحة رجب لاعداد المعلمين ، وان نصت على أن يكون تعيينهم « بمعرفة ديوان المدارس ، وتعطى لهم شهادة من الديوان المذكور ، وهذا يكون باتحاد الديوان المذكور مع من يلزم من العلماء وعمد الجهة » (١) . ويعنى هذا الا يعين الديوان معلما مالم يوافق على تعيينه أهل الرأى فى بلده ، ممن « يكون حسن الأخلاق والصفات وفيه أهلية لتعليم القرآن الشريف كما ينبغى ، وأن يكون له معرفة بأمور الدين القويم وأن يحسن الخط ويحسن باب العدية من الحساب » (٢) . وتعود اللائحة فتؤكد أن « يحسن — أى المؤدب — تجويد القرآن والخط وله معرفة بأمور الدين ، وأن يكون بيده شهادة تدل على رضاء أهل القرية عنه ، وأن يكون محكوما فى هذه الشهادة بلياقته للتعليم على هذا الوجه من أعيان الناحية وأهل العلم الموجودين بها

---

(١) البند السادس عشر من اللائحة .
(٢) البند السابع عشر .

أو بمجاورتها ، ويكون على ورقة الشهادة المذكورة تصديق ممن ينذب من طرف ديوان المدارس للتصديق على ذلك » (١) .

الا أن علـــى مبارك كان يحس حاجة المدارس الى المعلمين الصالحين فرأى « أن يصطفى عددا من طلبة المدارس المتقدمين أولى المقــــدرة فيخصص لكل منهم مائتان وخمسون قرشا .. فيستخدموا مساعدين لمدرسى المدارس ليكتسبوا قدرة عـــلى تدريس الرسم واللغات الأجنبية بالمدارس الملكية والأهلية ، ولكيلا يتأخروا عن دروســــهم يجب أن يمتحنوا آخر السنة فيجعل القادرون منهم على تدريس العلوم التى مر ذكرها معلمين ويخصص لهم المرتب المقرر لوظيفة التدريس فى تلك المدارس » (٢) .

ولا يختلف هذا الاجراء عما كان متبعا من قبــــل ، الا أنه لم يواجه المشكلة ، وبقيت الحاجة الى المعلمين المؤهلين قائمة ، ولم تجد الكتاتيب الأهلية العدد الكافى من المؤدبين الذين يعرفون « باب العدية من الحساب » ممــــا شغله واهمه فنزاه يقول « وحيث كان من أهم ما يلزم للمدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم أمعنت النظر فى هذا الأمر المهم واستحدثت مدرسة دار العلوم بعـــد استصدار الأمر بها وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون من الجامع الأزهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب فى العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا بهذه المدارس بعض الفنون المفقودة من الأزهر مثل الحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث وفقه على مذهب

(١) البند الثلاثون .

(٢) من مدير المدارس الى مهردار الخديو فى ٢٧ شوال ١٢٨٥ ـ محفظة ٤٤ (معية تركى) رقم ٣٠٨ .

أبى حنيفة النعمان ، وجعل لهم مرتب شهرى يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات ورتب لهم طعام فى النهار للغداء ، وجعل الصرف عليهم من طرف الأوقاف ، ورتب لهم من لزم من المعلمين من المشايخ والعلماء وغيرهم ليقوموا بأمر تعليمهم وتدريبهم حتى يتمكنوا من هذه الفنون فينتفعوا وينفعوا ويجعل منهم معلمون فى المكاتب الأهلية بالقاهرة وغيرها لتعليم العربية والخط ونحو ذلك ، فلما أشيع هذا الأمر وأعلن حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالأزهر يطلبون الانتظام فى هذا السلك فاختير منهم بالامتحان جماعة على قدر المطلوب ، وساروا فى التحصيل فحصلوا وأثمر ذلك المسعى وخرج منهم معلمون فى القاهرة وغيرها وحصل النفع بهم ولهم ، وأما المعلمون فى غير العربية كالهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك فتقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين الذين أتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة والادارة بأن يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمنا ثم يكونوا معلمين استقلالا بالمدارس والمكاتب كل على حسب استعداده » .

تلك هى رواية على مبارك عن انشاء دار العلوم ، المعهد العتيد الذى زود المدارس بصفوة من معلمى العربية أكثر من نصف قرن ، وما زال قائما يحمل الرسالة ككلية من كليات جامعة القاهرة ، وان كنا نود لو بقى محتفظا بشخصيته كمعهد لدراسة متخصصة يستمد طلبته من المعاهد الأزهرية فيكون موئلا للعربية ودراساتها المتشعبة على درجة أعلا من التخصص ويبقى منارا للعربية فى العالم العربى ، فلم تعد به حاجة الى اعداد معلم العربية ما دام يقوم بها غيره من معاهد المعلمين . فقد كان لهذا المعهد من الفضل على العربية وآدابها ما يفوق الرسالة التى قام من أجلها وتخطى حدودها بما خلف الأعلام الذين تخرجوا بين جدرانه من آثار يزدان بها الأدب العربى .

وقد بدأت الفكرة بانشاء قاعة للمحاضرات العامة تلحق

بالكتبخانة الخديوية وتتولى الأوقاف الانفاق عليها وعرفت باسم « مدرسة الكتبخانة » أو « محل التدريس » أو « دار العلوم » (١) أو « المدرج » أو « الانفتياتر » (٢) . واختير لها عدد من الأساتذة يحاضرون فى الأدب والتفسير والحديث والفقه والفلك والطبيعة والعمارة والسكك الحديدية والتاريخ والنبات . ويؤمها كل من شاء دون قيد أو شرط « من جميع أجناس الناس من أهل الوطن وغيرهم على أى هيئة أو صفة كانوا » .

ويبدو من طابعها أنها كانت لنشر الثقافة العامة ولعلها بعض ما كان ينشده على مبارك لتزويد الناس بالمعرفة وحثهم على التعلم ، فقد كان مما ينشده ، رفع المستوى البيئى للثقافة والمعرفة كما قلنا ، جريا على سنته فى نشر التعليم والمعرفة بين الناس حتى تخصب التربة للتعليم ويقوم بناؤه التعليمى على أساس من حب المعرفة .

ورأى ديوان المدارس ان يفيد من محاضرات العلوم العربية والشرعية فى اعداد معلمى اللغة العربية للمكاتب الأهلية ، فقرر أن يلحق عشرة من طلاب الأزهر ممن تتراوح أسنانهم بين الثلاثين والأربعين ، للاستماع اليها بجانب دراستهم الأصلية فى الأزهر ، فكانت تلك هى البداية فى انشاء دار العلوم .

وما ان انقضى عام حتى اخذ ديوان المدارس يعين هؤلاء الطلاب معلمين للغة العربية والقرآن فى المكاتب الأهلية ، ولكنه لاحظ « أن المشتغلين الآن بوظيفة التعليم فى اللغة العربية والتركية ليس

---

(١) عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر : عصر اسماعيل ص ٥٧٨ — ٥٧٩ .

(٢) الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٤٧ .

فيهم الكفاية بالنسبة لذلك » (١) . فاقترح اعداد دراسة خاصة « فى دار العلوم الملحقة بالكتبخانة العامرة » يختار لها « خمسين من نجباء الطلبة من سن العشرين الى الثلاثين يؤخذون بالامتحان ممن يرغبون لذلك ، ويوجد فيهم الأهلية واللياقة ويدرس لهم فى دار العلوم ما يلزم لتكميل معلوماتهم واستعدادهم لأداء وظيفة التعليم وحسن التربية على الوجه المطلوب والأسلوب المرغوب ويحضرون جميع الدروس التى تلقى اليهم ويربط لكل منهم مدة اقامته تحت التعليم ماية غرش شهرى من ضمن المتحصل للكتبخانة من الرسوم بديوان الأوقاف » فاذا عين أحدهم « بعد تمام تعليمه وظهور براعته بالامتحان تربط له الماهية اللازمة على حسب الوظيفة التى ينتخب اليها فان بهذه الواسطة يمكن الاستحصال على ما فيه الكفاية من المعلمين .. وبذلك يتقدم ويستقيم أمر العلم والتعليم » (٢) .

ولقى الاقتراح قبولا وصدر الأمر فى ٢ أغسطس ١٨٧٢ بتنفيذه على الصورة التى تقدم بها على مبارك وأعلنت فى الوقائع المصرية حتى يتقدم الى ديوان المكاتب الأهلية كل من يرى نفسه أهلا لذلك على « أن يكون حافظا للقرآن الشريف ومتن الفية بن مالك فى النحو وأن يكون قد حضر فى النحو لغاية شرح بن عقيل » اذا كان ممن يختارون اللغة العربية ، فاذا اختار اللغة التركية فان عليه أن يكون « عارفا بها حسن النطق بالعربية أيضا قادرا على التكلم والتفهيم بها » .

ووجد قسم اللغة العربية كفايته من طلاب الأزهر ، أما قسم

---

(١) من ديوان المدارس الى المعية السنية فى ٢٤ ج نمرة ٢٧ تحريرات : تقويم النيل م ٢ ج ٣ ص ١٠١٦

(٢) من الوثيقة السابقة .

اللغة التركية فلم يجد حاجته ممن تتوافر فيهم الشروط المطلوبة ، ومضت دار العلوم فى اعداد معلمى اللغة العربية للمدارس حتى وقتنا هذا ، وتواترت عليها ظروف وأحوال لم تغير من طابعها الذى عرفت به وعرف عنها حتى أصبحت كلية جامعية تتبع جامعة القاهرة .

الكتبخانة الخديوية (دار الكتب ١٨٧٠) :

ومن مآثره الباقية انشاء دار الكتب ، فقد كان ينشد التعليم للتعليم لينتفع الناس وينتفعوا على حد قوله ، ويعمل ــ كما قلنا ــ على رفع المستوى البيئى للثقافة ، فلا يقف جهده عند انشاء المدارس وتعميم التعليم الأولى ، بل يتعداه الى تيسير وسائل المعرفة للراغبين فيها ، فليس هناك ما هو « أنفع له ــ أى للوطن ــ وأجلب للخير والبركة اليه من تعليم أبنائه وبث المعارف والفنون النافعة فيهم ، حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا يدا واحدة فى نفعه وخدمته وايصاله الى غاية ما يمكن أن يصل اليه من الغبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك تزداد خيراته وبركاته عليهم وعلى نسلهم وعقبهم وخلفهم من بعدهم ، وهذا لا يكون الا بالعلم والمعرفة وحسن التربية ، فان الجاهل لا يحسن نفع نفسه فضلا عن نفع غيره ، لأنه لا يميز بين المنفعة والمضرة ولو عرف المنفعة لا يعرف الطرق الموصلة اليها » (١) .

اذن فقد كان يؤمن بأن التعليم مرقاة الوطن الى النهوض والتقدم وليست المدرسة وحدها سبيل التعليم ، فقد أعدت لتعليم الناشئة وما الكبار ، فى أمة حرمت طويلا من وسائل التعليم بأقل حاجة الى التعليم من الصغار ، ولتعليم الكبار وسائل تختلف عن

---

(١) من مقدمة علم الدين ص ٠٧.

وسائل تعليم الصغار ، عليه أن يزودهم بها وييسرها لهم ، وأنه ليرى لهذا « الوطن العزيز » دينا عليه « فقد نشأت فى ظله وتقلبت فى مهده وتربيت فى حجر كفالته ، حتى صرت من أبنائه المعدودين ورجاله المعروفين وتمتعت صغيرا وكبيرا بكثير من خيراته وثمراته ، ولا أزال متنعما بطيباته ، فأجدنى وان استوفيت الجهد وقضيت العمر فى خدمته ، لم أقم بعشر معشـــار ما على من واجباته وحقوقه » (١) .

وعلى كثرة ما أداه من خدمات لهذا « الوطن العزيز » لا يذكر منها « الا استكثار المكاتب والمدارس وتعميم التـــربية والتعليم ونشر الكتب المفيـــدة اما بالاشتغال فى تأليفها بنفسى ، أو الحث والتحريض عليها لمن أرى فيه اهلية القيام بها » .

فاذا كان قد استكثر من المكاتب والمدارس لتعليم الناشئة ، فقد أنشأ دار الكتب لنفع « الخاص والعام » (٢) وألحق بها قاعة للمحاضرات العامة « لكل من أراد أن يحضر من جميع اجناس الناس من أهل الوطن وغيرهم على أى هيئة أو صفة كانوا » واصـــدر مجلة « روضة المدارس » لاحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة ، ولم يكتف بذلك بل ولج ميدان الكتابة والتأليف ابتغاء خدمة « الوطن العزيز » — كما يقول — بنشر العلم والمعرفة .

وبدأت الخطوة الأولى فى انشاء دار الكتب — كما يروى على مبارك — باختيـــار « محل بجوار المدارس من داخـــل سراى درب الجماميز » — وهى السراى التى نقلت اليها المدارس كما نقل اليها ديوانى الأشغال والأوقاف ، حين كان يقوم بها جميعا — وكانت « محلا متسعا يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وادوات التعليم »

---

(١) من مقدمة علم الدين ص ٧.

(٢) الخطط جـ ٣ ص ١٤ .

وكانت الفكرة فى انشائها أن تكون « دار كتب جامعة عامة يرجع اليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما فى مدارس البلاد الأجنبية » .

ويرد الرافعى تلك الخطوة « الى عهد محمد على فقد أنشأ مستودعا لبيع مطبوعات الحكومة فى بيت المال القديم ، خلف المسجد الحسينى ، ولما ولى اسماعيل الحكم أضاف اليها نحو ألفى مجلد من المحفوظات العربية والفارسية ، ابتاعها من تركة حسن باشا المناسترلى ، ثم تطورت الفكرة الى انشاء دار عامة للكتب » (١) .

الا أن تفكير على مبارك — كما نرى — كان يتجه الى انشاء مكتبة « جامعة عامة يرجع اليها المعلمون للاستعانة على التعليم » واختار لها « محلا بجوار المدارس » ثم يقول « وقد كان الخديوى اسماعيل يرغب فى انشاء كتبخانة عمومية تجمع الكتب المتفرقة فى الجهات الميرية ، وجهات الأوقاف فى المساجد ونحوها ، وأمرنى بالنظر فى ذلك ، فوصفت له المحل الذى أنشىء فعين لمعاينته جماعة من الأمراء والعلماء ، فاستحسنوه ووجدوه فوق المرام ، فصدر الأمر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة فجمعت من كل جهة وجعل لها ناظر وخدمة ، وترتب لها معير من علماء الأزهر لمباشرة الكتب العربية وآخر لمباشرة الكتب التركية ، ونظمت لها لائحة صار نشرها يؤذن باباحة الانتفاع بها للطالبين وسهولة التناول للراغبين مع الصيانة لها وعدم التفريط فيها فجاءت بحمد الله من أنفع الانشاءات وأثنى عليها الخاص والعام من الأهلين والأغراب اذ تخلصت بها الكتب من أيدى الضياع وتطرق الأطماع ، فانها كانت تحت نظار أكثرهم يجهلون قيمتها ولا يحسنون التصرف فيها ، ولا يقومون بواجباتها ، بل أهملوها وتركوها فسطت عليها عوارض متنوعة أتلفت كثيرا منها حتى صار السالم من الضياع مخرما بعضه بأكل الأرض ،

---

(١) عصر اسماعيل : جـ ١ ص ٢٤٦ .

وبعضه بأكل الأرضة ، وزاد أن تصرفوا فى أجودها بالبيع للأغراب بثمن بخس وحرموا الأهلين من الانتفاع بها ، وبعضهم يحجرون عليه فلا يتمكن احد من النظر اليه فتخلصت من ذلك فضلا عن صونها من هذه العوارض ونظافتها ونظافة أماكنها وحسن ترتيبها كل فن على حدة ، وجعل بها محل للاطلاع على الكتب والمطالعة والمراجعة فيها والنسخ والنقل فيها ورتب فيه ما يلزم للكتابة من الأدوات بحيث يتيسر بهذا الموضع لكل من شاء غرضه من ذلك متى شاء ، وأمكن الاطلاع على خطوط الملوك والمؤلفين والعلماء والمتقدمين ومشاهير الخطاطين كابن مقلة وغيره مما كان يسمع به الانسان ولا يراه ، أو لا يسمع به ، واخذ بعد انشائها وافتتاحها فى تكميل الناقص من الكتب وتجديد شراء كل ما يستحسن وأمكن تحصيله مما ليس موجودا بها من الكتب ومشى على هذه الطريقة كل من رضيها ورأى اتمام الفائدة بها ممن تولوا على نظارة المدارس والأوقاف بين مكثر ومقل » .

وبهذا يرد على مبارك فكرة انشاء دار الكتب الى اسماعيل ، وأما ما فكر فيه فلا يعدو انشاء مكتبة عامة للمدارس ، حتى رغب اسماعيل « فى انشاء كتبخانة عمومية » الا أنه يروى فى مكان آخر (١) ما يفهم منه أنه صاحب الفكرة ومبدعها اذ يقول « ثم ظهر لى أن أجعل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية أضاهى بها كتبخانة مدينة باريز فاستأذنت الخديو اسماعيل باشا فى ذلك ، فأذن لى فشرعت فى بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضا (٢) وبعد فراغها جمعت فيها ما تشتت من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف زيادة

---

(١) الخطط جـ ٣ ص ١٤ ــ أما ما قبل ذلك فمن سيرته التى رواها فى الجزء التاسع ، وكل ما اقتبسناه على لسانه فمن هذه السيرة كما أشرنا من قبل .

(٢) أى بسراى مصطفى فاضل التى أصبحت مقرا للمدارس بعد نقلها من العباسية .

على ما صار مشتراه من الكتب العربية والفرنجية وغيرها .. » مما حمل الرافعى على الجزم بأن « صاحب الفكرة فى هذا المشروع الجليل هو على باشا مبارك ذاته » (١) .

ويبدو أن اللبس جاء من الخلط بين فكرة انشاء « كتبخانة » وبناء كتبخانة « تضاهى كتبخانة مدينة باريز » ، فقد فكر على مبارك فى انشاء مكتبة « جامعة عامة » للمدارس واختار لها محلا بجوار المدارس يزيد على حاجة المدارس من الكتب والأدوات ، ولعله فكر فى أن تكون « كتبخانة عمومية » ولكنه كان يخاف الاسراف ، ويخشى أن يعوق مشروعاته ، فيلجأ الى تنفيذها فى أضيق حدود الانفاق ، فلما رأى اتجاه الخديو الى انشائها ، وأنشئت فى المكان الذى اختاره لمكتبة المدارس ، تقدم باقتراح بنـــاء « كتبخانة خديوية أضاهى بها كتبخانة باريز » . وكان له ما أراد من بناء دار الكتب وأصبحت مأثرة من مآثره الباقية .

والى جوارها قام « الانفتياتر » أو قاعة المحاضرات « التى غدت نواة لمدرسة دار العلوم – كما قلنا « تنتظم فيها المحاضرات فى شتى المعارف يستمع اليها كل من رغب أو أراد ، ويلقيها صفوة من العلماء وأساتذة البعوث ممن تلقوا علومهم بالخارج ، فكان الشيخ حسين المرصفى يحاضر فى الأدب العربى ، واسماعيل بك (باشا) الفلكى فى الفلك ، ومنصور افندى أحمد فى الطبيعيات ، وفرانس بك (باشا) كبير مهندسى الأوقاف فى المبانى ، وجيجون بك ناظر الفنون والصنائع (٢) فى الميكانيكا ، وبروكش بك ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم فى التاريخ ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى فى فقه

---

(١) عصر اسماعيل جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٢) وهى التى تحولت الى مدرسة الهندسة التطبيقية عام ١٩٣٧ ثم أصبحت كلية الهندسة بجامعة عين شمس ، وكان لها فضل كبير فى تخريج صفوة من المهندسين الفنيين .

الامام أبى حنيفة ، والشيخ احمد المرصفى فى التفسير والحديث ، وأحمد بك ندا فى النبات ، ومسيو فيدال فى السكك الحــديدية وغيرهم ممن يذكرهم أمين باشا سامى فى كتابه » ، « التعليم فى مصر » .

وكان نشر التعليم بغيته ــ كما يبدو من كل أعماله ــ وكان هو نفسه ثمرة من ثمار التعليم يعرف تماما أننا « قد تربينا فى هذا الوجود حتى صرنا على حالة من احوال الكمال وصلنا اليها ، ولم تكن نشأتنا عليها فترتب علينا أن نربى غيرنا حتى يصلوا الى نحو ذلك (١) فلم يترك وسيلة لنشره الا قام بها ، فاذا كانت المحاضرة وسيلة من وسائله ، فان الورقة أو الصحيفة وسيلة أخرى ، وانها لوسيلة أوسع انتشارا ، واذا كان قد أعد « الانفتياتر » للمحاضرات العامة فقد أصدر عام ١٨٧٠ مجلة « روضة المدارس » للنهضة باللغة العربية واحياء الأدب العربى ونشر المعارف الحديثة . ورأى أن يعهد بها الى رفاعة الطهطاوى فان « رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس هو المشــــار اليه بين أرباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل انسان » (٢) .

وكانت روضة المدارس طوال حياتها التى امتدت ثمان سنوات مجمعا للفكر والعلم والأدب والفن تلمع على صفحاتها اقلام الأعلام فى ذلك العصر الذى بدأ يفور بشتى الاتجاهات ويورى بالحركة وينفعل بالتغيير .

اتجاهات جديدة :

ترك أبو التعليم لمساته البارزة على صفحة التعليم والثقافة فى عصره ، وما زالت لمساته بارزة حتى وقتنا هذا ، لا فيما خلفه من

---

(١) علم الدين : المقدمة ص ٦ .

(٢) رفاعة الطهطاوى للمؤلف ص ١٢٣ .

منشآت ثقافية باقية كدار الكتب ، ودار العلوم ، ولا فيما تركه من مؤلفات وكتب ما زال بعضها مرجعا لكل باحث فى تاريخ مصر كالخطط التوفيقية ، ولكن فيما تركه من اتجاهات تخطيطية وتربوية وفنية ما زلنا فى حاجة الى استيعابها والافادة منها بل نحن فى أشد الحاجة الى ادراك مراميها وأهدافها حتى نفيد منها فى نهضتنا التعليمية الحاضرة وفى اتاحة فرص التعليم لكل مواطن على أساس من مبدأ تكافؤ الفرص فى مجتمع ينشد العدالة والتقدم .

كان على مبارك يؤمن بالتعليم ، وبأثر التعليم فى نهضة الشعوب وارتقاء الأمم ، وكان يحث عليه ويعمل على نشره ، ويرى أن تحرر المصريين لا يتم بدونه ، والتحرر كما كان يراه المصريون حينذاك هو التحرر من الطغيان التركى وسيطرة الأتراك على أجهزة الحكم ومراكز السلطة فى الدولة ، فاذا كان للأتراك من عصبية الحاكم ما يسندهم ويقومهم ، فلن يشاركهم المصريون فى التقدم واحتلال مناصب الحكم مالم يشعر الحاكم بحاجته اليهم ، ولقد رأى كيف ارتقى به التعليم الى ما صار اليه ، وكيف احتاجه الحاكم ولم يستغن عنه فى أية مرة ينزعه فيها من مناصبه ويحيله الى التقاعد ، فيعود اليه ملتمسا كفاءته وخبرته ، وهو ما أراد أن يعيه من قصده من شباب الضباط المصريين حين جاءوا اليه ناقمين من استعلاء الضباط الأتراك مهددين بالثورة ، فقص عليهم حكايته وكيف أصبح ناظرا وقال لهم : « هذا مكسب كبير لنا ، فاذا صبرنا فسنحل محل هؤلاء الشراكسة » ، فلم ينس على مبارك مصريته كما نسيها اسماعيل صديق ومصطفى رياض ، ولم يستعل على مواطنيه بل جعل من نفسه قدوة لهم وعنوانا لآمالهم ، واثقا ان المصريين سيجلون الأتراك عن الحكم بقدرتهم وكفاءتهم ولن يكتسبوا القدرة والكفاءة مالم يتعلموا فانهم « أقرب الناس الى الاصلاح

واسرعهم تقدما في سبيل الفلاح اذا وجدوا حاملا على ذلك » (١)
والحامل على ذلك هو التعليم .

فاذا كان قد اتخذ من نشر التعليم ورعايته غاية حياته ، وهو المهندس الذي ظهرت براعته في كل ما قام به من أعمال هندسية ، وارتقى فى سلكها الى أعظم المناصب ، فلأنه هو نفسه كان بذرة أينعت فى تربة التعليم ، وعليه أن يلقى ببذور مصر الناشئة الى هذه التربة الخصبة .

ولكن كيف يتسنى له أن ييسر التعليم للناس وأمره للدولة ، وهى التى اذا شاءت تقبض يدها عنه أو تسخ عليه ، وعلى قدر ما تمنح وتسخو ، على قدر ما ينتشر ، وقد قبضت الدولة يدها عنه أيام عباس وأيام سعيد ، وكانت له مع عباس تجربة ، استطاع بها أن يبقى على الذبالة مضيئة ، فلما جاء سعيد أقصاه عن التعليم فكاد يدركه البوار حتى لحقه اسماعيل فنفخ فيها حتى صارت وهجا وحين اقترح أعضاء مجلس شورى النواب تعميم التعليم الأولي ولقى الاقتراح تأييد الحكومة ، وجد على مبارك فرصته المرجاة لتنفيذ الاتجاهات التعليمية والتربوية التى ينشدها ، فعمل على أن يكون التعليم شعبيا ، تعليما بقصد التعليم لا لأعداد موظفى الدولة ، وعمل على أن يمتد اشراف الدولة الى المكاتب الأهلية لينتظم حالها ويرقي مستواها ويحظى أطفالها برعاية مسئولة ، وفى اطار هذا الاشراف احتفظ لها بشخصيتها واستقلالها المحليين فكل « مصاريف المكاتب الموجودة بالقرى والبلدان بجهات المديريات من مبانى وخلافه ومن أدوات تعليم ومرتبات المؤدبين تكون جميعها من طرف الأهالى بمعنى أن كل قرية تقوم على حدتها بمصرف المكتب الموجود بها ، فأما بناء المكتب وترميمه طبق الرسم المحكى

(١) نخبة الفكر ص ١٧٥ .

عنه يكون من طرف القرية مالم يتبرع ببنائه أحد من أهالى الخير وكذلك مرتبات المؤدبين وصرافات زفة الفائقين للأقران وتشويق المؤدبين آخر كل سنة فانها تكون أيضا على طرف القـــرية . وأما أدوات التعليم كمصحف أو كتاب مطبوع للتعليم أو ألواح ومحابر فهذا كله يكون مصرفه على طرف أهالى الأولاد ان كان لهم أهالى . وأما الأيتام فما يلزم لهم يكون على القرية » (١) .

ويؤدى هذا الاشراف الى خلق نمط للتعليم القومى يقوم على الاتساق والتشابه . كما يؤدى قيام المدن والقرى ببعض نواحى الانفاق الى الارتفاع بالتعليم الى مستوى المسئولية القومية فيغدو واجبا شـــعبيا أكثر منه واجبا حكوميا . فلا يتأثر بشـــح الأمير أو سخائه ، ويتسع الى أبعد مما تطيقه ميزانية الدولة وينتشر انتشارا مضاعفا لا يصل اليه اذا قامت الدولة وحدها بنفقاته .

ولم يكتف بذلك بل عمل على أن يشارك القادرون فى نفقات تعليم أبنائهم كل على قدر ما يستطيع ، فمنهم من يقوم بمبيت أبنائه ومأكلهم ومشربهم ، ومنهم من يقــوم بمبيتهم فتســــتبعد نفقات مفروشاتهم ومنهم من تقوم الدولة عنه بكل هذا .

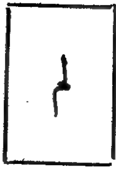
ثم نراه يأخذ مما نعرفه اليوم باللامركزية ، ولكنها لا مركزية (معدولة) تقوم على أســـــاس من مركزية الاشراف والتوجيه ، ولا مركزية الادارة والميزانية ، فالعرفاء والمعلمون أبناء مديرياتهم والميزانية على طرف المديرية والأهالى ، بل أن الأنشاءات والأبنية المدرسية على نفقة الأهالى ، ولكن عليهم أن يلتزموا بالمواصفات والرسوم التى يضعها ديوان المدارس .

---

(١) البند الثامن والعشرون من لائحة رجب ١٢٨٤ .

هذا عدا ما أشرنا اليـــه من اتجاهات تربوية تحســـن معاملة التلميذ وتمنع القسوة وتحرم الشتائم وتتبين الملكات والمواهب وتنميها فضـــلا عن اعداد المعلم الصـــالح وتزويده بالخلق الكريم والمعرفةاللازمة . فكانت ثورة فى التعليم رضى عنها أتم الرضى وحقق بها بعض ما كان ينشده للتعليم ، فما نظن الا أنه كان يود لو راى جميع أهل مصر وقد نالوا قسطهم منه .

والمعلم



يكن رائد حركة للتعليم فحسب ، بل كان هو نفسه معلما ، استشف تجربته فى التربية من واقع حياته ومن ايمانه بأن المعلم الصالح ينشىء جيلا صالحا ويبنى أمة ناهضة ، وليست المدرسة وحدها موئل التعليم .

وليس المعلم وحده من يحترف التعليم ويغشى المدرسة ملقنا التلاميذ ما تفرضه البرامج المدرسية من صــــنوف المعرفة ، فكل مكان أو محفل أو ندوة تهدى الناس نوعا من المعرفة موئل للتعليم ، وكل من أهدى قومه أو أهدى الناس عامة ـ محدثا أو كاتبا ـ نوعا من المعرفة أو شيئا من الحكمة أو فكرة طريفة . أو بين لهم الرشد من الغى ، والهدى من الضلال والحق من الباطل ، والثمين من الغث ، والصحيح من الزائف والصواب من الخطأ فهو معلم .

وكان على مبارك من هذا الطراز يتلمس كافة السبل لتعليم الناس ما هم فى حاجة أليه لا يستنكف أن يكون معلما للهجاء ، وقد قام زمنا بتعليمه للجنود ، وقال فى ذلك : كيف لا أرغب انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن ، وقال : كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا الى ما وصلنا اليه ، ولا يعجم عليه أن يلقى القول فى محفل العلماء مليئا بالمعرفة والحكمة فاذا هو فى القمة بين البحاث والأعلام ، وما زلنا الى اليوم نســـتهدى كتبه ومؤلفاته ما تحوجنـــا معرفته أو الالمام به ، ولو لم يكن له غير « الخطط التوفيقية » لكفته وحدها خلودا بين المؤرخين . ولو لم يكن له غير « علم الدين » لكفاه وحده ليجد مكانا له بين المفـــكرين . ومع ذلك لم يترك بابا من أبواب

المعرفة الا وكان له فيه ركن ، وكان له فيه أثر من المعارف المدرسية، الى المعارف العامة ، فالمعرفة التخصصية ، فمن الهندسة المدنية والعسكرية ، الى العلوم والرياضيات ، ومن الجغرافية الى التاريخ ومن خواص الاعداد الى المكاييل والأوزان ، ومن علوم الدين الى علم الأخلاق والاجتماع . بل وعلم التغذية وما يتصل بها من معارف طبية ، فقد كان الرجل موسوعيا ، يختزن قلمه أو تختزن ذاكرته كل ما يقرأ ، يسوقه أحيانا على حاله ، أو يطبعه بفكره تحمله حقيقة ما الى فكرة ثم تسوقه أخرى الى نقيضها . وان بقيت مثله واخلاقياته كما هى لا تتغير ، بل لعل الفكرة ونقيضها فى منطق المعرفة ، لم تكن لتجور أبدا على المثل والأخلاقيات فى منطقه الشخصى . فبينما يعثر على حقيقة فيدونها ، اذا به يأتى بنقيضها وكأنها تؤيدها ، أو يأتى بهذا النقيض وكأنه لا يذكر أنه جاء بضده من قبل ، أو يكرر ما ذكره من قبل بألفاظه وحروفه ، وكأنه يكتبه لأول مرة ، وتسوقه هذه المعرفة الموسوعية أحيانا الى ذكر معارف قديمة وأخرى حديثة فى موضوع واحد فيبدو ناقلا أكثر منه باحثا وكأنه لا ينكر القديم ولا يرجح الحديث ، ولا عوار عليه ولا تثريب فأن المعرفة الموسوعية كثيرا ما تحمل صاحبها دون أن يدرى الى الاستطراد ، وكأنه فى بستان اختلطت فيه الأزاهير فلا يدرى أيها يقطف . وامتزج فيه العطر فلا يميز رائحة منها على الأخرى وان كان لا يعجم عليه نفحها ، ولكنه يقطف ما شاء له القطاف ، وينشق ما حلا له العبير ، فما كان يعنيه الا أن يعلم الناس ما تعلم ، فان اخذوا بعضه وأهملوا البعض الآخر فهو خير ، وان أخذوه كله فهو كل الخير .

كان يكتب للناس كل ما يراهم فى حاجة اليه ، لا يضن بعلمه على أحد ولا يمنعه عن راغب ، بل انه ليغرى الناس به ، فيقول فى مقدمة « علم الدين » انه رأى « النفوس كثيرا ما تميل الى السير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة فقد

تعرض عنها فى كثير من الأحيان لا سيما عند السآمة والملال من كثرة الاشتغال ، وفى أوقات عدم خلو البال ، فحدانى هذا أيام نظارتى لديوان المعارف الى عمل كتاب أضمه كثيرا من الفوائد فى أسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها الى مطالعتها ، ويرغب فيها رغبته فى ما كان من هذا القبيل فيجد فى طريقه تلك الفوائد ينالها عفوا بلا عناء حرصا على نعيم الفائدة وبث المنفعة » .

ويرى هذا واجبا لأمة نال فيها من العلم غايته ، وبرز فيه فصار لزاما عليه — وقد أصبح له من الأمر فى الدولة ، ومن القدرة على الكتابة — أن يفى « بالجميل على قدر الامكان » فيعمل على نشر التعليم ، ويقوم هو نفسه بالكتابة والتأليف ، فيما يرى حاجة الناس اليه من ألوان المعارف والعلوم ، فيقول ان كل « خير حصلنا عليه فى هذه الحياة ألزمنا أنفسنا القيام بتعويضه ومقابلته بالجميل على قدر الامكان ، وهل جزاء الاحسان الا الاحسان . مثلا نحن تربينا فى هذا الوجود حتى صرنا على حالة من أحوال الكمال وصلنا اليها ، ولم نكن نشأنا عليها فترتب علينا أن نربى غيرنا حتى يصلوا الى نحو ذلك ثم هم يربون غيرهم وهكذا . ومن أعظم ما نرى أنفسنا مدينين له مطالبين من جهته مغمورين بحقوقه المقدسة هذا الوطن الجليل الذى نشأنا به وعشنا فوق أرضه وتحت سمائه ، ونعشنا بهوائه ، وروينا بمائه ، واغتذينا بنباته وحيوانه ، وانتفعنا بسائر أجزائه وهو فى كل آن يمدنا ويفيدنا ، ويعطينا ويزيدنا ، كما كان صنيعه مع آبائنا وأجدادنا السابقين . وكذلك يكون شأنه مع أبنائنا وأحفادنا اللاحقين ، فلزمنا أن نقدره حق قدره ، ونأتى على آخر جهدنا واستطاعتنا فى منفعته وخيره ، ولا شيء أنفع له وأجلب للخير والبركة اليه من تعليم أبنائه وبث المعارف والفنون النافعة فيهم ، حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا يدا واحدة فى نفعه وخدمته وايصاله الى غاية ما يمكن أن يصل اليه من الغبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك تزداد خيراته وبركاته عليهم

وعلى نسلهم وعقبهم وخلفهم من بعدهم وهـذا لا يكون الا بالعلم والمعرفة وحسن التربية » .

لقد أدرك نعمة التعليم عليه وفضله فيما وصل اليه فى وطنه « حتى صرت من أبنائه المعدودين ورجاله المعروفين » وعليه أن يفى بدينه اليه ، وان كان على يقين من أنه وان استوفى الجهد وقضى العمر فى خدمته « لم أقم بعشر معشار ما على من واجباته » . وكأنه كان يريد لكل مواطن أن يكون « على مبارك » آخر . فلا يكتفى بافتتاح المدارس أو اعداد المعلم الصالح ، أو تيسير وسائل الثقافة للكافة ، بل يلج ميدان التأليف ليزجى الى الناس علمه ومعرفته ، ويدلى اليهم برأيه وفكره ، فكانت أكثر كتبه مدرسـية كتبت للمدارس ، أو للمبتدئين فى دراسة العلوم الهندسية ، أو لنشر البسائط العلمية التى يحتاجها الناس فى حياتهم ، أما القليل منها فهى الأثر الخالد لجهده العلمى .

فمن كتبه المدرسية بترتيب ظهورها :

١ – تقريب الهندسة :

وقد وضعه « لاستعمال العسكرية المصرية » وطبع لأول مرة على مطبعة الحجر ببولاق فى أوائل عام ١٢٨٠ ، ثم نشرته مطبعة وادى النيل سنة ١٢٩٨ . وفى الأمر الصادر بطبعه الى نظارة المالية ما يفيد أن على بك مبارك المهندس العسكرى قد ألفه « لتسهيل وتقريب فن الهندسـة لأذهان المبتدئين ، وحيث أنه فى الواقع مؤلف مختصر مفيد فى فن الهندسـة ، فبناء عليه قد اقتضت ارادتى طبع خمسمائة نسخة منه فى مطبعة الحجر التى بمطبعة بولاق ، وحيث أن الكتاب المذكور سيرسل اليكم ، فبناء عليه يجب اجراء تصليح وتصحيح عباراته بمعرفة صالح مجدى افندى مترجم الكتب العسكرية ونحب أيضا المبادرة بطبع النسـخ المار ذكرها

وارسالها الى هذا الجانب لتوزيعها على ضباط العساكر ، وقد حررنا لكم هذا لاتباعه » (١) .

٢ ـ حقائق الأخبار فى أوصاف البحار :

ونشره تباعا فى مجلة روضة المدارس ثم جمعت فصوله وطبعت بمطبعة وادى النيل بالموسكى سنة ١٢٨٧ هـ ويقع فى احدى وثمانين صفحة من القطع المتوسط . يقول أنها خلاصة « مؤلف جليل فى علم البحار » .

وليس هذا الكتاب مدرسيا بالمعنى المعروف ، بل هو أقرب الى الكتب الثقافية منه الى الكتب المدرسية ، وان اتخذ الطابع المدرسى البسيط ليكون سهل التناول ، فيتحدث عن البحار بانواعها وتركيب مياهها وخلجانها وتياراتها ومدها وجزرها وكثبانها وشواطئها الى غير ذلك مما يتصل بعلوم البحار .

٣ ـ خواص الأعداد :

وطبع بمطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز عام ١٢٨٩ هـ فى مائة وأربع صفحات من القطع المتوسط ، ويتناول الخواص المميزة للاعداد ، وبعض ما يتصل بالرياضيات وما سماه بالجدول الوفقى ، وكان موضع عناية قدماء المصريين ومن أخذ عنهم كفيثاغورس ـ كما يقول ـ وقد سموها كذلك « لنسبتهم لها الى السبعة الكواكب » .

ويجمع هذا الكتاب بدوره بين السمتين المدرسية والثقافية .

---

(١) تقويم النيل : جـ ٣ م ١ ص ٣٦٤ ـ ارادة لناظر المالية راغب باشا فى ١٩ جمادى الآخر ١٢٧٧ هـ .

٤ - تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام :

وطبع هو الآخر بمطبعة المدارس الملكية عام ١٢٨٩ هـ فى سبعين صفحة من القطع المتوسط ويبحث فى التغذية الصحيحة ، وقد أعادت مطبعة الجمهور طبعه بعد ذلك بعشرين عاما .

٥ - تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين :

فى أربعمائة وثمان عشرة صفحة من القطع المتوسط ، طبع مطبعة المدارس الملكية سنة ١٨٩٠ ، ويبحث فى الوان شتى من العلوم الهندسية كالمساحة والخطوط الحديدية ، والقناطر والأحجام والمسطحات والمبانى والمقاييس ، وغير ذلك مما يحتاجه البادىء فى دراسة الهندسة .

٦ - حروف الهجاء والتمرين على القراءة :

وطبع بمطبعة وادى النيل العربية والأفرنكية بباب الشعرية سنة ١٢٩٧ فى جزئين من القطع الصغير - الأول فى ست وتسعين صفحة ، والثانى فى مائة وستين صفحة وهو كتاب مدرسى وضعه لتعليم المبتدئين القراءة والكتابة .

٧ - الميزان فى الأقيسة والمكاييل والموازين :

طبع بمطبعة بولاق سنة ١٣٠٩ هـ فى ست وتسعين صفحة من القطع المتوسط وفيه رد الأقيسة والأوزان الى أصـــولها المصرية القديمة .

وفيما عدا هذه الكتب التى تتسم بالطابع المدرسى سواء منها ما وضع للمدارس خاصة أو نشر تعميما لنوع من الثقافة او المعرفة التى رأى حاجة النـــاس اليها فى مجتمع ينتقل من القديم الى

الحديث ، كتب رسالة فى شرح الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » كما عمل على ترجمة كتاب « المستشرق الفرنسى (سيديو) » ــ خلاصة تاريخ العرب ــ فأمر ــ كما يقول فى مقدمة الكتاب ــ وهو ناظر على ديوان المعارف سنة ١٢٨٥ هـ ، بترجمته ، وقام بالترجمة « محمد أفندى بن أحمد عبد الرازق » ثم يقول : « وتخليت عن نظارة الديوان فوقف الطبع . وحفظت الترجمة فى الكتبخانة الخديوية ثم عدت الى نظارة الديوان سنة ١٣٠٥ فوجدت به أبوابا لم تترجم وأخرى لم تستوف حقها فى الترجمة ، فترجمنا ذلك وصححنا الكتاب ، وقابلناه على الأصل كلمة كلمة ، ثم كلفنا به العالم النحرير الشيخ عبد الرحمن ابن العلامة المرحوم الشيخ السيد الشرقاوى الشرشيمى المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ وأمرناه بأن ينشئه انشاء عربيا فصيحا ، فأخذ ينشىء ويقرأ علينا ما كتبه بخطه ، ثم صححنا أسماء البقاع والرجال . وقابلناها على أصلها الأفرنجي وسميناه (خلاصة تاريخ العرب) فجاء بحمد الله كتابا مبارك الطالع ترتاح له المسامع ، كما أن شموس النجاح عليه طوالع ، لم يدع كبيرة ولا صغيرة من تاريخ العرب الا أحصاها ، ولا شاردة من شوارد فضلهم الا ردها لأهلها وكشف القناع عن محياها ، مع النزاهة عن وصمة العيب ، والتبرئة عن مثل ما يأتى به الكثير من المؤرخين رجما بالغيب ، ورجائى به أن يكون لأبناء الشرق وعلى الخصوص المصريين ، دليلا مرشدا ، يروى لهم محاسن آبائهم الأولين حديث محمد ، لا يزال مدى الأيام مخلدا » .

وطبع الكتاب فى مطبعة مصطفى محمد بحوش قدم سنة ١٣٠٩ هـ .

ومن أبدع ما كتب كتابه « نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر » نشر عام ١٢٩٨ هـ ، وطبع فى مطبعة وادى النيل فى مائتين وست وتسعين صفحة من القطع المتوسط تناول فى مقدمته ــ كما يقول ــ « تاريخ

الديار المصرية وتقلبات الحوادث بها من مبدأ تاريخها الى وقتنا هذا وبيان ارتباط سعدها وشقائها بتدبير مياه النيل » . أما الباب الأول فمن « النيل وما يتعلق به من المسائل » والباب الثانى عن « تكوين وادى النيل » والباب الثالث « فى أهالى القطر المصرى ، وأما الباب الرابع فمما تم من « الاصـــلاحات » . ويختم الكتاب بجدول يبين زيادة النيل ونقصانه من عام ٢٠ هـ حتى عام ١٢٩٧ هـ وسماه « جدول النيل السعيد » .

والكتاب دراسة أصيلة مليئة بالمعارف والأفكار التى لا تبلى على مر السنين فيقول مثلا عن بلاد المسلمين أنها : « بلغت ذروة مجدها وغاية سعادتها وعزها عندما كان السلاطين والعلماء كلاهما من أهل المعرفة ، يراقب بعضهم بعضا ويخشى بعضهم بعضا . ثم رجعت بلاد المسـلمين القهقرى عندما تغلب على الحكم فيها أهل (الخشـــونة والجهل) فوقع المحكومون تحت تصرف الأهواء ، وتنازع الأغراض ، فوقفوا فى السير ، ثم تقهقروا حتى تدهوروا » ، ويقول : « ان أهل مصر كغيرهم من الأمم الأوربية فى قبولهم للصلاح والتقويم والاصلاح اذا سار فيهم حكامهم سيرة الاستقامة والعدل » . وفيه نظرات صائبة تحمل على التأمل والتفكير اذ يعيب على خلفاء محمد على اهمالهم التعليم الزراعى ويعده تقصيرا يأسف له . فان أعظم ما يعنى به فى بلد ـ الزراعة مصدر ثروته كمصر ـ هو الاكثار من المدارس الزراعية ومن مراكز التجارب لتطوير الزراعة وتحسينها، ولعلنا نقف عند نقده للنظام الزراعى القائم متأملين ، اذ يرى أن هذا النظام الزراعى قد أدى الى بوار الصناعة والتجارة ، باهماله زراعة الغلات الصناعية كالكتان أو غرس المراعى لتربية الماشية .

ولم يكن على مبارك فى كل ما كتب معلما يهدى الى الناس الوانا من العلوم والمعارف فحسب ، بل كان مربيا ، ينقد ويوجه وينصح ويرشد الناس الى الخير من أمرهم ، وكان مصريا لم ينس مصريته

فنراه يذكر بمجدها وحضـــــارتها فيقول مثلا : ان فيثاغورس وجماعته قد أخذوا عن المصريين (١) وان الأقيسة والأوزان الرومانية مأخوذة عن مثيلاتها المصرية أصلا (٢) وان المصريين « أقرب الناس الى الاصلاح وأسرعهم تقدما فى سبيل العلاج اذا وجدوا حاملا على ذلك » (٣) .

فحبه لمصر هو الذى حمـل حماسه الى نشر التعليم ، وحبه لمصر هو الذى حمله على الكتابة والتأليف معلما وهاديا ومرشدا ، فالتعليم وليس غيره مرقاة الأمة الى النهوض والكمال .

وتحت هذا الحافز كتب « علم الدين » وبنفس الحافز أيضا كتب أروع آثاره « الخطط التوفيقية » .

علم الدين :

وفيه تتجلى روح المعلم وطبيعته واهدافه ، المعلم الذى يغذى الناس بالمعرفة والمعلم الذى يهدى الناس الى الصلاح وينمى فيهم القدرة على النضج والاكتمال .

فعلم الدين موسوعة ضخمة حوت كثيرا من المعارف وكثيرا من الحكم ، تقع فى أربعة أجزاء وألف وأربعمائه وست وثمانين صفحة ومائة وخمس وعشرين مسامرة ، كل مسامرة فى موضوع بعينه وتؤلف فى مجموعها موضوعات شتى تختلف وتتباين ، وتتعدد فيها الوان المعارف حتى ليعجب القارىء أن يلم عقل بكل هذا الشتيت من المعلومات والحكم والأفكار والقصص العابر والأمثلة المتواترة

---

(١) من كتابه خواص الأعداد .

(٢) من كتابه الميزان فى الاقيسة والمكاييل والأوزان .

(٣) من كتابه نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر .

من النثر والشعر ، فمن الحديث عن « البورصة والبانكات وأوراق المعاملة » الى الحديث عن « الهوام والدواب » و « الجـــراد » و « دودة القز » و « النحل » و « أبو دقيق » ومن « الميسر والانصاب والازلام » و « السكر » الى « الأرق والصلاة » ومن « الانسان والحيوان » الى « ذم الدنيا ومدحها » ومن « كلب البحر والديمورا » الى « المحار » و « الودع » ، و « اللؤلؤ » ومن « حكاية المصرى الغريب » الى « الزباء وجذيمة الأبرش وقصير وبيهس » ومن « الموالد والأعياد والمواسم » الى « الخانات واللوكندات » .

ولكنه حين كتبه كان يقصد أن يكون « كتابا جامعا » فيقول أنه « اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة فى كثير من الكتب العربية والأفرنجية فى العلوم الشرعية ، والفنون الصناعية وأسرار الخليقة وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر وما تقلب نوع الانسان فيه من الأطوار والأدوار فى الزمن الغابر وما هو عليه فى الوقت الحاضر ، وما طرأ عليه من تقدم وتقهقر وصفاء وتكدر وراحة وهناء وبؤس وعناء الى غير ذلك من الشؤون بتقلب الدهور وتصرف الأمور مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين أحواله وعاداته فى الأوقات المتفاوتة والأنحاء المتباينة ليطلع مطالعه على ما يشحذ خاطره وينبه قريحته ، ويستنهض فكرته ، ويدرجه لأعمال عقله ، وامعان نظره واستعمال بصر بصيرته فى نقد الأمور وسيرها وتدبرها ومقارنتها والموازنة بينها والتمييز بين الخير والشر والنفع والضر وتخير النافع والأنفع والحسن والأحسن » .

وقد جعله على شكل قصة ليسمو به عن السآمة — كما يقول — « مفرغا فى قالب سياحة شيخ عالم مصرى وسم بعلم الدين مع رجل انكليزى كلاهما هيان بن بيان نظمهما سمط الحديث لتأتى المقارنة بين الأحوال المشرقية والأوربوية » فكان أول من نحا هذا المنحى القصصى فى كتاب للمعارف العامة وان كنا لا نستطيع أن

نتخذه بداية لفن القصة فى الأدب العربى الحديث فليس فيه من مقومات القصة غير الأطار العام ، وفيما عدا ذلك فهو حديث للمعرفة يجرى على ألسنة المتحدثين ، وهم فى الأعم الأغلب علم الدين وزوجه وابنه برهان الدين وسائح انجليزى وآخرون يعبرون بهم فى تجوالهم أو لقاءاتهم .

ومجمل القصة أن رجلا من فقهاء القرى بعث بابنه الى الأزهر وكان قد اختار له اسم « علم الدين » تفاؤلا بأن يكون من أعلام العلماء المجتهدين . وكان الفقيه فى قرى مصر والى عهد قريب أحد معالمها البارزة ، يخدم المسجد ويؤم الناس للصلاة ويتلو القرآن فى مناسباته وغالبا ما يفتتح « كتابا » لتحفيظ القرآن وتعليم الصبية القراءة والكتابة ، ومن هذه الكتاتيب كان الأزهر يستمد « مجاوريه » أو طلابه .

وارتحل « علم الدين » الى القاهرة بعد أن تزود بدعاء أبويه وآله وقد نصحه أبوه وأوصاه بالطاعة والامتثال لمعلميه فيما يعود نفعه عليه وأن يصرف جميع أوقاته فى تحصيل ما يرشدونه اليه وأن يجتنب المناهى وأماكن الملاهى ، وأن يكون فى الغدوة والرواح من أهل الصلاح ومن لهم شهرة بفعل الخير وحسن السير ، فقد قال العلماء : اصطحب من الاخوان فى الدين والحسب والرأى والأدب فانه ردء لك عند حاجتك ، وركن عند نائبتك ، وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك وقال الشاعر :

تخير من الاخوان كل ابن حرة ... يسرك عند النائبات بلاؤه
وقارن اذا قارنت حرا فانما ... يزين ويزرى بالفتى قرناؤه

ثم ختم وصيته لولده علم الدين بتعليمه وظائف طالب العلم وآداب المتعلم « أجملها — كما يقول — فى عشر جمل » وان أفاض فى بعضها وأسهب مؤداها : تقويم النفس والتجرد للعلم ، والاجتهاد

فى طلبه ، والتواضع فى السعى اليه ، والتحرز مما يختلف عليه الناس حتى يعيه ويصيب فهمه والتعرف على مقاصد العلوم وغايتها ، والأخذ من كل شيء بأحسنه ، والبدء بفن من فنون العلم فيستوفيه قبل أن يخوض فى غيره « فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق الى بعض كترتيب علم المعانى على النحو والهندسة على الحساب » ، ومعرفة السبب الذى يدرك به أشرف العلوم ، واخيرا « التحلى بالفضيلة والتخلى عن الرذيلة والتقرب الى الله عز وجل والتوصل الى تحصيل المنفعة المحمودة لنفسه بأكمل الوجوه وأعظمها ، وأحسن الطرق واسلمها ، والنفع لاخوانه وأهل وطنه وسائر عباد الله تعالى فان أحب الناس الى الله أنفعهم لعباده » .

وصحب علم الدين أخوته الى القاهرة بعد موت ابويه ، وقام على تربيتهم وكفالتهم ثم تأهل بفتاة اسمها تقية ، وجدها ــ حين استقرت عنده ــ « ذات ذكاء وبهاء راضية بما قسم الله لها ، تشكر على القليل ولا تنسى الجميل .. كفته المؤونة فى تربية اخواته وتفرغ هو لطلب العلم » وقام على تعليمها وتثقيفها « فكتبت وحفظت القرآن » ثم علمها « العلوم الأدبية والفقه والحديث والتفسير الى غير ذلك من المعقول والمنقول » وكانت قد « سألته الا يكتم عنها شيئا مما يعلمه .. حتى جارته فى كل مضمار وأخذت معه فى كل أودية العلم حيثما سار » وقامت من جانبها بتعليم أخواته ما يلزمهن « من اللوازم المنزلية .. فأخذن فى التعلم وصرن لها كبناتها فقمن بخدمة المنزل وتفرغت هى لصنائعها » من « الخياطة والتطريز وكب الحرير » لتساعد زوجها بما تكسبه منها « حتى رزقهم الله بأربعة من الأولاد فتعطلت عن مساعدته فى أمور المعيشة بسبب تربيتهم واشتغالها بخدمتهم لصغرهم وكثرتهم » .

وفيما كان من علم الدين وزوجه ساق على مبارك رايه فى قضية

المرأة من غير أن يثير مطعنا أو يقارف ذما من المحافظين الذين تصدوا بعد ذلك لقاسم أمين حين جهر برأيه فى تحرير المرأة ، فلم يأت بأكثر مما جاء به على مبارك مثلا لما يبتغيه لها فى زوج علم الدين « فقد قال رايه فى تعليم المرأة ، وان من حقها أن تتبحر فى العلم الى غايته ، وقال ان الحياة بين الزوجين شركة يتعاونان فيها على العيش بالعمل والكسب ، حين جعل زوج علم الدين تعمل لتعين أسرتها « بالخياطة والتطريز وكب الحرير » فقرر بهذا حق المرأة فى العمل الذى تقدر عليه ولكنه إقدم عليه عملها الأصيل ووظيفتها الأساسية وهى رعاية أسرتها وتربية أولادها وتنشئتهم فصرفها عن مساعدة زوجها « فى أمـــور المعيشة » لتقوم بخدمة أطفالها وتربيتهم ، ثم يجعل لها الأمــــر الأعلى فى توجيه زوجها وارشاده ، ففى محاورة طويلة تستوعب (المسامرة الخامسة) نراها تخوض معه مناقشة دقيقة عن العمل والسعى لكسب الرزق يغلب فيها رأيها رايه فى أن « السعة والغنى » ليسا قاصرين على « أهل الجهل » وأن « الفقر والقـــلة » ليسا وقفا على « أهل العلم والفضل » وانما السعة والقلة هما على قدر العمل والسعى لكسب الرزق .

وعاجــــز الرأى مضياع لفرصــــته
حتى اذا فات أمر عاتب القـــدرا

وبعد أن تحثه على السعى والعمل ابتغـــاء الرزق والكسب تقول له « فان اجتهدت فى ذلك وسعيت ولم تصل فاعلم أن الذى تعلمته غير ما كان يلزم أن تتعلمه أو أن هذا البلد غير البلد الذى ينبغى لك أن تقيم فيه فاما أن تغير الفن أو تغير البلد ، وغير ذلك لا أقول ، وفيما جرى بيننا من المناقشة كفاية ، قال الشاعر :

على المرء أن يسعى الى الخير جهده
وليس عليه أن تتم المطـــــالب

وقال آخـــر :

لا تيأس اذا ما كنت ذا أدب — على خمولك أن ترقى الى الفلك
فبينما الذهب الابريز مختلط — بالترب اذ صار اكليلا على الملك

فقال لها : « دعينى أتفكر فى أى الأمرين أولى ، وهل يشرح خاطرى لموافقتك أم لا » ، فلا يرضى على مبارك الا أن يكون الأمر شورى بين الزوجين ، والرأى الأرجح لمن يصيب ، فلا يضير الرجل أن يخطىء وتصيب المرأة ، ولا يؤودها أن يصيب وتخطىء هى ، ما داما متساويين فى العلم والفضل ، وفى حق كل منهما على الآخر ، فاعترف للمرأة بشخصيتها المستقلة فى وقت لم يكن لها فيه الى جانب الرجل حق أو كيان .

ويرى علم الدين أن يغير « بلده » ولا يغير « فنه » وتسوقه الظروف للعمل مع رجل انجليزى من المشتغلين بالأدب العربى ، فيسافر برفقته الى انجلترا ومعه ولده برهان الدين .

ويعود على مبارك فيعرض لقضـــية المرأة ويناقش الحجاب والسفور فى المسامرة الثانية عشرة ، حين يجمع الانجليزى بين علم الدين وابنه وطائفة من نساء الأوربيين ورجالهم فى غرفة الطعام بالفندق الذى نزلوا به بالاسكندرية انتظارا للباخرة التى تقلهم الى أوربا ، وكان من النساء « شابة طليانية » شاء على مبارك أن يجعل مكانها على المائدة قريبا من الشيخ علم الدين قال انها « تعرف اللغة العـــربية وغيرها فكانت تارة تتكلم بها وتارة تتكلم بلغتها أو غيرها من اللغات الأجنبية عـلى حسب لغات الحاضرين ، وكانت بديعة الجمال نادرة المثال ظريفة الشمائل ثابتة الجأش فصيحة اللسان لا تقتصر فى حديثها على الألفاظ العادية بل تأتى بمحاسن الألفاظ اللطيفة والنكات الطريفة وتدخل مع الرجال فى المباحث العلمية والسياسية مع صغر سنها » ولا يفوته أن يضع الى جانب

هذه الصورة ، صورة المرأة الشرقية ، فيقول ان الشيخ تعجب من ذلك واستغربه « لكونه لم يعهد فى نساء البلاد الشرقية أمثالها ، فانه يراهن دائما عن الرجال بمعزل ، ولا شيء عليهن سوى خدمة المنزل ولا يتكلمن الا مع أزواجهن وذوى قرابتهن . واذا تكلمن مع الرجال يتكلمن بخجل واستحياء بخلاف ما رآه فى الطليانية ومن معها من النساء اذ لم يجد بينهن وبين الرجال فرقا فى المخاطبة والمجاوبة والمحاورة والمسامرة وكان يرى الخادم يبدأ فى تقديم الطعام بهن قبل الرجال ، واذا طلبن شيئا بادر بتقديمه اليهن من كان قريبا منهن لا فرق بين صديق وغريب وأجنبى وقريب فالكل محتفل باكرامهن كل الاحتفال ولا يأتى الا بما يسرهن من الأقوال والأفعال ، فأمعن فى ذلك النظر وأجال فيه قداح الفكر وقارنه فى نفسه بعوائد الشرقيين لينظر أيهما أفضل فرأى أن عوائد الشرقيين أجمل وأكمل لأنها أعون على حفظ الشرف وأصون للعرض من أسباب التلف » .

كان ذلك حكم النظرة الأولى والتجربة العابرة ، ساقه على مبارك على لسان للشيخ ، ولكنه يعرض رأيه القاطع فى المناقشة التى أدارها بين الشيخ وصاحبه الانجليزى ، فيقول الشيخ « كنت أتأمل فيما أراه من الأحوال لا سيما فى اختلاط النساء مع الرجال فوجدت فى اختلاطهن فوائد لهن من حيث انهن يتلذذن بما يرينه ويعلمنه من الحوادث والأخبار وما يطلعن عليه من محاورات الرجال ، لكن ربما ترتب على هذا الاختلاط ما يخرجهن عما هو أليق بهن من الصيانة والحياء لأن كثرة المخالطة والملامسة بين الرجال والنساء قد تفضى الى ضد ذلك فلا شك أن عادات الشرقيين أرجح ورأيهم فى احتجاب النساء عن الرجال أصح وأصلح » ، ويقول الانجليزى : « ان الذى ذكرت أيها الشيخ من المحذورات لا تمنع منه العزلة بالكلية لأن كل امرأة يمكنها أن تعلم كل شيء وهى فى

منزلها بأن تنظر من الشباك مثلا فترى كل ما يمر بالشـــوارع والحارات فتعرف أوصاف النساء والرجال وأحوالهم فمن أحبته خاطبته وما أعجبها فعلته » ويمضى فيقول ما معناه أن المرأة (عندكم) تخرج لعلة من العلل تمكنها من بلوغ الأمل ، وما من فرق بين من تخرج متى شاءت ومن تخرج « الا باذن وسبب وعلة » ، والتربية وحدها هى التى تصون المرأة عن الزلل ، وهى التى « ترشدها لما يجب عليها من الفروض ويكسوها حلل المروءة اللائقة بها وبزوجها وأقاربها ، فكما لا يكتفى بمجرد العلم مع الحرية كذلك لا يكتفى بمجرد العزلة مع الجهل بل لابد فى كلا الحالين من حسن التربية « ثم أن « هذه العادة المخالفة لعادتنا » لا توجد الا «فى بعض من البلاد الشرقية» مما يدل على أنها بدعة طارئة « فان جميع نساء الأرياف ونساء عربان البادية وبلاد العرب وأهل المغرب وسواحل الشام وأرض الحجـــاز لا يحتجبن عن الرجال وربما قمن مقام أزواجهن فى بعض الأحوال كاكرام الضيف والأخذ والاعطاء مع الأجانب وكثيرا ما يكون أمر المنزل وادارته موكولا الى رأيهن وتدبيرهن .. وفيهن من عاونت الرجل فى أعماله الشاقة » ويرد الانجليزى ــ عادة الحجاب ــ فى مناقشته للشيخ ــ الى الترك حين استكثروا من الحريم فخافوا « عدم رضاهن بهم » فحالوا بينهم وبين الاختلاط « وألزموهن البيوت والعزلة عن سائر الأجانب » وأقاموا من الأغوات حراسا عليهن وعيونا على سلوكهن .

وتطرد المناقشة بين الرجلين حتى يتفقا على أن القدوة الطيبة والنصح الرشيد هما منبع الخير وأصل الفضيلة ، ويقف على مبارك عند هذا الرأى فلا نعرف ان كان يؤيد السفور أو ينفيه ، وان أدركنا ميله اليه ولكنه كعادته لا يحب أن يجهر بما يصدم الناس فيما درجوا عليه ويكتفى بعرض الأمر ونقيضه تاركا لهم الخيار ، وان كان حين أثار موضوع السفور قد قوض الاجماع على نقيضه وترك لغيره

أن يجهر به فلم يمض ربع قرن حتى قام قاسم أمين يدعو الى تحرير المرأة من وقر الحجاب وقيوده التى تعزل المرأة عن الحياة العامة وتحول بينها وبين أن تكون عونا لزوجها وشريكا له فى مواجهة الحياة.

وتمضى فصول الكتاب أو مسامراته ــ كما شاء على مبارك أن يسميها ــ كل مسامرة فى موضوع يتطرق اليه الحديث ، أو يدعو اليه التنقل ، ففى سفرهم من القاهرة الى الاسكندرية بالقطار يروى على لسان الانجليزى قصة البخار واختراع القاطرة واستخدام السكك الحديدية وانتشارها فى بلاد أخرى ، فاذا مروا بطنطا بدأ مسامرة جديدة عنها وعن « صاحب المقام بها سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه » ويجد فى الاحتفال بمولده فرصة لمسامرة أخرى عن « الموالد والأعياد والمواسم » على كافة أنواعها ومناسباتها التاريخية فى مصر . وكان عليهم أن يثووا الى فندق قبل أبحارهم من الاسكندرية فجدت مناسبة للحديث عن « الخانات واللوكاندات » والمقارنة بينهـا وبين ما يعرف (عندكم بالوكايل) ويقول الشيخ « سبحان الله أرى الافرنج يعنون باتقان جميع الأشياء حتى خاناتهم ووكايلهم لا يتساهلون فيها كتساهلنا فى خاناتنا ووكائلنا فنرى المسافر اذا نزل بمكان من خاناتنا ووكائلنا وجد المكان مجردا من كل شىء فلا يجد به ما يأكله أو يشربه أو يفرشه أو يستعمله والويل لمن يمضى عليه بها الليل لأنه يكون تحت تصرف أنواع الحشرات من البرغوث والقمل والبق والبرغش يبيت مسهدا ولمثل هذا منشدا ».

« ثـلاث باءات بلينـــا بهـــا البق والبـــرغوث والبرغش »
« ثـلاثة أوحش ما فى الـــورى ولست أدرى أيهـــا أوحش »

فاذا أراد الشيخ أن يكتب لزوجه تحدث عن « البوســـتة » ونظامها والبرق وسرعته فى الاتصال وهكذا فى الحديث عن الملاحة وعن البحر وعجائبه وعن البراكين عند مرورهم بصقلية أو (جزيرة

سيسليا) ورؤيتهم دخان بركان اتنا ، ويتطرق من تعلم اللغات الى فضل العرب على الحضارة .

ويكتب برهان الدين لأمه عما شاهده ومر به من أحـــداث الرحلة ويقص عليها كيف تعرف الى ملاح يعرف لغته ويروى لها ما دار بينهما من أحاديث ، وما عرف من جهله بالجغرافية والتاريخ وما قاله له من أن « سر تقهقر الملة الاسلامية وسبب ضعف أهل البلاد المشرقية هو أنها لما هجرت علم التاريخ بمدارسها زال من بين رجالها معرفة سير الماضين الذين كانوا سببا فى سطوتها وعظم بطشها وتمكن قوتها ، وحيث لا قوة للملة الا بقوة رجالها ولا تكمل قوة الرجال الا بالعلم كان ترك علم التاريخ وباقى العلوم يضعف قوة الملة ويضيع شهرتها ويجعلها تحت أسر غيرها فيجور عليها ويذلها » .

وتنتهى رحلة البحر فى مرسيليا حيث أقاموا يومين وبعدها الى باريس وقد أصبحوا أربعة بعد أن انضم اليهم الملاح يعقوب صاحب برهان الدين ، وتطرد المسامرات كل فى مناسبتها ويمضى يعقوب فى تعليم برهان الدين ما يعلم ، ويقص عليهم قصته ، وكيف نجا وحده من الغرق بعد أن تحطمت سفينته فوقع فى أسر جماعة من السود ، وينساق به الحديث الى شعوب أفريقية ويتشعب الى غيرها مما طاف به فى حياته من عجائب وغرائب ، ويحمل حديثه الشـــيخ الى أشباهه من قصص العرب كقصة « الزباء وجذيمة الأبرش » الا أن عجيب ما يرويه يعقوب يفوق ما عداه وكأنما نطالع قصص السندباد البحرى فى ألف ليلة وليلة » .

وتفتح لهم باريس ميادين لمسامرات جديدة فى وصفها ووصف معالمها وأسواقها وتاريخها ويقص عليهم الانجليزى أو (الخواجا) ما كان من مذبحة الهيجنوت ومكر « دى مديتشى » بهم فيقول ان

« سبب هذه الفتنة أن امرأة يقال لها (مارى دوميديس) دست علـــــى الملك أن الملك لا يلتئم وراحة رعيته لا تتم الا اذا قطع البروتستانيون عن آخرهم » ويرى علم الدين أو (الشيخ) مكرها شبيها بمكر « الباسوس » التى أوقعت بين بكر وتغلب فقامت الحرب بينهما واستمرت أربعين عاما ، فيقص عليهم قصتها .

وتتوالى المسامرات على هذا النسق من أحاديث المعرفة التى تسوقها المناسبات الى قصة يعقوب وما حوت من عجائب ، ومن المشاهد التى يجتليها الوصف من واقع الرؤيا الى أشتات من المعلومات الجغرافية والتاريخية والصناعية ومعالم الطبيعة والتاريخ الطبيعى حتى ينتهى الكتاب بالمسامرة الخامسة والعشرين بعد المائة عن الأشجار والزهور . يتركنا بعدها على مبارك ونحن لا نعلم شيئا مما صار اليه أمر هذه الجماعة وقد تركهم يجتلون جمال بستان « من الأشجار والأزهار » فى ضاحية من ضواحى باريس ، ولا ندرى أكانت هذه النهاية المبتسرة هى النهاية التى أرادها للكتاب أم كان ينوى أن يضيف اليه مسامرات جـــديدة تسبق النهاية الطبيعية لقصة علم الدين مع صاحبه الانجليزى وأهله فى مصر ، فان أمثال هذه الكتب الموسوعية التى لا يربط فصولها رباط يمكن أن تمضى الى أبعد ما يريد لها الكاتب أو يقتضيه جهده ، فالمعرفة الانسانية أكثر من أن يتسع لها كتاب أو يشملها مؤلف مهما تعددت صفحاته ، وعلى أية حال فقد ترك على مبارك أبطال قصته دون غاية أو مصير .

ولعله لم يرد لكتابه ـ وهو الأرجح ـ أن يكون قصة متكاملة تتسق فيها البداية والنهاية على الأقل ، ولكنه أراده كتابا للمعرفة يلتقى فيه الشرق والغرب على وفاق . فيدفع بالموجة الغربية الى بلاده من غير استعلاء أو شعور بالنقص ، فكان بعمله هذا معلما من أرفع طراز .

أثره الخالد دون شك ، ولو لم يكن له غيره ــ كما قلنا ــ لكفاه به خلودا على الزمن وما أعجب أن يقوم الرجل بهذا الجهد الضخم فى حياة لم تهدأ من زحمة العمل الرسمى ، ولم يتحرر فيها الا هونا من وقر الوظيفة وأعبائها الثقال ، حتى أحاطت الشكوك بأن يقوم بهذا العمل الضخم وحده ، فضلا عن أعماله الأخرى ــ فقيل أنه سخر معاونيه فى كتابته وجمع مادته ، الا أننا نرى أسلوب الكتاب يطرد على وتيرة واحدة مما يدل على أنه قام بكتابته وحده ، فاذا كان قد استعان بمعاونيه على جمع مادته ، فان كتاب الموسوعات ــ وخاصة فى الوقت الحاضر ــ يستعينون بعدد من المعاونين والمترجمين ، يجمعون لهم المادة العلمية من كافة مصادرها ثم يقومون هم بترتيبها وتبويبها وصياغتها فى الأسلوب العلمى بعد تحليلها والتعليق عليها .

فاذا كان على مبارك قد استعان على جمع معلومات الخطط التوفيقية بمعاونيه فى الادارات والوزارات المختلفة التى تولاها ، فان هذا لم يتعد جمع المصادر من الأضابير والمحفوظات فى كل ادارة ووزارة بعد تحديدها لمعاونيه ، ولا نظن أن عملهم قد تجاوز ذلك ، ولعله قد اضطلع وحده بالرجوع الى المصادر الفرنسية ، فكثيرا ما يشير الى الموسوعة التى وضعها علماء الحملة الفرنسية فى « وصف مصر » ويدعوها « خطط الفرنساوية » تارة ، وتارة أخرى « خطط مصر للفرنساوية » ولا يفوته أن يرجع الى بحوث المستشرقين وكتب الأجانب الذين زاروا مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كالرحالة « فانسلب » و « سافارى » ويسميه « سوارح السواح الفرنسى » وكتابات من عاشوا فى مصر وعملوا بها من أمثال « كلوت بك » أو « قولوط بك » كما يكتب اسمه ويرجع فى كتابة تاريخ مصر القديم الى « هيرودوت » و « ديودور

الصقلى» و «سترابون » من قدامى المؤرخين ، والى « ماريت » و « شامبليون » من المحدثين .

ولا يكتفى بالمصادر الخطية والمنشورة ، بل يعود الى الأحياء من المعاصرين فيستكتبهم سيرهم وحين يؤرخ للكنيسة القبطية ورجالها يرجع الى « أكابر القسس الشهيرة بمصر » ـ كما يقول ـ ويفيد من الدراسات التى قام بها معاصروه كدراسة محمود الفلكى لجدران أسوار الاسكندرية .

وصدرت الخطط ـ ويسميها « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » ـ فى عشرين جزءا ، على نسق خطط المقريزى ، « وفن تأليف كتب الخطط ـ كما يقول الشيال (١) ـ فن مصرى أصيل ، نشأ فى مصر الاسلامية وفيها دون غيرها من الأمصار الاسلامية نما وترعرع ، وأول من ألف فيه الكندى ، ولم يكن يمضى قرن بعد ذلك حتى يظهر فيه مؤلف أو أكثر يكتبون فى خطط مصر ، وكان آخرهم تقى الدين المقريزى عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى » . وقد أفرد الأجزاء الستة الأولى لمدينة القاهرة ، والسابع للاسكندرية ، ومن الثامن حتى السابع عشر لمدن مصر ، وخص النيل بالجزئين الثامن عشر والتاسع عشر ، تناول فى أولهما مقاييسه وأعياده واحتفالاته منذ أقدم العصور ، وتحدث فى الثانى عن رياحاته وترعه ومنشئاته . وأرخ فى ختام الأجزاء للنقود المصرية فى عصور الاسلام .

وسار على مبارك على نهج المقريزى فى تدوين الخطط التوفيقية « فتتبع ـ كما يقول الشناوى ـ مدن مصر وقراها .

---

(١) الدكتور جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون ص ١٠٥ .

(٢) الدكتور عبد العزيز الشناوى : بحث عن الخطط التوفيقية المجلد الرابع ع ١١ من تراث الانسانية .

ووصف طبوغرافيتها ، فكان يتحدث عن موقع المدينة أو القرية أولا ، ثم يؤرخ لها من أقدم العصور الى الوقت الذى اندثرت فيه أو حتى القرن التاسع عشر اذا كانت لا تزال قائمة ، ويصف ما بهـــا من منشئات ومرافق عامة مثل المساجد والزوايا والأضرحة والكنائس والأديرة والمدارس والكتاتيب والوكائل والحمامات والمستشفيات والمصانع والقصور والدور ويثبت ما أصابها من تغيير ، ويقرن هذا الوصف الطبوغرافى المسهب بترجمة لمن برز فى كل بلدة ممن ولدوا بها أو عاشوا فيها أو دفنوا فى ثراها » .

ويقول على مبارك فى الأسباب التى حملته على كتابة الخطط أن « مدينة القاهرة المعزية التى هى دار الحكومة الخديوية قد كثر ذكرها فى كتب الخطط والتواريخ والسير ووصف ما كان بها من المبانى والبساتين وهى الآن غيرها فى تلك الأزمان لتغيرها عما كانت عليه زمن الفاطميين الذين اختطوها بتغير الدول وتقلب الأزمنة ، وكانت تارة يؤثر فيها الزيادة وتارة النقصان ، فترى أحيـــانا زاهرة زاهية وطورا واهنة واهية . ولم تر منا معشر أبنائها من يهدينا الى تلك التقلبات ويفقهنا أسباب هاتيك الانتقالات ، ويدلنا على ما فيها من الآثار فنجوس خلالها ولا نعرف أحوالها ونجوب اقطاعها ولا ندرى من وضعها وقد خطها العلامة المقريزى لوقته وأطال القول فيما فيها من المبانى والمزارع وتكلم عن الحوادث والرجال ولكن بعده كم من أمور مرت فدمرت وغير جرت ففيرت ، حتى ذهب أكثر ما أسهب فى شرحه كليا وزال حتى صار نسيا منسيا وكم من آثار خيرية صار نفعها مندثرا مهجورا ومصـــانع وصنائع قد دثرت كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وكم من تلال كانت عمارات شاهقة ووهاد كانت بساتين معجبة فائقة وقبور مزوية فى جوانب الحارات ومشاهد متباعدة فى الفلوات أطلق عليها العامة أسماء كاذبة كقولهم هذا ضريح الأربعين مثلا ، وكم من مساجد نسبوها لغير من بناها ومعابد أسندوها لمن لم يكن رآها ، والحقيقة

انها قبور ملوك عظام ، أو معابد سادات كرام أو مساجد أمراء فخام مع أن معرفة ذلك حق علينا اذ لا يليق بنا جهل بلادنا والتهاون بمعرفة آثار أسلافنا التى هى عبرة للمعتبر وذكرى للمذكر فهم وان مضوا لسبيلهم فقد تركوا لنا ما يحثنا على اقتفاء آثارهم وأن نصنع لوقتنا ما صنعوه لوقتهم ، وأن نجد فى طرق الافادة كما جدوا ، دعتنى نفسى لتأليف كتاب واف بما لمصر من قديم وحديث متضمن لذكر مبانيها الدائرة والموجودة وما يتبع ذلك من أخبار أربابها وذكر نيلها ومنافعه وكيفية تصرفاته ومواضعه » .

وسار فى تأليفه على المنهج العلمى للتأريخ فى القرن التاسع عشر وهو المنهج الذى اتبعه رفاعة الطهطاوى ويقوم على حشد الأسانيد والمصادر والوثائق قديمها وحديثها على اختلاف ألوانها فيما نسميه بالطريقة التراكمية ، أو المنهج التراكمى ، وهى بتوخيها للدقة والأمانة فى النقل والرواية لا تستطيع أن تتجنب الخطأ فنراه يذكر من الغرائب ما لا يقبله المنهج التحليلى الحديث اذ يذكر مثلا عن جبل سرنديب نقلا عن ابن بطوطة أن به قدم آدم عليه السلام وينقل عن هيرودوت أن عدد العمال الذين أقاموا الأهرام كانوا ثلاثمائة وستين ألفا ، أو ينقل النص كما هو دون تعديل ، فنراه يذكر لويس التاسع قائد الحملة الصليبية على دمياط والمنصورة بأنه « روا دفرنس » كما دعاه المقريزى من غير أن يشير الى اسمه ، ويسمى أبا الهول « الصنم » كما سماه المقريزى من قبل .

الا أن الطريقة التراكمية على ما فيها من عيوب ، لقد أصبحت الأساس لعملية التجميع التاريخى الذى يسبق الفحص والتمحيص بما تحشده من مصادر أمام المؤرخ ، وكان على مبارك جماعا ماهرا وذاكرة تعى الجزئيات كما تعى الكليات ، فأفاد من الكتب القديمة والحديثة على السواء ورجع الى الوثائق والمحفوظات وحجج الأوقاف وكافة المصادر الأخرى واضاف الى تاريخ مصر القديم

ما كشفت عنه آخر البحوث الأثرية . ويشير الى ذلك، فيقول :
« ان أكثر الآثار القديمة كالأهرام والبرابى وغيرها مما بقى من أعمال الأمم الماضية والقرون الخالية لم يكن الغرض من ذكرها الا كونها من عجائب الدنيا . ومعلوم أن الكتابة الطبرية المعروفة بالهيروجليفية لم تتكشف حقيقتها الا فى هذا القرن فقد وقف الافرنج على حقائقها من الكتابات الباقية على جدران الآثار المصرية والمبانى الفرعونية ، وأخذوا مجدين اليوم فى توسيع دائرة علمها ، فالتزمت أن أطالع ما كتب بخصوص تلك الآثار والخص ما فيه الفائدة من غير أطالة ولا اكثار » .

واستغرق تأليف الخطط بضعة عشر عاما فقد ظهرت عام ١٨٨٨ ، وكان حينذاك وزيرا للمعارف فى وزارة رياض الثانية بينما تشير أحداث الخطط الى وقائع انتهى بها الى سنة ١٨٧٤ وأخرى الى سنة ١٨٧٦ مما يدل على أنه فرغ من كتابة تلك الوقائع فى تلك السنوات ، وانتقل الى غيرها فى السنوات التالية حتى انتهى من كتابتها ونشرها فى التاريخ المذكور .

والخطط التوفيقية أضخم عمل فى تاريخ مصر فى القرن الأخير وقد ينتهى القرن العشرون دون أن يظهر ما ينازعها هذه المكانة .

من عهد الى عهد

لحق عصر محمد على ونشأ فى مدارسه ، فكان ربيب دولته ، وثمرة غرسه ، رافق بعثة الأنجال الى فرنسا سنة ١٨٤٤ ، أفنديا من الأفندية ، اذ كان الأمراء فيها هم أصحاب السعادة البكوات ، وأبناء الذوات هم الذوات ، وغيرهم الأفندية ، ومن هؤلاء الأمراء ــ أصحاب السعادة البكوات ــ كان الخديو اسماعيل ومن أبناء الذوات ــ البكوات ــ محمد شريف باشا ناظر النظار ومن الأفندية أمثال على مبارك كان نوبار باشا ناظر النظار أيضا ثم حماد باشا عبد العاطى وعلى باشا ابراهيم .

وفى المدرسة المصرية التى أنشئت لهم بباريس كان لكل أمير فراش ، وللبكوات جميعا فراش واحد ، وللأفندية فراشان ، ومائدة الأمراء مشتركة بينهم وبين البكوات ، ولكل من الأمراء « غرفة للنوم وبهو وغرفة مكتب ، وكل من البكوات له غرفة نوم ولهم جميعا بهو خاص يجتمعون فيه ، والأفندية لكل جماعة منهم غرفة نوم واسعة غير مزينة ولكنها مفروشة فرشا لائقا » (١) .

وعاد على مبارك من البعثة مع رفيقيه حماد عبد العاطى ، وعلى ابراهيم أوائل حكم عباس ، وكان من أمره وأمر رفيقيه ما عرفنا ، ومضت الحياة بهم يتلاقون ويفترقون فى خدمة مصر وخدمة الخديوين عباس وسعيد واسماعيل وتوفيق وشهدوا مرحلة التحول

---

(١) عمر طوسون : البعثات العلمية ص ١٨٤ .

الخطير فى تكوين المجتمع المصرى وفى أفكار المصريين فى تلك الآونة ، وكانوا هم أنفسهم من معالمها البارزة . حين قفزوا من صفوف الفمار الى صفوف السادة من الحكام ، فكانوا ومن شابههم نواة لطبقة مصرية أخذت تبرز وتشارك الطبقة التركية الثراء والجـــاه بما نالته من وظائف الدولة ولكنها تلوذ بالخديوين ولا ترى للأتراك منة عليها فهى ربيبة البيت العلوى وصنيعته لا يفضلها الأتراك فى هذا ، فبرهم جميعا من بر ولى النعم وخيرهم من خيره وان كانت ترى نفسها ـ لقدرتها وكفايتها ـ أولى من الأتراك بمناصب الدولة ووظائفها الكبرى ، وان بقيت تدين بالولاء للخديو وللنظام القائم دون الطبقة التركية ذاتها كطبقة ، وبجانبها نشأت طبقة من أعيان الريف كان العمد والمشايخ نواتها الأصيلة ، قدر لها أن تبرز وتظهر بقيام مجلس شورى النواب حيث قضت لائحته الأساسية أن « يتألف من عدد لا يزيد عن خمسة وسبعين عضوا ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ، ويتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها فى المديريات ، وجماعة الأعيان فى القاهرة والاسكندرية ودمياط » (١) فجاء ممثلا بطبقة مصرية صميمة لعبت دورا هاما فى أحداث السنوات التالية ، وغدت أساسا لطائفة مميزة من كبار الملاك المصريين .

وبقدر ما كانت طبقة الموظفين المصريين ممن نشأوا فى مدارس محمد على تدين بولائها الحقيقى للخديو وللنظام القائم ، كان ولاء هذه الطبقة الناشئة من الأعيان يتجه الى ذاتها ومصالحها فهى لا تدين بالولاء للخديو الا بقدر ما يعود به الولاء عليها من مكاسب ، وهى أقدر بدهائها الطبيعى على مصانعة الخديو ، بل ومصانعة كل صاحب نفوذ فى سبيل مكاسبها ، مما يفسر موقفها المتقلب من الثورة العرابية ومن الاحتلال البريطانى والخديوية بعد ذلك .

---

(١) الرافعى : عصر اسماعيل جـ ٢ ص ٩٣ .

وبينما كانت الطبقة التركية تشعر بالنقص ممزوجا بالتعالى أمام البارزين من رجال الدولة المصريين وأغلبهم ممن نالوا تعليما عاليا وثقافة رفيعة فى الخارج ، كانت لا تلقى بالا الى تلك الطبقة المحدثة من أعيان الريف التى تتمسح بها وتتقرب اليها وتحاول أن تحاكيها فى حياتها وفى سلوكها وفى « أبهة الذوات » التى تميزها ، وكان الأعيان يقابلون انكار الأتراك لهم بالتغابى والتجاهل دون أن يثيروا حفيظتها ، وما كانوا يملكون غير هذا ما دام الحكام وأصحاب النفوذ منهم وان ظلوا يحملون لهم كل مقت وكراهية .

كانت تلك هى الصورة التى انتهى اليها البناء الاجتماعى فى تلك الآونة من عصر اسماعيل نغفل منها السواد الأعظم من الغمار فقد ظلوا بعيدين عن التأثير فى سير الأحداث ، وما كان يعنيهم غير الأمن والقوت وسلامة عوائدهم ومأثوراتهم من الزيغ والزلل ، فما نالهم خير من قبل وما زالوا يعيشون فى عصر اسماعيل كما كان يعيش أجدادهم فى عصر محمد على وفى ظل احتكاره ، وقبل عصره حين كانوا خاضعين لنظام الالتزام وبطش السناجق .

وشهد على مبارك هذا التغيير فى البناء الاجتماعى وكان يعتقد انه سيمضى قدما حتى « نحل محل هؤلاء الشراكسة » اذا ما انتشر التعليم بين المصريين ، ولم يكن يتعجل هذا التغيير ، اذ يراه أمرا مقضيا لا يعوزه غير الصبر والأناة فيحذر الضباط من العنف والثورة مخافة أن ينتهى العنف الى غير ما يأمل .

وبقدر ما كانت عوامل التغيير فى البناء الاجتماعى هينة لينة ، بقدر ما كانت عنيفة عارمة فى التحول الفكرى ، ثم « توالت الأحداث فزادتها عرامة وعنفا ، ولعل الحساسية من هذا التحول الفكرى الجديد هى أول ما كشف عن بوادره ، فحين غضب عباس على رفاعة الطهطاوى مما رآه فى كتابه « تخليص الابريز » من آراء لا تعجب الحاكم المستبد ، وحين ظن على مبارك أن عزله عن مناصبه

كان بسبب ما ألقاه الواشون « كاسماعيل صديق وأضرابه » الى الخديو اسماعيل من « أن كتابنا تخبة الفكر الذى أمرنى بتأليفه فيما يتعلق بأمر النيل مشتمل على ذم الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها » كان هذا ارهاصا بما يمكن أن تثمره هـذه الأفكار الجديدة أو تصير اليه وان لم يكن منها خشية فى حينها فما نظن محمد على قد همه ما جاء فى « تخليص الابريز » من حديث عن الدستور الفرنسى وثورة الفرنسيين على شارل العاشر ، ولا نظنه رأى فيه مآخذا يؤخذ به صاحبه ، فقد لقى بعضا من حفاوته وحاز اعجابه فأمر بطبعه وتعميم « قراءته فى قصوره وتوزيعه عـــلى الدواوين والمواظبة على تلاوته والانتفاع به فى المدارس المصرية » (١) وما نظن «عباس» حين أبعد رفاعة الطهطاوى الى الخرطوم قد فكر فى « تخليص الابريز » أو استمع لواش فى حقه وانما كان يجرى جريه ويمضى فى السياسة التى رآها أصلح لحكمه (٢) ولا نعتقد أن اسماعيل قد ظن سوءا بعلى مبارك أو صدق ما قيل عنه على لسان اسماعيل صديق وأضرابه ، والا لبطش به ـ فما كان على مبارك أعز عليه من اسماعيل صديق الذى لقى أبشع مصير على يديه وهو رفيق عمره وتوأم رضاعه ـ ولعل اسماعيل حين خلع على مبارك من مناصبه كان يقصد ارضاء اسماعيل صديق وكانت له حينذاك أعلى منزلة لديه فلم يمض وقت قصير حتى أعاده الى كل مناصبه ولعل اسماعيل صديق الذى يكره على مبارك قد اكتفى بما ناله أو لعل ثورة غضبه انفثأت بذلك .

فما كان عباس يظن سوءا فى رفاعة الطهطاوى وما كان اسماعيل يرى دخلا فى نفس على مبارك وما كانا يريان فى كتاباتهما خطرا على

---

(١) المؤلف : رفاعة الطهطاوى ص ٩٢ ـ ٩٣ (حلية الزمن ص ٦١) .

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ .

الحكم ولم يكن فيها حقيقة ما يسيء الى الحكم أو يقبح عملا من أعمال الخديوين وما كان ولاؤهما للأسرة الحاكمة موضع شك فقد نشآ فى رحابها وتفيآ ظلالها ونالا ما نالاه بفضلها وما عن لهما أن ينقدا أو يتوجها بنقد الى الحاكم وما كانا بغافلين عن بطشه وقسوته وأنهما ليعرفان كما يعرف غيرهما غدر الخديوين وطغيانهم ولعل جزع على مبارك من الخديو اسماعيل كان فوق المألوف ، أو لعل اسماعيل نفسه كان قاسيا الى درجة تثير الفزع مما لا يفوت « يعقوب صروف » أن يذكره فى ترجمته لعلى مبارك (١) فيقول : « ولم نسمع أن وزيرا من الوزراء كان يجزع من ملكه كما جزع صاحب الترجمة من الخديو الأسبق ولم يكن هذا الجزع خاصا به ، بل كان شاملا كل حاشية الخديو » وكان ما نسب اليهما لونا من حساسية الجزع عند السادة قبل الغمار ، فاذا أراد انسان كيدا لكاتب أو مفكر فما نظنه يضنى فى العثور على ما يثير الشك أو الظنة فيما كتب أو قال . واذا أصاب انسان ضرا فسببه غضب الأمير ، ولا يغضب الأمير الا لسوء أو مظنة سوء تناله أو تنال حكمه .

فاذا كان الرجلان ـ شأن غيرهما من رجال الدولة ـ على هذا القدر من حساسية الجزع فكيف أتيح لهما أن يمهدا الأرض للتحول الفكرى وكيف نجحا فى تغيير التربة التى استقبلت عنف التحول وأنبتت سورة الغضب ؟

لقد اهتديا الى الأساس الذى يقوم عليه بعث مصر ونهضتها الحديثة ، فاستقامت حركة تجديد الفكر المصرى على يد رفاعة ، كما استقامت حركة التعليم على يد مبارك ، وكان رفاعة يدرك تماما أن جهده وعمله متعلقان برضاء الوالى ، ويعرف أن دعوته

---

(١) أعلام المقتطف ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

للعمران والتقدم والنهضة لا يمكن أن تسير دون عائق مالم يحذر الوالى ويترضـــاه حتى يضمن لدعوته حرية الحركة والانتشار فما كانت المدارس تفتح الا بأمره ، وما كانت الكتب تطبع وتنشر الا بارادته (١) وهو ما أدركه أيضا على مبارك حين عمل على مصانعة عباس والسير فى تياره لينقذ البقية الباقية من المدارس ، التى يتهددها عباس بالاغلاق ، كما استثمر غرور اسماعيل وطموحه فى اصلاح التعليم والتوسع فيه وتهيئة وسائل الثقافة لمن ينشدها من الناس وتيسير سبل المعرفة لمن يبتغيها منهم ، وجاء كل منهما مكملا للآخر ، فاذا كان رفاعة قد سوى الأرض للتجديد والتقدم ، فاستيقظت النفوس على الرغبة فى التجديد والتقدم ، فان على مبارك قد تعهدها ونماها باصلاح التعليم ونشره حين صدر فى نظامه التعليمى عن رغبة أعضاء مجلس الشورى ، وطموح اسماعيل لمحاكاة الغرب وهما فى غير هذا لم يكن لهما شأن بما يغضب الحاكم من مسائل السياسة أو غيرها .

وفى تلك الفترة ما بين رفاعة وعلى مبارك ، كانت الموجة الغربية بدورها تصفع عقول الناس بما لا يدع سبيلا للتعلق بالماضى أو الحذر من المستقبل ، فلم يعد هناك من ينكر ما جاء فى « تخليص الابريز » بعد أن رأى الناس امتداد الخطوط الحديدية بين البلاد واضاءة الشوارع بغاز الاستصباح واقامة الجسور والقناطر وفقا لأحدث المنشآت الهندسية ، وتعميم مياه الشرب النقية فى القـــاهرة والاسكندرية ، وتطهير الترع والرياحات بالكراكات ، واستخدام الآلات البخارية فى رفع مياه الرى ، وبعد أن رأوا أنماط الحياة الغــربية مستخفية حينا ، وسافرة أحيانا تنتشر بين المصريين يحببها اليهم من تلقوا علومهم بالغرب أو ارتحلوا اليه ، أو من نزح الى بلادهم من الغرب للاقامة أو العمل ، فأخذوا يحاكون الأوربيين

---

(١) المؤلف : رفاعة الطهطاوى ص ١٥٦ .

فى أزيائهم ومساكنهم ومأكلهم ، ويقبلون عـلى التعليم الحديث ، ويؤمون الندوات العلمية ، ويقتنون الكتب ويغشون المنـــازه فى الجيزة والجزيرة ، ودور الغنـاء والتمثيل ، وانتشرت الصحف الأدبية والسياسية تخوض فى شتى المسائل وتفتح مغاليق القلوب على أشياء جديدة لم يكن للناس بها عهد من قبل .

هذه الموجة الغربية التى امتدت الى عقول المصريين واستوت فى أذهانهم هادئة لينة بعد أن اطمأنوا اليها ، ما لبثت أن أصابها من العنف والتوتر ما أصاب الحركتين الفكرية والاجتماعية أيضا ، فكان التحول الذى شهده على مبارك وان لم يشهده رفاعة ، وان قدر لتلاميذه أن يشاركوا فيه بمقدار .

سنوات التحول :

وقد نرد القوى التى أثمرت التحول الى عصر محمد على أو الى ما قبل عصره بقليل ، حين رأى المصريون فيما جاء به الفرنسيون فى حملتهم على مصر وفى احتلالهم ثلاث سنوات حافلة ، أشياء جديدة لا عهد لهم بها واستمعوا الى أفكار أنكروها فى البداية ثم أخذوا يتمعنون فيها فتقبلها عقولهم ، وينكرها وجدانهم ، ثم جاء محمد على فعاق الموجة الغربية عن الامتداد فى بعض النواحى التى يخشى منها على كيانه وملكه ، ومهد لها فى نواح أخرى لا يرى فيها خطرا عليه ، فحول جهاز الدولة عن النظام المملوكى العثمانى القديم الى نظام أوربى حديث دون أن يخل بالأوضاع العثمانية للحكم والادارة فبقى الحاكم السيد المطاع الماكر الداهية المستبد الذى لا يستنكف وسيلة من الوسائل فى سبيل أغراضه ، ولا يطيق الى جوار ارادته ارادة أخرى وكان هذا شر ما ورثه بنيه .

الا أن موجة التقدم ـ كما قلنا ـ أخذت تمتد لا تعوقها قيود الحكم ولا ما تردت فيه البلاد من فقر بعد أن أرهقها محمد على

بطموحه وآماله العراض ، فلم يكن غريبا أن يتقدم أعضاء مجلس شورى النواب فى دورته الأولى عام ١٨٦٦ باقتراح تعميم التعليم الابتدائى لا لأن لائحة المجلس تقضى بأن يلم عضو المجلس ــ بعد ثمانية عشر عاما ــ بالقراءة والكتابة وأن يكون الناخب أيضا من الملمين بهما بعد ثلاثين سنة ، ولكن لأن الناس قد أخذوا يدركون أهمية التعليم وضرورته للتقدم ، هذا الادراك الذى لمع به ذهن على مبارك فزوده بالعزيمة والاصرار على الالتحاق بالمدارس حتى يكون مثل « عنبر أفندى » الذى وصل الى ما وصل اليه بالتعليم ، وهو الادراك الذى بقى يصفع عقله بالعزيمة والاصرار على نشر التعليم والمعرفة بين المصريين حتى ينالوا ما ناله الأتراك بالعصبية والتسلط ، وليحلوا محلهم فى يوم من الأيام ، فكان الاقبال على التعليم أول مظاهر التقدم الفكرى ، وأثرا من آثار الرخاء المادى الذى شمل البلاد أوائل عهد اسماعيل نتيجة لارتفاع أسعار القطن المصرى ونتيجة لظهور طبقة وسطى مصرية ، كان محمد على قد قضى عليها ، ولكنها أخذت تعاود الظهور فى أيام سعيد ، بعد أن أصدر اللائحة السعيدية فأباح للمصريين ملكية الأرض ، وبعد أن أفسح لهم المجال فى بعض المناصب الأدارية ، وفتح لهم مجال الترقى الى الرتب العليا فى صفوف الجيش وأثبتت هذه الطبقة الناشئة وجودها بانشاء مجلس شورى النواب وأخذت بكل ما لديها من طموح وتطلع الى الحياة والسيادة وقدرة على اثبات الذات تزحم الطبقة التركية ، وان ظلت عاجزة عن أن تزيحها عن مكانها ، ولم يستطع اسماعيل بالرغم من تركيته أن يعوق نمو هذه الطبقة الجديدة ، فقد اضطره طموحه واضطرته ظروفه أن يستعين بها .

ولم يفكر اسماعيل حين أنشأ مجلس شورى النواب فى أن يشرك المصريين فى الحكم ولم يكن يرمى الى تطبيق الحكم الدستورى فى مصر ، ولعله « لم يخطر بباله أن مثل هذا العمل قد يؤدى الى

اظهار طبقة ظلت بعيدة عن المشاركة فى شئون البلاد أو يقودها الى التقدم والبروز فى ميدان الحياة العامة » (١) ولكن الأحداث جرت به وبها الى غير ما كان يقدر والى غير ما كانت تظن هى نفسها ، وكانت أحداثا طارئة لأنها لم تجر وفقا للتطور الرتيب للأحداث التاريخية فقد حكمتها علل وأسباب كان من اليسير تحاشيها وتجنب مواجهتها لو لقيت شيئا من الحكمة وحسن التقدير ساقتها بالتحدى تارة وبالاستجابة تارة أخرى الى المجرى الذى سارت فيه على غير ما يأمل اسماعيل ، وعلى غير ما كان يرجو المصريون ، فأما اسماعيل فما نعتقد أنه ظن مسألة الدين يمكن أن تنتهى به الى هذا المصير ، وأما المصريون فمن المؤكد أنهم لم يرجوا لبلادهم هذا المصير وان لم يكن لهم يد فيه تشعرهم بثقل الضمير أو تلقى عليهم نوعا من المسئولية وان غدا عليهم أن يشاركوا فى الأحداث بقدر ما تجذبهم الأحداث اليها ، وبقدر ما يتاح لهم فيها ، فكان التحول الذى لم يخطر على بال اسماعيل أو بال المصريين ، وكانت سنواته القصار الحافلة التى لم تشهد مصر فى تاريخها الحديث أحفل منها بالأحداث ، ولم تقدر أبدا ما يمكن أن تنتهى اليه تلك الأحداث .

وكان الحدث الكبير الطارىء الذى لم يجر على سنة من التقدير السليم للعواقب ، أو تخطه الضرورة الملحة ، أو الارادة العامة للمصريين ، وانما كان نزوة من نزوات الفرد الحاكم ما كان للبلاد أن تقع فيها لو جرى التاريخ جريه السليم هو مسألة الدين .

ولعل التدخل الأجنبى كان بدوره ـ كالدين ـ طارئا هو الآخر فاذا افترضنا أن ديون اسماعيل كان من الممكن الا تتم لو قدر لغيره أن يحكم « وان كنا فى التاريخ لا ننساق وراء الفروض ، ونغفل من الأحداث مالم يقع حقيقة ، ولكننا نميز بين حدث تحكمه

---

(١) المؤلف : أحمد لطفى السيد ص ٣٦ .

الحتمية التاريخية وحدث تحكمه ظروف طارئة وان كنا لا ندين بالحتمية التاريخية أيضا ، كما لا ندين بالعلل الطارئة ، وكل ماندين به هو الواقعة أو الحدث التاريخي ومدى الحقيقة فيها . وقد جرى التاريخ فى تلك السنوات مجراه الذى انتهى اليه ولا يمكن تغييره ، ولكن اذا كانت ديون اسماعيل حدثا طارئا لم تكن ثمة ضرورة لوقوعه ، فمن الممكن أن نفترض أن التدخل الأجنبى وان جاء نتيجة حتمية لتراكم الديون الا أن ما حدث هو أن اسماعيل هو الذى ألقى لأوربا - كما يرى هيكل - بأول فكرة للتدخل فى شئونه وشئون مصر تدخلا ينتهى فى أمره هو الى الخلع وفى أمر مصر الى الخضوع لنير أوربا أولا وانكلترا أخيرا » (١) فقد أراد أن يصطنع جوا من الثقة يمكن له فى قرض جديد ، ولم تعد صديقته فرنسا بعد هزيمتها عام ١٨٧٠ قادرة على اضفاء هذه الثقة عليه ، فولى وجهه صوب انجلترا ، وانتهز فرصة مرور ولى عهدها بمصر وطلب اليه تعيين انجليزى مستشارا للمالية المصرية ، وأجابه ولى العهد بأن ذلك من شأن القنصل الانجليزى ، وبالرغم مما فى رد ولى العهد من التقريع ، فان اسماعيل اتصل بالقنصل ، وكتب هذا الى حكومته بطلب خديو مصر ، ولكن انجلترا أهملت الطلب ثم عادت تذكره بعد أن ابتاعت أسهم القناة فأوفدت الى مصر بعثة على رأسها « مستر ستيفن كيف لفحص شئونها المالية » وكانت البداية التى انتهت بانشاء صندوق الدين وفرض الرقابة الثنائية وقيام الوزارة المختلطة ، وكانت سنوات التحول الفكرى العنيف بكل متناقضاته وبكل ما فيه من عرامة حملت الأحداث معها الى العنف والثورة التى انتهت اليهما ، وهى السنوات التى تبدأ بالتدخل الأجنبى عام ١٨٧٦ وتنتهى بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، فكانت ست سنوات لم تشهد لها مصر مثيلا فى تاريخها الحديث .

---

(١) تراجم مصرية وعربية ص ٦٣ .

معالم التحول :

ولم يكن غريبا أن تكون الحملة على اسماعيل ونقده أبرز معالم هذا التحول ، فلم يعتد المصريون نقد الحاكم ، فحتى ذلك الوقت « كانوا يرون ـ كما يقول الشيخ محمد عبده (١) ـ شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب ارادته ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ولا يرى أحد منهم نفسه رأيا يحق له أن يبديه فى ادارة بلاده ، أو ارادة يتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به . وتضربه عليهم ، وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت اسلامية أو أوربية ، ومع كثرة من ذهب منهم الى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد على باشا الكبير الى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم الى ما جاورهم من البلاد الاسلامية أيام محمد على باشا الكبير وابراهيم باشا ، لم يشعر الأهالى بثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف ، ومع أن اسماعيل أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأنا فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأيا يرجع اليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل الهيئة الشورية لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل ، ولو حدث انسانا فكره السليم بأن هناك وجهة غير التى يوجهها الحاكم ، لما أمكنه ذلك ، فان بجانب كل لفظ نفيا عن الوطن أو ازهاقا للروح أو تجريدا من المال » .

وما كان الشعب ذاته فى نظر اسماعيل شيئا يخشاه أو يقيم

---

(١) زعماء الاصلاح ص ٦٣ .

له حسابا فما هو الا كما يريده « العبد المطيع الذى يفعل ما يؤمر والبقــــرة الحلوب التى تدر الضرائب لاقامة الميزانية ، ولم تكن للحكومة ميزانية معروفة ، وانما كانت ميزانيتها ما تتطلبه شهوات عاهلها الذكى القاسى ، ولتحصيل هذه الميزانية غير المحدودة كان يكفى أن يقول اسماعيل (أريد) لتتحرك كل الحكومة كى تنفذ ارادته .. وكل موظف فى الحكومة كاسماعيل شهوة وقسوة ، وكان ما يطلبه اسماعيل يجبى من الناس أضعافا مضاعفة ، سدا لشهواته وشهوات هؤلاء الجباة الجناة ، والناس يجب أن يدفعوا ، أو يلقى بهم فى غيابات السجون يذوقون فيها أشــــد العذاب .. وأى عذاب .. كان رجال الحكم يومئذ من غير المصريين الا قليلا فلم تكن بينهم وبين مصر وشيجة رحم أو عاطفة مودة أو قربى تحرك فى نفوسهم بازاء المصريين المساكين معنى من الرحمــــة أو الانسانية بل كانوا من الأكراد والجركس والأرمن والألبانيين وكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد على عقولهم أقفالها لا يعصون اسماعيل ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » (١) .

فاذا كان الأمر لاسماعيل ولبطانته من أوشاب الأجانب الذين نشأوا فى رحاب محمد على وفى دولته ، واذا كانت دنيا مصر على رخائها له ولهم وليس منها للمصريين شيء الا الفقــــر والعذاب والسخرة والجلد بالسياط لا ينجو منه كبير أو صغير حتى يخشاه وزراؤه ويجزع من قسوته أقرب المقربين اليه ، فقد كان فيه « من دم محمد على اقدام لا يعرف التردد وبطش لا هوادة فيه وقسوة لا يتسرب اليها أمل فى رحمة » (٢) ، فلم يحبه المصريون ولم يحبوا أحدا من آله حكم أو ظل بعيدا عن الحكم ، فقد سامهم البعيد عن الحكم من الازدراء والتحقــــير بل والقسوة والتعذيب

---

(١) تراجم مصرية وغربية ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٨ .

والبطش اذا عصوا له أمرا ما كان يسومهم الحاكم بطشا وقسوة وتنكيلا .

لذلك لا يتحرك المصريون للتدخل الأجنبى ولما يتحركون وليس لهم من الأمر شيء ، أليسوا أغرابا عنهم كمن تدخلوا فى الحكم سواء بسواء ؟ وأكثر من هذا لم يترك حكامهم لهم شيئا يغضبون له أو من أجـــله .

فاذا كان لهم أن يغضبوا فمن اسماعيل وبطانته ورجال دولته الذين ساقوهم هذا المساق وساموهم الخسف والعذاب قبل أن تقع ببلادهم هذه الكارثة ، واذا كان اسماعيل قد زايلته صولته وقلم التدخل الأجنبى أظفاره ، فان فى نقد حكمه والتنديد بمساوىء الماضى تنفيسا عن كبت يرهق وجدانهم ويضنى أفكارهم ، فكان التحول من خشيته والخوف منه الى الجرأة عليه والتنديد بمساوىء حكمه ، وأوزار بطانته — ولم يكن لهم عهد بالجرأة عليه أو التطاول على بطانته — سمة هذا التحول الجديد .

وظهر هذا التحول على صفحات الجرائد أولا وفى مناقشات مجلس شورى النواب ثانيا ولم تكن الصحف قبل التدخل الأجنبى وقيام الوزارة المختلطة تعرض للحكم أو تجرؤ على نقده أو حتى على تناول موضوعات أو اثارة أفكار لا يرضى عنها الحاكم لأنهـا تنبه المصريين الى حالهم وحقوقهم فحين أصدر ابراهيم المويلحى وعثمان جلال صحيفتهما « نزهة الأفكار » عام ١٨٦٩ وغرتهما مظاهر التجديد الذى أخذ يدب فى الحياة المصرية ، فظنا أن لقلميهما حرية الكتابة على ما يهويان ، فعرضا فى العدد الثانى من مجلتهما بالنقد للجيش وشئونه (١) لم يطق اسماعيل هذا الاتجاه فأصدر أمره باغلاقها .

---

(١) أعلام الصحافة العربية ص ١٠٤ .

فلما تألفت الوزارة المختلطة برئاسة نوبار ومن أعضائها وزيران أجنبيان همـــا : « سير ريفرس ويلسون » الانجليزى للمـــالية و « مسيو دوبلنيير » الفرنسى للأشغال استفتحت أعمالها بأخطار رسمى لجميع الصحف « التى تتضمن الاعتراض بحالة خارجة عن حـــدود وظائفهم على مسلك الهيئة الحاضرة » (١) ولم تكن الصحف قد اعترضت على « الهيئة الحاضرة » بل ان « الوطن » وهى « صحيفة حرة ترحب بها ، وتثنى عليها ، فهى وزارة مسئولة لا تظلم ولا تقضى بغير ما يوحى به القانون وخاصة المسائل التى تتصل بالمال وجباية الضرائب » (٢) . ولا يخفى ما فى ترحيبها بالهيئة الحاضرة من تعريض بحكم اسماعيل .

وبالرغم من أن تعيين وزيرين أجنبيين فى الوزارة النوبارية كان قمينا بأن يثير الرأى العام والصحافة الوطنية ، الا ان الرأى العام ظل ساكتا لا يحرك ساكنا وكأن الأمر لا يعنيه ، وراحت الصحافة الوطنية ترحب بالوزيرين الأجنبيين وتدافع عن تعيينهما ، لا حبا فى الهيئة الجديدة ولكن أملا فى أن تصلح ما أفسده الحكم القديم ، وغدا ما كان يمكن أن يكون نوعا من التناقض الفكرى تفكيرا سويا ، فلم يكن اسماعيل ولا حكومته أفضل من هذه الحكومة الجديدة التى يسيرها فى الواقع وزيران أجنبيان .

ووجدت الصحافة الوطنية فى التغيير الجديد تنفيسا عما كانت تحجم عن قوله مخافة بطش اسماعيل ، فراحت تندد بالعهد القديم وتذيع مساوئه ، ولكنها لا تسكت على مآخذ الوزارة فتحمل على تعيين الأجانب وتذكر التجـارة « أن حرمان المصريين حقهم فى الوظائف بربرية أوربية لا يجوز السكوت عليها لأن القوم نازعونا الأرض المجبولة بدم آبائنا ، وأصبحوا أمراء فى بلادنا ، وهى امارة

---

(١) تطور الصحافة المصرية ص ٨١ ، وصحيفة التجارة فى ٨ يناير ١٨٧٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٨١ .

الاجير وملكية المستعير وتأصل الدخيل ، ولا لوم عليهم فى ذلك ولا تثريب ، فأن من لا يصون ماله يعلم الناس سرقته » وتهاجم الصحف الأجنبية « المطبوعة تحت سمائنا » لأنها لامت الوزير الفرنسى على تعيين مصريين للأعمــال الهندسية ، وتذكرها بأن « عهد الاستبداد وتقييد حرية الكتابة قد انتهى وان الآراء الحرة والفكرة الناضجة ليست وقفا على الفرنجة دون المصريين » (١) .

ولا تقتصر الحملة على العهد القديم والتنديد بمساوئه على الصــحف وحدها ، فنرى الفلاحين والسراة والتجار والأجانب يكتبون العرائض ويذيعون المنشورات فى مظالم العهد القديم فتنشر التجارة عريضة عمد بنى سويف عما فيه الناس من ظلم (٢) ويتقدم التجار الأجانب فى الاسكندرية بمذكرة الى قناصل الدول منددين بمساوىء العهد السابق ومفاسده ، وان كنا نلمس يد الحكومة فى التحريض عليها ، الا أنها قضت على التقليد السائد بعدم نقد الحكومة أو التعريض بها ، فلم يمض غير وقت قليل حتى رأينا من شكوا من مساوىء العهد القديم يشكون من مساوىء العهد الجديد ويحملون عليه كما حملوا على سابقه ، وتحطمت اسطورة الولاء المطلق للحكومة والحاكم .

أما مجلس شورى النواب وقد عاش فى الاطار الذى رسمه اسماعيل له لا يخرج عنه حتى كان الارتباك المالى ، فدعت الحكومة الى اجتماع غير عادى فى ٧ أغسطس ١٨٧٦ بمدينة طنطا للنظر فى قانون المقابلة (٣) وبدا أنها تعتزم الأخذ برأيه فى المقابلة ، وقد

(١) المصدر السابق ص ٨٣ ، والتجارة فى ١٠ أبريل ١٨٧٨ .

(٢) التجارة فى ٢ يناير ١٨٧٩ .

(٣) صدر هذا القانون فى ٣٠ أغسطس ١٨٧١ ويقضى بأن من يدفع ضريبة أرضه ست سنوات مقدما يعفى على الدوام من نصف المربوط على أرضه ، وأوقف العمل به بتوحيد الدين (٧ مايو ١٨٧٦) ثم عادت الحكومة اليه (١٨ نوفمبر ١٨٧٦) مع احتساب حصيلته فى ايراداتها وخصصتها لاستهلاك الدين العام .

رأى المجلس الابقاء عليها . وأشار الخديو فى خطابه الافتتاحى لدور الانعقاد العادى فى ١٣ نوفمبر ١٨٧٦ الى نزول الحكومة على قرار النواب فى شأن المقابلة (١) ، وبدا للنواب فى هذا الاجتماع ان الحكومة تشركهم فى المسئولية .

الا أن المجلس بقى بعيدا عن المشاركة الفعلية فى أحداث البلاد حتى قامت الوزارة المختلطة فى اغسطس ١٨٧٨ ، وعقد المجلس دورته الثالثة والأخيرة فى تاريخه (يناير - يولية ١٨٧٩) وقد بلغ التدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية أقصى مداه ، وغدا على الوزارة أن تواجه المجلس فى اجتماعه هذا ، وأخذت الصحف تحث أعضاءه على ممارسة حقوقهم فى النيابة عن الأمة فان « من أعضائه رجالا لا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، مع العلم بواجباتهم وحقوق الأمة وما ألم بها من الآلام . وبودهم لو افتدوا الاصلاح بدمائهم .. فبشروا أهل مصر بعصر جديد يغنى به طارف المجد عن التليد » (٢) .

ويتصدى المجلس للوزارة يسائلها فلا تستجيب ويتعجلها فتتلكأ ، ويماطل ريفرس ويلسون وزير المالية فى موافاته بمشروعات وزارته ، ولا ينتظر الأعضاء حضور وزير المالية فيستقر رأيهم على مناقشة خفض الضرائب والغاء بعضها فى غيبته ، ويعترض بعض أعضائه على اغفال المجلس فى المرسوم الصادر فى ٦ يناير ١٨٧٩ ويقضى بتقرير القوانين المالية فى مجلس الوزراء وتصديق الخديو عليها ، فمن حقه وحده أن يقرر كل ما يتصل بالأهالى ، وتؤيد الصحافة المجلس فى موقفه وتقول التجارة تعليقا على موقفه « أن فى السويداء رجالا سودتهم نفوسهم فلا تسام خسفا ولا تضام مسفا » (٣) .

---

(١) الرافعى عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٨٢ .
(٢) التجارة ١٣ ديسمبر ١٨٧٨ .
(٣) التجارة فى ٣ فبراير ١٨٧٩ .

وتعاب الصـــحف التى رحبت بقيام الوزارة المختلطة عليها وكانت تأمل من قيامها اصلاح سوءات الماضي فما ازدادت الا سوءا ، فنذكر مســاوىء البطانة الخديوية وتحمل على الوزارة المختلطة وتهاجم الأجانب والوزيرين الأجنبيين وتمدح موقف النواب وتؤيدهم وتناقش كثيرا من المسائل الفقهية كحق المجلس فى انتخاب رئيسه ، وحقه فى فرض الضرائب والمسئولية الوزارية وتطالب بفرض الضرائب على الأجانب « وخاصة الوزيرين اللذين يتقاضيان ستة آلاف جنيه فى السنة من شعب يتشدقون بافلاسه » (١) .

وتكتمل فى هذا الاطار أبرز معالم التحول الجديد ، فلم يعد الناس « يرون شئونهم العامة وبل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى » ــ على حد تعبير الشيخ محمد عبده ــ بل يرونها ملكا لهم وحدهم من حقهم أن يقرروها بأنفسهم ، ولم تعد ذات الحاكم مقدسة مصونة ــ ايمانا أو رهبا ــ وانما هو انسان يجرى عليه من النقد ما يجرى على غيره ، بل والقدح اذا أخطأ أو تنكب الهدى والخير .

قوى التحول :

كان الارتباك المالى وفرض الوزارة المختلطة سببا مباشرا فى تحول الرأى العام من خشية الحكومة والخوف من نقدها والتعريض بها ، الى الحملة عليها ونقدها والتشهير بأخطائها ومساوئها ،وكانت الحملة على البطانة الخديوية فى الحقيقة حملة على اســـماعيل ومساوىء حكمه ومظالمه وقد أفسحت الوزارة النوبارية «المختلطة» من صدرها للصحف فى نقد العهد القديم والتشهيربه لتصرف الانظار عن التدخل الأجنبى وتسكت عنها حين تحمل على ريفرس ويلسون وتتهمه بالجهل فى الأمور المالية ، ظنا منها أن تنفيس الصحف عما بنفسها « هو غاية ما تصبو اليه » (٢) ، ولكن الوزارة النوبارية

---

(١) تطور الصحافة المصرية ص ٨٦ .   (٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

تنشل فى مهمتها وتمضى الصحف فى الحملة عليها وعلى مساوئها التى فاقت مساوىء العهد القديم ، ولم يعد يعنيها أن تذكر العهد القديم بجانب ما انتهت اليه البلاد من سوء فى ظل العهد الجديد .

ورأى اسماعيل أن الفرصة تواتيه لاستعادة سلطاته التى جردته منها الوزارة المختلطة ولم تكن نزعته الى الحكم المطلق قد فارقته لحظة ، فكان مسلكه الجديد بداية أحداث تدفع قوى التحول الى المدى الذى انتهت اليه بخلعه وتولية توفيق وقيام الثورة العرابية فانتهز فرصة هياج الضباط وثورتهم على الوزارة النوبارية لاحالتهم الى التقاعد دون أن تدفع لهم متأخرات رواتبهم عشرين شهرا للتخلص من نوبار ووزارته واستعادة سلطاته . وكانت الخزانة قد عجزت عن الوفاء بمرتبات الموظفين والضباط ، ورأت من باب الاقتصاد احالة ٢٥٠٠ ضابط الى التقاعد ، فتحركت نفوسهم ضدها واجتمع منهم نحو ستمائة ضابط بزعامة البكباشى (المقدم) لطيف بك سليم ، وساروا بجمعهم يتبعهم بعض طلبة المدرسة الحربية والفا جندى قاصدين وزارة المالية ، وحين مرورهم بديوان وزارة الخارجية لمحوا نوبار خارجا منها فى عربته فأحاطوا به ، ولكنه لم يلق اليهم بالا وأمر سائقه بالمسير ، واستاء الضباط من لقائه ، فأمسكوا به وطرحوه أرضا وانهالوا عليه بالضرب . ورآهم ويلسون وهم يعتدون على نوبار فتقدم منهم يضربهم بعصاه فانثنوا اليه وشدوه من لحيته ، فلما نمى الخبر الى اسماعيل جاء بنفسه وأمر الضباط بالانصراف ، فانصرفوا طائعين مما حمل على الظن بأن له يدا فى تحريكهم وان نفى الرافعى ذلك مستشهدا بما رواه كرومر عن الحادث ـ وهو شاهد عيان ـ فى كتابه « مصر الحديثة » (١) .

ونجح فى التخلص من نوبار ولكنه لم يستعد سلطاته ولم

---

(١) تراجم مصرية وغربية ص ٦٨ ، وعصر اسماعيل للرافعى ج ٢ ص ٢٠٤ .

يتخلص من الوزيرين الأجنبيين اللذين أصبح لهما حق الاعتراض « الفيتو » على قرارات مجلس النظار ، فزادت قوتهما فى الوزارة الجديدة التى تألفت برياسة ولى عهده توفيق ، كما حيل بينه وبين حضور جلسات النظار ، وخسر ما أمل .

ولكن مظاهرة الضباط ــ سواء كانت بايعاز اسماعيل أو من أنفسهم ــ تغدو بدورها ذات أثر بعيد فى التحول الذى تجتازه البلاد وان لم يبد منها حينذاك ما يوحى بأن يكون لها من القوة على فرض التحول ما بـــدأ جليا فى الثورة العرابية ، فقد كانت البذرة التى أنبتت ثورة الجيش بزعامة أحمد عرابى ــ وكان أحد المتظاهرين ــ حين غذتهم بالجرأة على مواجهة الحاكم وحطمت الحواجز التى تقوم بين الجيش والعمل السياسى .

ولا يرضى اسماعيل بالوزارة الجـــديدة ولا بازدياد نفوذ الوزيرين الأجنبيين ولا ببقاء رياض ضمن أعضائها ، فكان لموقفه منها ، ولموقف الوزارة نفسها من مجلس شورى النواب ، ثم لموقف شورى النواب من الوزارة ومن التدخل الأجنبى ممثلا فى وزيريه ما دفع الأحداث الى المدى الذى بلغته بخلع اسماعيل والفكر الى ذروته من التحول بالاصرار على الدستور وحق الأمة كاملا فى الحكم .

ويترقب اسماعيل الأحداث عله يجد فيها منفـــذا لاستعادة هيبته وسلطته ، فتواتيه بالخلاف بين الوزارة ومجلس الشورى ، حين ترى الوزارة التخلص من المجلس وتعلنه بفض دورته فيأبى الارفضاض ويجابه رياض الذى جاء يحمل اليه مرسوم فض الدورة بالرفض ، وكان ريفرس ويلسون قد تقدم بتسوية للارتباك المالى تعلن فيها الحكومة افلاس مصر كى تعامل معاملة المفلس فى شأن ديونها ، فهاجت الخواطر ، واجتمع الأعيـــان والنواب

والتجار والموظفون ورجال الدين وقدموا الى الخديو تسوية مالية يعارضون بها مشروع ويلسون ، وأبدوا استياءهم من الوزارة ومن الوزيرين الأجنبيين ، وطلبوا « أن تمنح الحضرة الخديوية شورى النواب الحرية التامة وجميع الحقوق فى كافة الأمور المالية والداخلية كما هو جار فى بلاد أوربا » وأن يكون انتخاب أعضائه « بكيفية انتخاب النواب المماثلة له فى أوربا » (١) وأن يتقرر مبدأ المسئولية الوزارية أمام المجلس .

وما أن أبلغ الخديو مشروع اللائحة الوطنية حتى عزل الوزارة وعهد الى شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة ، فبدأت بوضع قانون الانتخاب ، وما لبثت بعد شهرين وأربعة أيام من تأليفها أن نشرت فى ٤ يونية اللائحة الأساسية لمجلس الشورى ، وقد نصت على عدد النواب وحصانتهم البرلمانية كما نصت على المسئولية الوزارية ، وكانت قد أصدرت فى ٢٢ أبريل دكريتو يكفل حقوق الدائنين ، ويبقى على المراقبة الثنائية وصندوق الدين ، لم تقبله الدول ، واحتجت عليه ألمانيا والنمسا ، وحذت حذوهما انجلترا وفرنسا .

وشعرت أوربا بالقوى الجديدة التى تلعب دورها فى مصر ، وبعنف التحول الفكرى الذى يغذى المصريين بالحركة ويمنحهم القدرة على التحدى ، فتكالبت عليها ورأت الدول الأوربية فى عزل اسماعيل ما يعوق الحركة المصرية عن التقدم والنهوض ، ولجأت الى السلطان تستعديه على عزله بعد أن فشلت فى أن تحمله على التنازل عن العرش ووصلت برقية من الباب العالى بخلعه فى ٢٦ يونية ١٨٧٩ ، وبرقية أخرى فى نفس اليوم باسناد منصب الخديوية الى توفيق .

---

(١) من نص اللائحة الوطنية التى قدمها النواب والوطنيون الى الخديو والمحررة فى ٢ أبريل ١٨٧٩ .

وبعزل اسماعيل امتحنت القوى الطارئة التى غذت الأحداث بالحركة طوال السنوات الماضية بقوى أخرى مضادة ، كانت بدورها طارئة ، ولكنها تحكم الأحداث وتوجهها الوجهة التى انتهت اليها فيما بعد ، فلم يفكر الناس فى أن تنتهى الأحداث هذه النهاية الأليمة وان لم تهمهم هذه النهاية كما أهمت اسماعيل ، فلم يكن اسماعيل أثيرا لديهم وأن تشبع لهم ونزل على مطالبهم فى أواخر عهده فلاستعادة سلطاته التى اغتصبها الأجانب ، وقد جمع بينه وبينهم معاناة التدخل الأجنبى ، وانما الذى أهمهم أن يصل التدخل الأجنبى الى هذا الحد من القوة بعزل خديو البلاد ، ولكنهم يرجون الخير على يد خلفه ، فان ماضيه يشفع لهم بحسن الظن فيه .

لذلك لم يحرك المصريون ساكنا لعزل اسماعيل ، بعد أن أبقى توفيق على الوزارة الشريفية وظهر أنه يعطف على مطالب المصريين ويميل الى جانبهم ، ولكن توفيق وقد وقفت فرنسا وانجلترا تؤيدانه ضد الباب العالى عندما أراد الانتقاص من الحقوق التى نالها الخديو فى فرمان سنة ١٨٧٣ ، عرف لهما جميلهما ، وعرف أكثر من ذلك ألا يعول على المصريين الذين تخلوا عن أبيه ولا يعول على الباب العالى الذى يريد الانتقاص من حقوقه فلا يسكت عنه الا بعد أن تهدد الدولتان بتأييد استقلال مصر وانفصالها عن تركيا ، وكان توفيق رغم ما بدا من تقربه للأحرار قبل توليته ميالا — كأبيه وآله — الى الحكم المطلق فما ان وصل الفرمان بتثبيته حتى كشف عن ميوله وأقال وزارة شريف ، وألف وزارة برياسته ، وأرسل يستدعى رياض — وكان مع نوبار شبه مبعدين فى أوربا منذ أحسا جفوة اسماعيل منهما — وكلفه بتشكيل وزارة جديدة فكانت البداية التى أدت الى الثورة العرابية ، وان لم يخطر ببال أحد أنها يمكن أن تؤدى الى هذه النهاية ، فحتى ذلك الوقت لم يكن للجيش أثر فى سير الأحداث ، ولا نستطيع أن ندعى لمظاهرة الضباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ مثل هذا الأثر وان استغلها اسماعيل لأغراضه

وان عدت فى ذاتها سابقة خطيرة يمكن أن تتكرر فى المستقبل الا أنها لم تقم الا لمطلب خاص لا يتصل بأسباب الأزمة القائمة ودوافعها .

ولم يكن غريبا أن يسكت أقطاب اللائحة الوطنية من النواب والأعيان على عزل اسماعيل وعلى اقالة توفيق للوزارة الشريفية وتكليف رياض بتأليف الوزارة الجديدة على ما كان بينه وبينهم من قبل وما عرف عنه من ميل للحكم المطلق واستسلام للأجانب ، وأن يمتد السكوت بعد ذلك فلا يحرك المصريون ساكنا لتأليف لجنة تصفية الدين المصرى من الأجانب وصدور قانون التصفية بعد ذلك فى يولية ١٨٨٠ فقد صدمهم عزل اسماعيل ، ولكنهم أملوا فى خليفته خيرا ، فلما ظهرت نواياه ، غدا السكوت وهو ينطوى على كثير من النذر ، حال بطش رياض بينها وبين الانفجار الى حين ، فلم يتحرج فى بطشه من تجريد الفريق شاهين باشا كنج وزير الحربية السابق من رتبه وألقابه لاتصاله بالحزب الوطنى ، ومحاكمة السيد حسن موسى العقاد ونفيه الى السودان لاعتراضه على الغاء قانون المقابلة ، والغاء الصحف المعارضة وتعطيلها وانذارها .

الا أن بطش رياض وان عاق الانفجار ، لم يحل بين الناقمين وبين التعبير عما فى صدورهم فعمدوا الى العمل السرى ، ونشروا فى نوفمبر أول بيان سياسى طبعوا منه عشرين ألف نسخة ندروا فيه بالخديو وحملوا على رياض ومضوا — بعد أن فشل رياض فى تعقبهم — يعملون على اسقاطه فبعثوا « بأديب اسحق » الى باريس حيث أصدر جريدة القاهرة ، فكانت أعنف الصحف التى حملت على رياض وعلى سياسته ، وقاموا بتوزيعها فى مصر بالرغم من سلطان رياض وعيون رجاله كما يذكر « نينيه » (١) .

---

(١) John Ninet : Arabi Pacha, p. 37.

وهيأت كل هذه القوى مجتمعة لزعامة أحمد عرابى ، وللدور الذى ينتظره ، ولم يكن عرابى بعيدا عن الأحداث منذ البداية ، ولا عما يعتمل فى نفوس المصريين من مشاعر متناقضة ، ولكنها تأتلف على السخط مما انتهت اليه الأمور ، فالخاصة من الأعيان والتجار والموظفين يشكون من استبداد الحكومة وانصرافها عن الدستور ، وقد كان لموقف اسماعيل من هذه الطبقة فى أواخر حكمه ما يشجعها على الوقوف فى وجه الحكومة والتقـــدم بمطالبها الدستورية ، والعامة تشكو ضيق العيش وفدح الضرائب ووقر السخرة ولكنها تستسلم راغمة لمصير لا ترى فيه بارقة أمل ، والضباط يخشون التسريح والاحالة الى التقاعد ، ولكنهم جميعا ينفعلون بالأحداث ، وكانت أحداثا طارئة غير مبيتة تسوقها الظروف التى تبعثها وتبرزها — ويتفاعلون معها بالتحـــدى والاستجابة للمواقف الطارئة .

وكانت الثورة العرابية قمة الانفعال بالأحداث والتفاعل معها وجاء تعيين عثمان رفقى على ما عرف عنه من تعصب لأبناء جنسه من الجركس والترك — ليكون وزيرا للحربية فى مثل هذا الوقت ليصل بالانفعال الى ذروته ولعل اختيار عثمان رفقى لوزارة الحربية ما كان يعنى الاتجاه فى مثل هذه الظروف الى اضطهاد المصريين فى الجيش ولم يكن توفيق على تعصبه هو الآخر للترك ولا رياض على ما عرف عنه من تنكر وازدراء لأبناء جنسه من المصريين فى حاجة الى خلق مشاكل جديدة فى الوقت الذى تنوشهما فيه المشـــاكل من كل جانب ، ولعل المصادفة وحدها هى التى جعلت لقصر النظر مكانا فى دفع الأحداث وتسييرها ، فما كانت البلاد فى حاجة حينذاك الى قانون جديد للقرعة العسكرية يراه المصريون فى الجيش ضارا بهم ، وما كانت الحاجة ماسة الى اجراء تنقلات بين قادة الآلايات تضع الشراكسة مكان المصريين ، فقد كان اصدار قانون القرعة العسكرية فى ٣١ يوليه ١٨٨٠ ، ونقل الأميرالاى (العميد) عبد العال

حلمى قائد الآلاى السودانى الى ديوان الجهادية وفصل أحمد عبد الغفار قائمقام آلاى الفرسان وتعيين ضابطين من الجراكسة بدلا منهما الشرارة التى ألهبت وقود الثورة وحملت عرابى الى قيادتها حين اختاره الضباط المصريون لزعامتهم .

وكان موقف عرابى وصحبه رد فعل طبيعيا للانفعال بموقف عثمان رفقى ونواياه فأجمعوا على التخلص منه وتقدموا الى رياض بعزله ، وكان من اليسير أن ينتهى الموقف عند هذا الحد لولا أن رياض أرغى وأزبد وأنذر وهدد فلم يزدادوا الا ثباتا وائتلافا ليحموا أنفسهم مما يراد بهم ، فلما اعتقلوا فى ديوان الجهادية بقصر النيل لمحاكمتهم كانوا قد أعدوا العدة لمثل هذا الموقف ، فما لبث رفاقهم أن علموا باحتجازهم حتى أسرع آلاى الحرس من عابدين بقيادة البكباشى (المقدم) محمد عبيد الى قصر النيل فاقتحمه وفك اعتقال عرابى وزميليه ، وسار الجميع الى ميدان عابدين حيث وافاهم آلاى طره بقيادة البكباشى خضر ، ونزل الخديو على مطلبهم وعزل عثمان رفقى ، وعين محمود سامى البارودى صديق العرابيين وزيرا للحربية . وحقق عرابى أول انتصار له ، وارتفعت مكانته بين الجنود والضباط المصريين .

وكان من اليسير ألا تتفاقم حركة عرابى لو أن الخديو أحسن علاج الموقف ، الا أن توفيق بتردده وعجزه وقصر نظره دفعها الى التفاقم حين عزل البارودى عن نظارة الحربية وعين بدله صهره داود باشا يكن عساه ينجح فى القضاء على قوة العسكريين النامية ، وأمر الوزير الجديد بمنع اجتماعات الضباط ، وقام باجراء تنقلات بينهم شعر معها عرابى وصحبه بما يبيته الخديو من شر لهم ، فرفضوا تنفيذ الأمر وأبلغوا الخديو رغبة الجيش فى التحرك الى عابدين للتقدم بمطالبه اليه .

وكان عرابى قد أصبح شخصية مرموقة لا فى الجيش وحده

ولكن في كل أنحاء البلاد وعند كل المصريين ، فانه وحده دون الزعماء الوطنيين ، هو الذى تصدى للخديو ولحكومته المستبدة وأجبرها على تنفيذ مطالبه ، واعتقد الناس أن عرابى بما يملك من قوة الجيش وحده القادر على تحقيق آمال الأمة في الحكم الدستورى ، ووعى عرابى هذا الاتجاه وتفاعل معه واستجاب اليه ، فكانت مطالبه التى أعلنها للخديو في ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش وعزل شيخ الاسلام والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وفيها قال عرابى في حواره مع الخديو عبارته المشهورة « لسنا عبيداً ولا نورث بعد اليوم » (١) .

ويفترض « هيكل » أن قانون العسكرية كان أهم مطلب للجند « وربما اكتفوا به لو أن الخديو أجابهم فوراً اليه وأمرهم بالانصراف لكى تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب » (٢) وان كنا نستبعد هذا الفرض ونرى أن عرابى كان قد وعى الموقف تماما وتفاعل معه وأدرك أن زعامة الأمة مهيأة له وقد أصبح في الواقع أقوى شخصية في البلاد فتقدم وما كان يدور بخلده أن يكتفى بمطالب الجند او ينكص راضيا بما يعد توفيق ، ولعل الفكر راوده بعزل توفيق واعلان الجمهورية على نحو ما كان يدور برأسه ورأس صحبه (٣) وهو ما نعتقد أن عرابى كان ينتويه لو سارت الأحداث على هواه ، فما كان لأسرة محمد على مكان في نفوس المصريين وما أحبوها

---

(١) كانت تلك عبارة عرابى كما ذكرها بلنت في « التاريخ السرى للاحتلال » نقلا عن عرابى الا أن عرابى دونها في مذكراته على الصورة التالية ، قال الخديو : « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد احساناتنا » ورد عرابى « لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو أننا سوف لا نورث بعد اليوم » .

(٢) تراجم مصرية وغربية ص ٨٦ .

(٣) المصدر السابق : ص ٨٦ .

فى يوم من الأيام ، وما كان يربطهم بها غير الخوف والطمع ، الخوف من بطشها والطمع المستخذى فى نوالها .

ومضت الثورة العرابية فى طريقها ، فوصلت بالأحداث الى ذروتها من العنف وبالفكر الى غايته من التحول ، وعركت الأحداث القوى الجديدة بما ندت عنها من اتجاهات كان أبلغها ظهور طبقة مصرية صميمة أخذت تزحم الطبقة التركية وتزيحها عن مكانها سواء فى الوظائف المدنية أو فى صفوف الجيش ، ثم امتداد الموجة الغربية فى لين انقلب عنفا ، ووداعة أصبحت تنمرا حتى أسفرت فى النهاية عن عدوان طاغ ، أعاد الى الأذهان عدوان الغرب على الشرق ، ثم هذا التحول الفكرى الذى تمتد جذوره الى أيام الحملة الفرنسية ، وأينع على يد رفاعة حتى بلغ مداه وأثمر على يد الأفغانى ، وكان هذا التحول الفكرى هو الذى زود الأحداث بالقدرة على الحركة والاندفاع ، وفيه اكتملت قوى التحول على يد جمال الدين الأفغانى حين جاء فوجد التربة وقد مهدها رفاعة وعلى مبارك لبذره وغرسه .

الأفغانى :

وأعظم القوى فى هذا التحول ــ دون شك ــ كان جمال الدين الأفغانى ، لا يفوقه فيها غير قوة الأحداث التى دفعت الى التحول وأدت اليه ، الا أن الأحداث كانت شيئا عارضا وجاءت مرتبطة بآثارها ، يؤدى كل منها الى الآخر وانتهت آثارها بما انتهت اليه الثورة العرابية ، أما القوة الباقية التى ظلت تغذى النفوس بفيض من الأفكار وفيض من الالهام ، وتطبع العصر بطابعها الغلاب فهى القوة التى خلفها جمال الدين الأفغانى وأودعها ضمير مصر وأمة العرب والاسلام فحين وقفت القوى التى أدت الى الثورة العرابية عند حدود مصر لا تتعداها الى البلاد المجاورة ، امتدت دعوة الأفغانى فشملت بلاد العرب والمسلمين وان أثمرت فى مصر أكثر

مما أثمرت فى غيرها فلأن التربة كانت مهيئة لغرسه أكثر مما كانت فى أى بلد آخر ، فقد خرجت مصر من غمار العصور الوسطى قبل غيرها وامتدت اليها الموجة الغربية فلطمتها باليقظة قبل أن تلطم بها غيرها من بلاد الدولة العثمانية ، وجاء رفاعة الطهطاوى فبشر بها ، وكان على مبارك ثمرة من ثمارها فى حفاوته بالتعليم ونشر المعارف الحديثة بين المصريين .

وكانت اقامة الأفغانى بمصر نزوة من نزوات اسماعيل تدفعها المباهاة ويحفزها التفاخر ، فاذا كانت الآستانة قد ضاقت بالأفغانى ، فان القاهرة لا تضيق به أو بأمثاله واذا كانت السلطنة لا تحتمله ، فان الخديوية تحتمله وتحتمل غيره ، فما الخديو بأقل من السلطان وما القاهرة الخديوية بأدنى من آستانة السلطنة ، ان لم تفقها فى التحضر والارتقاء . وقد ظل اسماعيل طوال حكمه يرنو بعينيه الى الاستقلال عن الدولة العثمانية ويحاول أن يبدو وكأنه ند للسلطان ، وانه أولى منه بتقدير الدول الأوربية .

فلما أخرج الأفغانى من الآستانة ، وجاء الى مصر زائرا ، رغب اليه رياض باشا البقاء فى مصر ، وأجرت عليه الحكومة عشرة جنيهات شهريا ، وما كان رياض من أنصار الحرية ولا نظنه ممن كانت تستهويهم أفكار الأفغانى واتجاهاته ، ولا نشك فى أنه حين طلب اليه البقـــاء فى مصر كان ينفذ ارادة اسماعيل ، وما كان اسماعيل هو الآخر من رواد الأفغانى أو المتشيعين له على ما عرف من نزعته الى الاستبداد والحكم المطلق ، ولكنه يحب أن يبدو حاكما مستنيرا تتسع بلاده لكل ما تضيق به الدولة العثمانية ، وما دام قادرا على الحكم المطلق ، واثقا من سلطانه على الناس ، فليس هناك ما يخشاه من تحرر الأفغانى أو دعوته الى الحرية ، وكان اسماعيل قد بلغ حينذاك قمة مجده ، وظن فى غروره بعد حفل افتتاح قناة السويس أنه اصبح ندا للسلطان .

ولم يكن الأفغانى قد عاود نشاطه السياسى بعد رحيله عن الأفغان عام ١٨٦٩ ، ولكنه ظل يخاطب العقول والأفهام دارسا أو محدثا فى كل مكان يحل فيه سواء فى القاهرة أو فى الآستانة ، وكانت تلك قدرته التى انفرد بها ، فما كانت الكتب التى قرأها على طلابه فى المنطق أو التصوف أو الفلسفة شيئا جديدا عليهم ، فكم استمعوا اليها من غيره ، ولكنها منه تغدوا شيئا جديدا يضفى عليها من ثقافته الواسعة ومن ادراكه الناضج ما يحرر عقولهم من وقر الجمود ومن عبودية المسلمات القديمة ، فأحيا التفكير العقلى ووضع أسس النظرة العلمية الحديثة فى الفكر العربى .

وكان شامخ النفس يدين بحرية الانسان وكرامته فأخذ يحرر الفكر من نوازع الضعف والاستخذاء والنفس من خوف الضيم وذل الاستعباد ، ويكشف للناس عن « سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم » (١) فاستقاموا على ابتغاء الحرية ونبذ الاستكانة ، فلما جذبته الأحداث الى ميدان السياسة حركت فى نفسه ما انطوت عليه من ثورة على الاستبداد وثورة على الاستعمار فأوغل فيها بروحه ووجدانه وارادته وحملها على دربها الذى طرقته فى السنوات الأخيرة من حكم اسماعيل الى قيام الثورة العرابية فى أوائل حكم توفيق .

علم الأفغانى الناس كيف يفكرون ، وكانت الموجة الغربية قد لطمتهم بأفكار ومثل ظلوا حيالها فى تعلقهم بالقديم حيارى لا يقفون منها موقفا بينا حتى هداهم الى العقل يستوحونه اليقين والى المنطق يجتلونه البرهان فكان رائد الحركة العقلية فى الفكر ، كما كان رائد حركة فى اللغة والأدب وفن الحديث والسمر اتسمت بالانطلاق والتجديد ، فحرر الأدب من خدمة الأرستقراطية

---

(١) زعماء الاصلاح ص ٦٨ .

الحاكمة الى خدمة الشعب « يطالب بحقوقه ، ويدفع الظلم عنه ويهاجم من اعتدى عليه .. ويحرضهم أن يخرجوا من الظلمات الى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته الا بهم ولا غناه الا منهم ، وأن يلحوا فى طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوبة وأوحى الى الكتاب بالمعانى الجديدة التى يكتبونها وشجعهم على انشاء الجرائد يكتب فيها ويستكتب منهم من توسم فيه المقدرة » (١) وحرر اللغة من أساليبها المسجوعة ، ويصف الشيخ محمد عبده هذا الأثر فيقول : « كان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الاجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكرى وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد على ضعف فيه ومصطفى باشا وهبى على اختصاص فيه ، ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، واما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها ، ومن عشر سنوات نرى كتبة فى القطر المصرى ، لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصناعة ، وما منهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه أو قلد المتصلين به » (٢) ، وأقام من أدب الحديث والسمر فنا رفيعا تجلى فيه خاصة من المثقفين « تحسن السمر والحديث وتشقيق الكلام وحسن الاستطراد وتأخذ على السامع لبه من أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، والهلباوى ، ولطفى السيد وكلهم من تلاميذه فى هذا الباب » (٣) .

وعلمهم كيف ينكرون الاستبداد ويثورون عليه ، وكان يرى أن صلاح الحاكم من صلاح الرعية ، ويقول : « ان القوة النيابية لأى أمة لا يكون لها قيمة حقيقية الا اذا نبعت من نفس الأمة ، وأى

---

(١) زعماء الاصلاح ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٢) الرافعى عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٥٨ .
(٣) زعماء الاصلاح : ص ٧١ .

مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة له ، فهو مجلس موهوم موقوف على ارادة من أحدثه » فاذا اقتنعت الأمة بحقها فى الحكم ، طالبت بالمجلس النيـــابى وكانت قمينة بالمحافظة عليه والدفاع عنه . وكان مجلس شورى النواب منحة من اسماعيل لا رأى له ولا ارادة ، فأنكر أن تكون له قيمة أو أن يكون لأعضائه قوة على اثبات حقهم « على ما هم عليه من إقلة التنبه ، وضعف اليقظة وقلة الشجاعة » (١) . فلما رأى أعضاءه يتحركون ويتصدرون للتدخل الأجنبى ويقفون فى وجه الوزارة المختلطة ، أيقن أن البلاد قد نضجت للحكم النيابى وان حقها فيه لا ينكر ، فنراه يقول للخديو توفيق : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية واخلاص ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص واسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وارادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » وكان توفيق قد استدعاه الى قصر عابدين وقال له : « انى أحب كل خير للمصريين ، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الأسف ان أكثر الشعب خامل جاهل ، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة » . وخرج الأفغانى من عنده يخطب فى هــذا الموضوع ويستحث تلاميذه وأعوانه على الكتابة فيه فى حماسة وقوة (٢) .

---

(١) زعماء الاصلاح : ص ٧١ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٦ .

وحين شده التدخل الأجنبى الى ميدان السياسة من جديد أوغل فيها وقد نقم على اسماعيل استبداده وسياسته التى أدت الى تدخل الأجانب فى شئون مصر كما نقم على المصريين استسلامهم لاســـتبداده وتقاعسهم عن مقاومته ، وكان يكره الاســـتبداد بطبيعته ، كما يكره الاســـتعمار وقد بلاه وابتلى بشره فى بلاده الأفغان وفى الهند ، وها هو يعانيه فى مصر ويراه وقد تكالب على بلاد الشرق والاسلام يلتهم أطرافها ويتغلغل فى داخلها ويدل عليها بقوته وجبروته ، وبينما هو ينعى عـــلى المصريين استسلامهم وتقاعسهم ، ويذكرهم بمنعة آبائهم وأجدادهم اذ به يناشـــدهم « أن هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء » وبينا هو ينقد اسماعيل ويحمل على سياسته فى كل محفل اذ به يحمل رواده وتلاميذه من الكتاب والصحفيين على نقده وتبصير الناس بمساوئه فاكتملت على يديه مرحلة التحول الفكرى العنيف فى تلك السنوات القلائل التى عاشها فى مصر ، وقبل أن يغادرها منفيا عام ١٨٧٩ كان قد وضع بذرة الثـــورة العرابية .

على مبارك وسنوات التحول :

وعاش على مبارك هذه السنوات ، وعاش أحداثها الحوافل ، دون أن يشارك فيها أو تكون له يد فى سيرها ، ولعله لم يكن راضيا عنها ، وان كان قد مهد الأرض لها وسواها لغرسها حين أبقى على تلك القلة من المدارس التى أنشأها محمد على وأنقذها من شر عباس ، وحين قام على اصلاح النظام التعليمى فى عصر اسماعيل ومهد للناس وسائل الثقافة والمعرفة بانشاء دار الكتب وقاعة المحاضرات ومجلة « روضة المدارس » لنشر المعارف الحديثة ، وقد حشد لها أبرز علمـــاء العصر ومفكريه ، وما منهم الا وهو صاحب فضل على النهضة العلمية والفكرية فى البلاد وجعل على

رأسها رفاعة الطهطاوى ، وهو البشير الأول بحركة التجـــديد والبعث الحديثة .

وقد بدأت موجة التحول كما قلنا سنة ١٨٧٦ ، وهى السنة التى اختارها على مبارك لبدايتها وهو يؤرخ لها فيقول فى سرد أحداثها : « وبقيت على هذه الحال الى أن ظهر فى سنة ١٨٧٦ ميلادية قصور الحكومة عن أداء ما عليها لكثرة ما أصدرته من البونات ، وما أثقل كاهلها من الديون ذات الأرباح الكثيرة ، حتى أدى ذلك الى الحجز على أغلب أملاكها والى تداخل الدول الأجنبية فى أمورها ، وآل الأمـــر الى تعيين لجنة من معتمدى الأجانب ذوى خبرة للنظر فى المالية وفروعها ، وجعل فى هـــذه اللجنة دولتلو رياض باشا نائبا من طرف الحكومة المصرية ، فكان هو الذى عليه المعول فى معرفة الحقائق ، وتم الأمر بتقرير هيئة للحكومة على أسلوب جديد ، فترتبت فى سنة ١٨٧٧ ميلادية هيئة نظارة يرأسها دولتلو نوبار باشا فكنت من رجالها على ديوانى الأوقاف والمعارف ، وصدر الدكريتو من لدن الحضرة الخديوية من منطوقه أنى أريد عوضا عن الانفراد المتخذ الآن طريقا فى الحكومة المصرية ، أن يكون لهذه الهيئة ادارة عامة على المصالح ، بمعنى أنى أروم القيـــام بالأمـــر من الآن فصاعدا بالاســـتعانة بمجلس النظار والاشـــتراك معهم فى تسيير المصالح ، وأن يكون أعضــــاء مجلس النظار كل منهم كفيلا بالآخر يتفاوضون فى جميع المهمات ويتداولون الرأى فيها ويقررون ما تستقر عليه أغلبية الآراء ، وتصدر قرارات المجلس على حسب الأغلبية وأقررها بالتصديق عليها ثم ينفذها النظار ، فجرى العمل بذلك ، وأخذت هيئة النظارة فى ادارة المصالح على هذا النمط ، وشرعت فى تسديد الديون من ايراد البلاد ومن قرضة استدنتها من بنك روتشلد بلوندرة وهى ثمانية ملايين ونصف مليون من الجنيه الانجليزى ،

ورهنت فى ذلك أملاك العائلة الخديوية من أراض زراعية وغيرها بعد تنازلهم عنها للحكومة ، وكان مبلغ ايرادها سنويا أربعمائة ألف وستة وعشرين الف جنيه انجليزى وجعلت لادارة تلك الأملاك مصلحة مستقلة عرفت بمصلحة الدومين » .

وفى تلك السنوات كان على مبارك مستشارا لديوان الأشغال ، ثم اختير ناظرا للمعارف والأوقاف فى وزارة نوبار الأولى ـ الوزارة المختلطة ـ عام ١٨٧٨ وبقى بها حتى استقالت فى فبراير ١٨٧٩ ، وخلفتها وزارة توفيق لفترة قصـــيرة فبقى فيها ناظرا للمعارف والأوقاف كما كان فى الوزارة السابقة ، فلما سقطت وألف شريف الوزارة فى أبريل ١٨٧٩ لم يكن ممن اختارهم للعمل معه ، ولكنه عاد ناظرا للأشغال فى وزارة رياض التى تألفت فى سبتمبر ١٨٧٩ بعد أن تولى توفيق أريكة الخديوية ، وبقيت فى الحكم حتى طوحت بها ثورة الضباط فى سبتمبر ١٨٨١ فلم يعد الى الوزارة الا بعد أن انتهت الثورة العرابية واختاره شريف ناظرا للأشغال فى وزارته الرابعة عام ١٨٨٢ .

ولا ترى له خلال تلك السنوات العاصفة أثرا فى الأحداث أو رأيا فيها ، ولعله آثر أن ينأى بنفسه عن التيارات التى تحكمها وتوجهها سافرة كانت أو خفية ، فما كان لمثله وقد عرف بالفضل والأصالة ، الا يستشار فيها ، ولعل الثائرين قد سبروا غوره فما وجدوا منه تشجيعا ، فأهملوه وان لم ينكروه ، فقد آثر من ناحية أخرى ، كما توحى الأحداث الا يقف من الوطنيين موقفا اذا كما وقف رياض منهم ، وبقى على حياده يرقب الأحداث دون أن يشارك فيها أو يدلى فيها برأى ، فقد كان أميل ـ كما قلنا ـ لأن تجرى الأمور جريها الطبيعى بعيدا عن العنف والثورة . ولعله كان يرجو أن يحل الوفاق محل الخلاف بين الخـــديو والثائرين وقد عرفنا موقفه ممن قصده من ضباطهم يستشيرونه

فى أمرهم وفى موقف الترك والجركس منهم ، ولعلهم حين قصدوه كانوا يسبرون غوره ليعرفوا موقفه منهم اذا قاموا بحركة ضد الخديو ، فما من شك فى أن حركة عرابى قد سبقها تنظيم لصفوف الضباط المصريين فى الجيش ، وما من شك فى أنهم كانوا يتلمسون موقف البارزين من المصريين من نواياهم وما يضمرونه ، وكان على مبارك على قمة هؤلاء البارزين ، وما كان على اعتزازه بمصريته مطمن بخلاف رياض باشا واسماعيل صديق وأضرابهما من المصريين الذين برزوا فى مضمار الحياة العامة واصبحوا من « الذوات » كما كان يطلق عليهم فقد آثروا أن يلوذوا بالطبقة التركية ويصهروا اليها ويتشبهوا بها فى سلوكهم وفى حياتهم الخاصة متنكرين لأصولهم ولأرومتهم ، بل أن منهم من قطع كل صلة له بأهله وعشيرته حتى لا يلحق به ما كان يلحق بالمصريين من ازدراء الأتراك وتعاليهم . ولكن على مبارك وان أصبح من « الذوات » الا أنه ظل حفيا بأهله وعشيرته معتزا بانتمائه اليهم ، وكان فى كل ما يعمل ــ كما عرفنا ــ يبغى خير المصريين وتقدمهم . وعرف عنه الثوار هذا فأملوا أن ينحاز اليهم ، ولكنه على الأغلب لم يكن مؤمنا بنجاحهم ، وفى الوقت ذاته لم يكن يؤثر العنف ، فابتعد عنهم ولم يعادهم ولم يحمل عليهم . وانكب على عمله فى نظارة الأشغال لا يفرغ منه لتلك الأمور على خطرها ، وان ذكر الرافعى ، أنه كان ينصح العرابيين بالحكمة والهوادة (١) . فلما استقالت وزارة رياض ، وكان من أعضائها كما ذكرنا ، آثر الابتعاد التى دعا اليها الثوار فى ١٧ يوليه ١٨٨٢ ، وكانت الأزمة بينهم الى قريته ، كما نعرف من سياق حديثه عن الجمعية العمومية وبين الخديو قد بلغت ذروتها ، وبدأ العدوان الانجليزى على البلاد وانحاز الخديو اليهم اذ يقول : « وفى خلال تلك الأحوال كان قد

---

(١) عصر اسماعيل جـ ١ ص ٢٥٢ .

تشكل بالقاهرة مجلس عرفى بأمر العرابى للنظر فى المصالح ، وكثيرا ما عقدوا مجالس للنظر فى مسائل تعرض من طرف العرابى وحزبه وفى آخر مرة عقد مجلس بديوان الداخلية بالقاهرة ندب اليه كثير من الأمراء والعلماء الروحانيين وكنت قد حضرت من بلدى لقضاء بعض المصـــالح فكنت ممن ندب اليه » ويعنى هذا أنه لم يؤثر الابتعاد فحسب ، بل آثر أن يقف موقف الحياد من الثوار والخديو على السواء ، فلا نعرف أنه كان يتردد على بلدته من قبل ، بل أنه ليذكر حين استدعاه رياض سنة ١٨٨٨ ليتولى معه نظارة المعارف أنه كان فى بلدته « مشغولا بزراعة بعض أرض لى هناك ، كان قد مضى على نحوا من ثلاثين سنة لم أتوجه اليها بسبب كثرة أشغالى بمصالح الحكومة » . ولا نرى فى روايته الأخيرة ما ينقض روايته الأولى ، ولعلها تؤكدها ، فما قصد بلدته فى المرة الأولى الا ليبتعد بنفسه عن الأحداث وحين قصدها فى المرة الأخيرة كان يبغى العناية بأرضه بعد أن هجرها طوال تلك المدة ، ولو كان يتردد على بلدته لما « آلت الى التلف وصار أغلبها سباخا » كما يقول .

ولكن على مبارك وقد اختار هذا الموقف فى البداية ، رجع فاتخذ جانب الخديو فى النهاية وانحاز اليه كما يقول الرافعى (١) فى ترجمة حياته وان لم يشر الى هذا الانحياز فى تأريخه للثورة العرابية واكتفى بالقول بأن على باشا مبارك وأحمد بك السيوفى بقيا « بالاسكندرية ورجع الباقون الى العاصمة وأخبروا المجلس بأن الخديو أسير عند الانجليز ولا يمكنه الرجوع الى مصر » (٢) .

ولم يشر على مبارك الى موقفه هـــذا ، ولم يذكر أنه بقى بالاسكندرية اذ نراه يمضى فى روايته فيقول : « فعينت سفيرا

---

(١) عصر اسماعيل ــ جـ ١ ص ٢٥٣ .

(٢) الثورة العرابية ص ٣٩٨ .

الى الاسكندرية مع جماعة من الوطنيين ، فلما وصلنا الى الاسكندرية تكلمت فى عمل طريقة لما يوجب خمود نيران هذه الفتنة فأجاب الجناب الخديو وصارت المكالمة فى هذا الشأن مع رؤساء الانجليز لكن لم تنجح ، ذلك لمزيد نفرة العسكرية » .

وكان ما حدث أن الجمعية العمومية التى عقدت من أربعمائة من الأمراء ورجال الدين والنواب ووكلاء الدواوين والمديرين والقضاة والتجار والأعيان فى ١٧ يوليه ١٨٨٢ ، بعد ضرب الاسكندرية فى ١١ يولية ، اختارت وفدا « من ستة مندوبين من طرف المجلس ليتوجهوا الى الاسكندرية ويبلغوا حضرات النظار قرار المجلس ثم يدعونهم للحضور الى العاصمة وقد انتخب المجلس أعضاء لهذه اللجنة سعادة على مبارك باشا ، وسعادة محمد رءوف باشا من الذوات ، وحضرة أحمد بك السيوفى ، والشيخ سعيد بك الشماخى (وكيل دولة مراكش فى مصر) من أعيان التجار ، والشيخ على نايل ، والشيخ أحمد كيوه من العلماء » (١) .

الا أن على مبارك استمر فى سفارته بالاسكندرية ، فقد أبرق الى عرابى يقترح تأليف لجنة ممن ينيبهم من رجال الجيش تتقابل مع لجنة أخرى من الذوات ومعهم على مبارك للوصول الى تسوية يرضى عنها الجميع (٢) .

ويبدو أن الاقتراح كان بايعاز الخديو والوزراء ، ولعل الوزراء هم الذين أوحوا به وحملوا الخديو عليه انقاذا للموقف ، واختاروا لعرضه على مبارك سفير الجمعية العمومية اليهم والى الخديو ، وموضع ثقة الطرفين . ويرى « بيوفيس » (٣) أن الأساس الذى

---

(١) الوقائع المصرية ٢٠ يوليه ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية — ٣١ يوليه ١٨٨٢ .

(٣) Biovès, Achile : Français et anglais en Egypte, 1903, p. 236.

رآه على مبارك لتسوية الموقف هو قبول مطالب الدولتين فى مذكرة ٢٥ مايو ١٨٨٢ (١) واخلاء معسكر كفر الدوار ، وان كنا نعتقد انه الأساس الذى يراه الخديو ويرضى به لاستعادة سلطته ، دون أن يلجأ لاستعادتها والتخلص من خصومه الى سند عسكري يأتيه من جانب فرنسا أو انجلترا ، وهو يعلم أن الاستعانة بهما فيما لو نجحا فى القضاء على العرابيين سيقتص من سلطته واستقلاله فاذا نزل العرابيون على ما جاء بالمذكرة لم يعد الخديو فى حاجة

(١) نص مذكرة الدولتين الى محمود سامى البارودى رئيس مجلس النظار :

« ان قنصلى فرنسا وبريطانيا العظمى الموقعين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من حيث أن عاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، وكذا رغبته فى تأييد سلم مصر ورفاهيتها على عرض الشروط الآتية على عطوفتلو محمود سامى باشا رئيس مجلس النظار ، اذ رأى أنها الواسطة الوحيدة لوضع حد لحالة الاضطراب فى مصر ، وهذه الشروط هى :

١ ـ ابعاد سعادة عرابى باشا مؤقتا عن مصر مع بقاء رتبته ومرتباته .

٢ ـ ارسال كل من على باشا فهمى وعبد العال باشا الى داخل مصر مع بقاء رتبهما ومرتباتهما .

٣ ـ استقالة الوزارة الحالية .

وقد رأيا أن هـــذه الشروط لمـــا فيها من روح الاعتدال تمنع المصائب التى تستهدف لها مصر فهما باسم حكومتيهما وتفويض منهما ينصحان حضرة رئيس مجلس النظار وزملاءه بقبولها . وعنـــد الاقتضاء يشترطان تنفيذها ، وليس لحكومتى فرنسا وانجلترا غاية من التدخل فى شئون مصر سوى المحافظة على الوضع القائم . (stat ısquo) وبالتـــالى أن يعيـــدا للخديو السلطة المختصة به ، اذ بدونها يخشى على هذا الوضع القائم .

وبما أن توسط الدولتين ليس مبنيا على حب الانتقام والتشفى فسيبذلان الجهد فى صدور عفو عمومى من الحضرة الخـديوية وسيسهران على تنفيـذ هذه العفـــوة .

(الرافعى : الثورة العرابية ص ٢٧٩ ـ ١٨٠ ، مع تعديل اقتضته دقة الترجمة العبـــــــارة statusquo ـ وكذلك الوطن عدد ٢ يونيه ١٨٨٢ ، والكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ وثيقة رقم ١٣٩) .

الى الاستعانة بالانجليز ولم يعد للانجليز حجة للتدخل العسكرى بعد أن اتخذوا من حماية الخديو سببا للعدوان . واذا اخلوا كفر الدوار وكانوا قد انسحبوا اليها وتحصنوا بها بعد احتلال الانجليز للاسكندرية لم يعد هناك ما يستدعى زحف القوات البريطانية الى داخل البلاد ، ولعل الوزراء كانوا أشد خوفا من الخديو على استقلال البلاد وأكثر خشية من التدخل البريطانى ، فان ما يهم الخديو أولا وقبل أى شيء آخر هو حماية عرشه وبقائه على هذا العرش ، وليس هناك ما يخشاه على بقائه من الانجليز وأشد ما يخشاه هو عرابى وقد أصبح زعيما شعبيا يدافع عن قضية مقدسة هى استقلال مصر وحمايتها من العدوان الأجنبى . فلاذا انسحب عرابى من الميدان نزولا على ما جاء فى مذكرة ٢٥ مايو ١٨٨٢ ، ضمن الخديو البقاء على عرشه ، وغدا من المحتمل أن يكف الانجليز عن التدخل المسلح ، ويربح الخديو فى الحالين .

ولعل على مبارك هو صاحب هذا الرأى ، ولعله أقنع به الوزراء والخديو فحملوه السعى به الى عرابى ، فاقترح هذا الاجتماع وكأنه من جانب الخديو كما يفهم من جوابه الى عرابى بكفر الدوار (١) فقد كان على مبارك كما عرفنا — لا يحب العنف ولا يميل اليه ، ويعتقد أن أسباب العمران ماضية فى سبيلها وان الزمن كفيل بتحقيق ما يعز تحقيقه من آمال المصريين ، ولعله حين قصد الاسكندرية ودرس الموقف عن كثب — وهو رجل عسكرى — قد تحقق من خسارة العرابيين ، فتقدم بهذا الحل عله ينقذ البلد — كما يظن — أو ينال ثقة الجانب الرابح .

وأدرك عرابى أن على مبارك قد اتخذ جانب الخديو ، فرد عليه برفض الاقتراح وانه لا يتجاوز حقه فيما « تأمر الامة » وكان هذا آخر عهده بالعرابيين ، فقد أذاع عرابى منشورا على الدواوين

---

(١) الرافعى : الثورة العرابية : ص ٤٠٢ .

والمديريات أعلن فيه انضمام الخديو الى الانجليز وخلع طاعته ختمه بقوله : « وها نحن بجيشنا المظفر المنصور فى مراكز الحرب قد بعنا انفسنا فى حياة بلادنا وحفظها من الأعداء لايردنا عن ذلك الا الظفر والنصر أو ارتحال العدو عن ميناء اسكندرية بأساطيله ورجاله ، والا فاننا نقابل القوة بمثلها ولا نسلم البلاد لأحد وفيها ذو روح يتنفس ، والله يؤيد بنصره من يشاء » (١) .

ويبدو أن على مبارك لم يكن موضع ثقة عرابى منذ البداية اذ يأخذ على « البكباشى ألفى أفندى يوسف أنه نكث بعهده الذى عاهدناه عليه من أول يوم فلم يعد الى بيته الا بعد أن ذهب الى خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى ، وأخبره بما تقرر بيننا فى اجتماعنا الأول » (٢) وذلك بصدد ما جرى من اتفاق الضباط على نجدته عند اعتقاله بقصر النيل ، كما يأخذ عليه أنه « كذلك أخبر على باشا مبارك بكل ما تم الاتفاق عليه بيننا » مما يدل على أن على مبارك لم يكن فى صف العرابيين وأنه كان عينا عليهم عند الخديو كخيرى باشا رئيس الديوان على السواء . ويؤيد ذلك أن عبد الله باشا فكرى ناظر المعارف فى وزارة البارودى يتلمس من شهادته دليلا على براءته من التحيز العرابى فيقول فى تبرئة نفسه من تهمة العصيان أنه لم يفه بكلمة فى انعقاد الجمعيةالعمومية بديوان الداخلية « وفى ليلة حضر على باشا مبارك رافقته من منزله الى قصر النيل والححت عليه بأن ينصح لعرابى ويعرض للجناب الخديو وجـــوب حل هذه المسألة بالسلم » فلولا أن عبــد الله فكرى يعلم مكانة على مبارك عند الخديو توفيق لما تلمس عنده

---

(١) الرافعى : الثورة العرابية ص ٤٠٢ والوقائع المصرية فى ٢٥ ، ٣١ يولية ١٨٨٢ .

(٢) مذكرات عرابى ج ١ ص ٦٤ ـ ٦٥ .

هذه الشهادة ، وما كانت تلك المكانة لعلى مبارك عند توفيق الا لثقته فى ولائه له ، وايمانه بأنه ضد العرابيين .

فاذا قيل ان اختيار على مبارك على رأس وفد الجمعية العمومية الى توفيق ، دليل ثقة العرابيين به ، فاننا نقول أنه لم يكن دليل ثقة العرابيين به بقدر ما كان دليلا على ثقة الخديو به ، فمن البداهة أن تختار الجمعية العمومية من يطمئن الخديو اليه ويثق فى نواياه ، فانه بذلك يكون أقدر على اقتناعه بما انتهى اليه قرار الجمعية . وان كنا نستبعد ما ذكره محمود باشا فهمى أحد زعماء الثورة العرابية فى مذكراته اذ نسب اليه أنه حرض عرب الشرقية على خيانة عرابى والامتناع عن القتال والتخلى عن معونته باذلا لهم الوعود « بانعامات الخديو وعطاياه » (١) وان كان من المحتمل أن يقع فى مثل هذا الوزر فتحت ضغط الخديو وتلبية لأمره اذ لم تكن له قدرة على عصيان الخديوين وكان به فرق دائم منهم « يعترف به ويبدو واضحا فى سلوكه حيالهم وكتاباته عنهم» وان لم يجرده ذلك من حبه لبلاده واعتزازه بمصريته على خلاف من لاذ من المصريين « بالذوات الأتراك » فتنكر لأهله وعشيرته ، وان نسب اليه « عبد الله النديم » التنكر للأهل والتواء اللسان ، فقد حمل فى صحيفته « التنكيت والتبكيت » (٢) بعنوان « عربى تفرنج » على من تعلم فى أوربا ثم عاد الى وطنه وقد التوى لسانه وتنكر لأهله ، ويقص عن أحدهم أنه طرق باب أهله بعد غيبة طويلة فى أوربا فلما سألوه من هو ، أجابهم بلغة أهل باريس ، فلم يفهموا منه شيئا ، ويذكر الشرقاوى أن بعض المعمرين ممن عرفوا على مبارك والنديم ، أن النديم كان يقصد على مبارك بهذا التعريض « وان العارفين الذين قرأوا مقالة النديم يومذاك لم يشك واحد منهم فى أنه يقصده » (٣) فاذا كنا لا نشك فيما

---

(١) الجمهورية فى ٢٨ مايو ١٩٥٦ . (٢) ٦ يونية ١٨٨١ العدد الأول .
(٣) على مبارك : حياته ودعوته وآثاره ص ٨٦ ، ٨٧ .

قاله النديم عن هؤلاء النفر الذين يتعلمون فى أوربا حين تلتوى ألسنتهم ويتنكرون لعشيرتهم ، فالشك يراودنا فى أنه كان يقصد على مبارك بقصته هذه ، وان كان من الشبه بين ما قصه النديم وما قصه على مبارك بعد ذلك بسنوات عن زيارته لأهله بعد غيبته الطويلة عنهم ، ما يحمل البعض على الظن بأن النديم يقصده ، فأن ما ذكره على مبارك عن حياته لا يحملنا على الظن أبدا بأنه تنكر لأهله أو لنسبته لهم ، فلو كان حقيقة قد تنكر لأهله لاستنكف أن يذكر من بؤسهم وشقائهم ونسبته اليهم ما ذكر ، فاذا كان النديم يقصد حقيقة على مبارك فلعله من قبيل التجريح الصحفى للخصم أو لعلها شائعة قيلت على لسان بعض الحاقدين عليه ، فاتخذها النديم ذريعة لتجريحه ، وان كان من الانصاف الا نحمل النديم هذا الاتهام ولم يشر الى علىمبارك صراحة بمايقول . فالمعروف أن على مباركلم يتنكر قطلعشيرته ولم ينس مصريته فىيوممن الأيام، وكان على الدوام أحرص « الذوات المصريين — كما كان يعرف من يتعدى حـــدود طبقته من المصريين الى الطبقة الحاكمة كالذوات الأتراك — على الانتماء لأهله وعشيرته وبلده الصغير « برنبال » كما كان أحرصهم على خدمة مصر واستغلال كل الطاقات التى تمنحها الدولة له كموظف عام لنفع مصر والعمل على تقدمها ولا ينقص من شأنه أن رأى فى الثورة العرابية رأيا لم يرض عنه العرابيون ولعله كان أبعد منهم نظرا ، وأصدق تقديرا للظروف .

ومن المؤكد أن على مبارك كان من المؤيدين لاتجاهات شريف باشا الدستورية بالرغم من أنه لم يكن وزيرا فى وزارته ، فقد اتفق هو والبارودى — وكانا وزيرين فى وزارة رياض باشا عام ١٨٧٩ — على أن يحتفظا باستقلالها فى كل ما يتصل بشئون وزارتيهما —كما يقول بلنت — بل انه ليؤكد « انهمـــا كانا يدســـان لرياض فى

ربيع سنة ۱۸۸۱ بقصد اعادة رئيس حزبهما شريف الى السلطة » (۱) .

وما كان اختياره لهما الا لأنهما من أصدقاء العرابيين ويهمه أن يكسب مودة العرابيين .

وعلى أيه حال فقد لقيت الحركة العرابية من تأييد النابهين والأعيان فى البداية ما لعله جذب على مبارك ـ ان لم يكن الى تأييدهما فعلى الأقل الى العطف عليها ـ ولعله كان يرجو الا تشتط فتؤلب القوى الكبرى عليها ، وهو ما لا تطيقه مصر كما يرى ، فلما رأى النهاية المرتقبة وتأكد منها بعد مقابلته للخديو فى الاسكندرية، رأى أن يقف الى جانبه فأثار العرابيين عليه ، وان لم نر فيما كتبه عرابى بعد ذلك مطعنا عليه كما كتب عن سلطان باشا فوصمه بالخيانة وكانت خيانته سافرة كما نعرف .

الا أننا نستطيع أن نقول أن على مبارك قد أسهم فى حركة الاستنارة التى سبقت الحركة العرابية ومهدت لها ، وهى الحركة التى حمل شعلتها الافغانى وشاركت فيها الصحافة الشعبية وكانت ثمرة من ثمار انتشار التعليم .

---

(۱) التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر . الفصل السادس ص ۱۸۸ .

وسنوات عجاف

وقضى عهد وبدأ عهد جديد لم يكن أكثر شرا مما كان قبله ولم يكن أكثر خيرا منه ، وبقيت مصر كما كانت من قبل تجتر آلامهـــا ، فلم تنج من استبداد الخديو الا لتقع فى استبداد المعتمد البريطـانى ، ولم تخلص من سيطرة الجركس الا وتمتد اليهـــا سيطرة رجال الاحتـــلال الانجليزى ، ولم يكن ســـلطان الجـــركس قـــد زايلهـــا تماما ، فقد بقى توفيق يحيى مراســم الحكم التركى ويتشـــيع للطبقة التركية ، ولم يشأ الانجليز أن يقضوا على ما كان لها من كيان اجتماعى وان اقتصوا كثيرا من نفوذها فى دوائر الحكومة ، فبقيت لها (أبهتها) . وبقى لها جاهها تستعلى به على المصريين وتستنكر أن يكونوا معها على قدم المساواة ، ولكنهم خلقوا الى جوارها طبقة مصرية صميمة تنازعها الجاه ، وتقلدها فى (الأبهة) . وتدل عليها بانتمائها الى قصر الدوبارة . كانتمائها بدورها الى سراى عابدين (١) . وغدت طبقة الملاك المصريين أو الأعيـــان وهى تنازع طبقة الذوات التركية ، والانجليز بين الاثنين يقربون ويبعدون كما تشاء مصالحهم وكما تستهويهم الرغبة فى السيطرة والنفـوذ على مصر والمصريين .

وكانت سنوات عجافا ، اقتصت فيها الديون والتعويضات مالية مصر ، وانتكست النهضة التعليمية ، وقضى على الصناعات القليلة القائمة ، وتحولت البلاد الى مزرعة للقطن ، وسوق للتجارة

---

(١) كان يطلق على مقر المعتمد البريطانى قصر الدوبارة ، أما سراى عابدين فهى مقر الخديو .

البريطانية والاستثمارات الأجنبية التى سيطرت على الاقتصاد القومى . وقبض الانجليز على الجيش والشرطة وعلى كل مرفق من مرافق البلاد ، وأصبح المستشار الانجليزى رأيا مطاعا وسلطة تعلو سلطة الوزير .

وخيم على البلاد سكون مرير تسوده الكآبة ، وانطوى الناس على أنفسهم يلعقون جراحهم فى يأس صامت ، ووصم الآثمون الثورة بأنها « هوجة » فقيل « هوجة عرابى » حتى يجردوها من كل معنى كريم ، وراحوا يتقربون من الانجليز وينشدون رضاء الخديو ، وسبق محمد سلطان الخديو الى القاهرة نائبا عنه ومفوضا منه بسلطاته فأمر باعتقال كل من كانت له صلة بالثورة فأمر « بسجن جميع الضباط وجميع رجال الملكية والعلماء وخطباء المساجد والتجار والأعيان الا من كان من الجواسيس والمنافقين حسب ما هو مندرج بسجلات الخديو » — كما يروى عرابى فى مذكراته — وكان محمد سلطان من دعاة الثورة وموقدى نارها ، فلما رأى كفتها خاسرة انقلب عليها ، وجرى جريه أكثر كبار الملاك من المصريين ممن كانوا يعرفون بالأعيان ، فأخذوا يتقربون الى الانجليز بالحفاوة والهدايا ، وكانوا قد شرعوا فى تكوين لجان بالمديريات لجمع الاكتتابات لهدايا قواد الحملة « شكرا لهم على انقاذ البلاد من غوائل الفئة العاصية » (١) — على حد تعبيرهم — فلما لم يلقوا صدى لدعوتهم قدموها من أموالهم الخاصة ، وكان على رأسهم محمد سلطان باشا ، ومحمد الشواربى بك ، وعبد السلام المويلحى بك ، ومحمود سليمان بك وأحمد السيوفى بك ، وقد نالوا الباشوية فى عهد الاحتلال .

وكان أعظم ما أصاب مصر من خسارة انتكاس حركتها القومية

---

(١) الوقائع عدد ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

ولم تكن النكسة فى يأس المصريين من تحقيق تحـــررهم الداخلى والقضاء على الاستبداد التركى الغاشم وانما كانت فى تحول الحركة القومية من التحرر الداخلى الى التحرر الخارجى ومن التخلص من الاستبداد التركى الى التخلص من الاحتلال البريطانى ونفوذ الانجليز الاستعمارى ، واستغرق كفاحه سبعين عاما شغل المصريين عن كل شىء سواه ، فعاق حركة التقدم والنهضة فى مصر ، كما عاق نمو الحركة القومية فى افريقية والشرق .

وقبل أن يدخل الخديو توفيق القاهرة فى ركاب الاحتلال ، استدعى شريف وكلفه بتشكيل وزارة جديدة ، وكتب اليه شريف فى هذا الصدد يقول : « ان المبادىء التى عرضتها على سموكم منذ سنة لا تزال موضع اهتمامى .. كما أنه لا يلزم أن تتجاوز حدود لوائح ديسمبر » مشيرا بذلك الى الاتجاهات الدستورية ومشروع الدستور الذى وضعه فى ديسمبر ١٨٨١ ، ولكن توفيق يبقى على رأيه ــ رغم المحنة ــ مستنكرا الحكم الدستورى فيجيبه بأنه يرى « انه لابد فى زمن الاضطراب من انتشار سلطتنا على الشعب وادارة الأعمال انتشارا أكثر قوة ووضوحا ، ولذلك فاننا نستدعى عنــد الاقتضاء التئام مجلس النظار برئاستنا للبحث فى المسائل المهمة خارجية كانت أم داخلية » (١) .

وألف شريف وزارته الرابعة فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ ، وكان على مبارك فيها وزيرا للأشغال وفى ٢٥ سبتمبر استقل توفيق القطار من الاسكندرية فى طريقه الى القـــاهرة وفى معيته الوزراء . وفى ٣٠ سبتمبر استعرض الخديو والوزراء جيش الاحتلال من كشك أقيم لهم بميدان عابدين حف به من الجانبين الجنرال ولسلى ودوق كنوت على جواديهما وفى تجاهه وقف ضباط الياوران الانجليز وكبار ضباطهم .

---

(١) الرافعى : الثورة العرابية ص ٤٦٦ ــ ٤٦٧ .

وبدأت السنوات العجاف فلم تنقض وتسترجع مصر أنفاسها ، وتبدأ كفاحها لاجلاء المحتل على يد مصطفى كامل حتى كان على مبارك قد فارق هذه الدنيــــا فى أوائل العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، بعد حياة حافلة بدأها ومصر تجنى حصاد الخطأ الذى قادها اليه محمد على وختمها ، وقد تردت فى أخطاء حفيده اسماعيل وخيانات توفيق وكأنها على طول المطاف لم تجن غير قبض الريح .

وبقيت وزارة شريف فى الحـــكم حتى يناير ١٨٨٤ اذ قدم استقالته احتجاجا على تدخل الانجليز فى الحكم وطلبهم اخـــلاء السودان ، وضمنها اعتراضه على « ان هــذه المقترحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصادرة فى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ التى نص فيها على أن الخديو يجرى أحكام البــلاد باشتراكه مع النظار ، فبناء على ذلك نضطر هنا الى أن نطلب من مقامكم العــالى أن تقبلوا استعفاءنا لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية » (١) .

والغريب أن «شريف» اذ استقال احتجاجا على اخلاء السودان ، فان رياض وكان فيها وزيرا للداخلية استقال منها فى ديسمبر ١٨٨٢ احتجاجا على تخفيف الحكم على زعماء الثورة العرابية . وكان شريف تركيا من ربيبى محمد على ومبعوثيه « الذوات » فى بعثة الأنجال الى فرنسا ، بينما كان رياض مصريا صميما بدأ حياته كاتبا بديوان المالية عام ١٨٤٨ ، ونال حظوة لدى عباس الأول فألحقه بمعيته ورقاه الى رتبة الأميرالاى ونصبه مهردارا له (٢) .

وبقى على مبارك فى وزارة شريف ناظرا للأشغال حتى استقالت ، فآب الى بلده (برنبال) يقوم بزراعة أرض له « كان قد مضى على

---

(١) الرافعى : مصر والسودان ص ١١١ .
(٢) أى حامل اختام عباس .

نحو ثلاثين سنة لم أتوجه اليها بسبب كثرة أشغالى بمصالح الحكومة ومن طول المدة كانت قد آلت الى التلف وصار أغلبها سباخا » .

وفى ١١ يونية ١٨٨٨ استدعى رياض لتأليف الوزارة بعد اقالة وزارة نوبار فاختار على مبارك ناظرا للمعارف فقام بها « على حسب المصالح بقدر الامكان » فكان آخر ما تولاه من مناصب الحكومة وبه ختم كتابة سيرته بقوله : « وأخذت فى تأدية ما فرض على قيامه بحق وطنى أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما فيه نفع العباد وأن يختم لنا وللمسلمين بالخير انه سميع قريب مجيب الدعوات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

وكان الاحتلال قد أخذ يقبض يده عن التعليم ، فألغيت المجانية ، وأغلقت أكثر المدارس العالية ، حتى لم يبق منها غير الحقوق والطب والمهندسخانة والمعلمين ، وانحطت برامج التعليم ، وأصبح قاصرا على اعداد موظفى الحكومة ، وأوقفت البعوث العلمية الى الخارج ، وجأر أعضاء مجلس شورى القوانين بالشكوى من انكماش التعليم فتضمن تقرير لجنة الميزانية لعام ١٨٩٤ : « ان نشر التعليم قد تقهقر كليا عما كان عليه قبل ذلك . ويحسن بنا أن نقول : ان القابضين على زمام نظارة المعارف العمومية وادارتها قد سعوا بكل اجتهاد الى طرق تقليل التعليم ، وسد أبوابه بكل حيلة فى وجوه الأمة ولولا النزر القليل القادر على أداء المصروفات لما وجد فى المدارس من التلامذة بقدر عدد المعلمين والموظفين ، كما هو الآن فى مدرسة المهندسخانة وغيرها من المدارس التى انحطت كمدرسة الطب ، ويا ليت النظارة كانت تقبل كل من يأتيها متعهداً بدفع المصاريف ، بل انها سدت هذا الباب أيضا فى كثير من الأحوال والجهات » (١) .

---

(١) مضبطة مجلس شورى القوانين : جلسة ٢٤ ديسمبر ١٨٩٤ ص ٥٠ .

واستمرت وزارة رياض حتى ١٢ مايو ١٨٩١ ، وعلى مبارك يقوم بشئون المعارف ، « على حسب المصالح بقدر الامكان » وتقرر خلال نظارته هذه تدريس المواد باللغة الانجليزية ابتداء من السنة الثالثة الابتدائية ، وحل المدرسون الانجليز محل المصريين ، كما عين « دوجلاس دنلوب » مدرس اللغة الانجليزية بالمدرسة الخديوية مفتشا لعموم المدارس . وقد أصبح فى مارس ١٨٩٧ « سكرتيرا عموميا للمعارف » ثم مستشارا لها فى مارس ١٩٠٦ ، فارتبطت بشخصه سياسة التعليم فى عهد الاحتلال .

وكان على مبارك من المؤيدين لتدريس المواد باللغة الانجليزية مما حمل عليه معاصروه فنسبوا اليه الميل للانجليز ، وان كنا نعتقد أنه لم يكن ميلا بقدر ما كان اعجابا بأمة أصبحت لها تلك المكانة التى صارت اليها بين الأمم فى القرن التاسع عشر ، ولعله كان يتمنى لو كانت مصر فى تلك المكانة فاختار لصحبة علم الدين رجلا انجليزيا وقصد أن يكون من تلك الصحبة لقـــاء على وفاق بين الشرق والغرب ، وان لم يفصح عن هذا الاعجاب وان لم يشر الى هـــذا القصد من لقاء الشرق والغرب وان كنا على يقين من أنه أراد أن يضع ماضى الشرق وأمجاده الى جانب حاضر الغرب وتقدمه ، وأن يقيم من صحبة الرجلين لقاء بين الحضارتين .

أما تأييده لتدريس المواد باللغة الانجليزية أو الفرنسية فقـــد حمله وجهة نظره فى قصور الترجمة العربية عن نقل البحـــوث والمصطلحات العلمية الحديثة ، فان لم تكن اللغة العربية قاصرة عن استيعاب العلم الحـــديث ، فان القصور قائم فى المترجمين القادرين على نقلها الى العربية ، ثم ان فى اجادة الطلاب المصريين للغات الأجنبية ما يتيح لهم القدرة على متابعة دراساتهم العلمية والاتصال بآخر أبحاثها فى ميادين تخصصهم ، وقد كان لطفى السيد يرى أن حركة الترجمة تسبق حركة التأليف ، وان النهضة العلمية يجب أن تقوم على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الأوربية

« فقد عمد رجال هذه النهضة ـ كما يقول ـ الى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصيلة فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى اخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة » (١) .

وفى تلك الفترة الأخيرة من حياته ، وفى السنة الأولى من نظارته للمعارف صدرت موسوعته الضخمة « الخطط التوفيقية » ويقال انه وضع فى تلك الفترة كتابا سماه « آثار الاسلام فى المدنية والعمران » ما زال مطويا فى خزانة مؤلفه (٢) .

وآب الرجل الى بلدته بعد أن استقالت وزارة رياض عام ١٨٩١ ، ثم أصيب بداء المثانة فعاد الى القاهرة حتى وافته المنية فى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ (٥ جمادى الأولى ١٣١١) . فخرجت مصر لتشييعه حكومة وشعبا الى جوار الخالدين .

وانطفأ سراج أضاء سماء مصر حقبة من الزمن .

---

(١) المؤلف : أحمد لطفى السيد ص ٨٤ .
(٢) محمد دوى الحكيم : ص ٦١ .

ثبت المصادر

المصادر العربية :

١ ـ احمد أمين

ـ زعماء الاصلاح فى العصر الحديث — القاهرة ١٩٤٨

٢ ـ ابراهيم عبده ـ الدكتور

ـ تطور الصحافة المصرية (١٧٩٨ ـ ١٩٥١) — القاهرة ١٩٥١

ـ أعلام الصحافة العربية — القاهرة ١٩٤٨

٣ ـ احمد عرابى (الزعيم)

ـ كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية نشر فى سلسلة كتب الهلال بعنوان : مذكرات عرابى — العددان ٢٣ ، ٢٤

٤ ـ أحمد عزت عبد الكريم : الدكتور

ـ تاريخ التعليم فى مصر (من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق) — وزارة المعارف العمومية ١٩٤٥

٥ ـ أمين سامى (باشا)

ـ تقويم النيل : الجزء الثالث (ثلاثة مجلدات) دار الكتب المصرية ١٩٣٦

ـ التعليم فى مصر — القاهرة ١٩١٧

٦ ـ جمال الدين الشيال : الدكتور

- التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٥٨

٧ ـ حسين فوزى النجار : الدكتور

- السـياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط القاهرة ١٩٥٢
- ثورة فى التعليم القاهرة ١٩٥٨
- **أحمد لطفى السيد (أستاذ الجيل)** أعلام العرب عدد ٣٩
- رفاعة الطهطاوى أعلام العرب عدد ٥٣

٨ ـ رفاعة رافع الطهطاوى (بك)

- مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية القاهرة ١٢٣٠ هـ (١٩١٢)

٩ ـ سعيد زايد

- على مبارك وأعماله الألف كتاب ١٩٥٨

١٠ ـ عباس محمود العقاد

- **محمد عبده** أعلام العرب العدد الأول

١١ ـ عبد الرحمن الرافعى

- عصر اسماعيل : جزءان القاهرة ١٩٣٢
- الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى القاهرة ١٩٣٧
- مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال القاهرة ١٩٤٨

١٢ ـ عمر طوسون (الأمير)

- البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد الاسكندرية ١٩٣٤

١٣ ـ محمد أحمـد خلف الله : الدكتور

- على مبارك وآثاره القاهرة ١٩٥٧

١٤ ـ محمد حسين هيكل : الدكتور

ـ تراجم مصرية وغربية القاهرة ١٩٢٩

١٥ ـ محمد درى الحكيم (باشا)

ـ تاريخ حياة المغفور له على مبارك باشا القاهرة ١٨٩٤

١٦ ـ محمود الشرقاوى وعبد الله المشد

ـ على مبارك : حياته ودعوته وآثاره القاهرة ١٩٦٢

١٧ ـ يعقوب أرتين (باشا)

ـ القول التام فى التعليم العام بولاق ١٨٩٤

مؤلفات على مبارك :

ـ الخطط التوفيقية بولاق ١٣٠٦ هـ

ـ علم الدين الأسكندرية ١٨٨٢

ـ نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر القاهرة ١٢٩٧ هـ

ـ تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام القاهرة ١٢٨٩ هـ

ـ تقريب الهندسة القاهرة ١٢٨٠ هـ

ـ تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين القاهرة ١٢٩٠ هـ

ـ الميزان فى الأقيسة والأوزان بولاق ١٣٠٩ هـ

ـ طريق الهجـــاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية : جزءان القاهرة ١٢٩٧ هـ

ـ حقائق الأخبار فى أوصاف البحار القاهرة ١٢٨٧ هـ

ـ خواص الأعداد القاهرة ١٢٨٩ هـ

ـ خلاصة تاريخ العرب : معرب القاهرة ١٣٠٩ هـ

ـ الكشف والبيـــان فى اجتماع مادتى الانسان :

ـ مخطوطة نشرها سعيد زايد فى كتابه على مبارك

مقالات وبحوث نشرت بالصحف والمجلات :

- **محمد الصادق حسين بك** : مقال نشر فى جريدة السياسة الأسبوعية بعنوان

(رجال التاريخ الحديث فى مصر ـ على مبارك) عدد ٥٧ فى ١٩ أبريل ١٩٢٧

- **احمد نجيب هاشم** : الوزير : خطاب عن على مبارك نشرته مجلة « مرآة العلوم الاجتماعية » عدد ٨ أبريل ١٩٦٠

- **يعقوب صروف** : الدكتور : أعلام المقتطف .
- **مجلة المقتطف** : المجلد الثامن عشر . العددان الثالث والرابع .
- **مجلة الهلال** : المجلد الثانى . العددان السادس والعاشر ـ ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤ .
- **صحيفة دار العلوم** : السنة الأولى . العدد الثالث ـ يناير ١٩٣٥ .
- **صحيفة الجمهورية** : من مذكرات محمود فهمى المهندس فى ٢٨ مايو ١٩٥٦ .
- **عبد الله النديم** : مقال نشر فى صحيفة « التنكيت والتبكيت » بعنوان « عربى تفرنج » ٦ يونية ١٨٨١ .
- **هيلين آن ريفلن** : مقال نشر بمجلة « الشرق الأوسط » مجلد ١٥ عدد ٤ سنة ١٩٦١ بعنوان : الخط الحديدى وأزمة ١٨٥٠ ـ ١٨٥٢ بين مصر والدولة العثمانية .

وثائق وتقارير :

- مجموعة الديكريتات والتقريرات وما يتبعها بولاق ١٢٩٨ هـ .
- التقرير الخامس المرفوع من نظارة المعارف العمومية للأعتاب السنية عن حالة التعليم العمومى بالديار المصرية فى سنة ١٨٨٩ (متحف التعليم) .
- قرار وزارى صادر من نظارة المعارف العمومية رقم ١١١ فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٨ المطبعة الأميرية ١٨٨٨ (متحف التعليم) .
- الصحف المعاصرة وقد أشرنا اليها فى الهوامش .

المصادر الاجنبية بترتيب ورودها :

1. Helen Anne B. Rivilin:
— The Railway Question in the Ottoman-Egyptian crisis of 1850-1852.
The Middle East Journal: Vol 15. Autumn 1961. Number 4.

2. Dodwell, Henry:
— TheFounder of Modern Egypt: A Study of Mohamed Ali. Cambridge 1931.

3. Blunt W.S.:
— Secret History of the English Occupation of Egypt being a Personal Narrative of Events.
2 Vols. London 1907.

وقد صـدرت له ترجمتان ، الأولى عن جريدة البلاغ والثانيـة فى سلسلة « اخترنا لك » صادرة عن الدار القومية للطباعة والنشر .

4. Cromer, Eorl:
— Modern Egypt. 2 Vols. London 1908.

5. Ninet, John:
— Arabi Pacha. Paris, 1884.

6. Artin, Yacoub Pacha:
— Consideations sur L'instruction publique en Egypte. Paris 1894.
— L'Instruction publique en Egypte. Paris 1890.

7. Dor, N. uard:
— L'Instruction publique en Egypte. Paris 1892.

8. Bioves, Achille:
— Français et anglais en Egypte :

9. Revue des deux Mondes: Gabriel Charmes:
— Un Essai de Gouvernement Européen en Egypte.

عدد ١٥ اغسطس وأول سبتمبر ومنتصف سبتمبر ١٨٧٩ .

— L'Insurrection Militaire en Egypte.

عددا ١٥ اغسطس و ١٥ سبتمبر ١٨٨٣ .

الفهرس

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد وافى
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ـ سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	أمين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ـ الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

اسم الكتاب	المؤلف
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ أحمد زكى	أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى ...	عقيد : محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى ...	عبد القادر احمد
٣٣ ـ رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ ابو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	د . احمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ أبو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ أحمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين ...	د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الايوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد عبد الملك الزيات ...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ـ أحمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل الكاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر